د. محمد سليم العوّا

أسرتنا
بين الدين والخُلق

حاوره زياد دندن



دار المعرفة
بيروت - لبنان

لتحميل انواع الكتب راجع: (مُنتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

براي دانلود كتابهاى مختلف مراجعه: (منتدى اقرأ الثقافى)

بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (مُنتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

www. Iqra.ahlamontada.com



www.iqra.ahlamontada.com

للكتب (كوردى , عربي , فارسي)


أسرتنا
بين الدين والخُلق

أسرتنا

بين الدين والخُلق

د. محمد سليم العوّا

حاوره زياد دندن

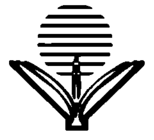




ISBN 9953-85-060-7

الطبعة الأولى
1429 هـ - 2008 م





جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١-٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

في أوائل سبعينيات القرن الماضي كنت حينها تجاوزت العقد الأول من العمر بقليل. وكان والدي رحمه الله تعالى يصطحبني وأخي الأكبر معه كل يوم جمعة إلى مركز التأهيل الطبي حيث يعمل، وكان هذا المركز من أهم وأوائل مراكز العلاج الفيزيائي في الشرق الأوسط حينها، وكان ولا يزال على ثغر من ثغور بيروت المحروسة وتحديداً عند مدخلها الجنوبي مقابل مقام ومسجد الإمام الأوزاعي رحمه الله تعالى.

وكنت أسعد بالإنصات إلى خطيب الجمعة، وقد بدأ سلسلة من الخطب حول العلاقات الأسرية: حقوقها وواجباتها والأخلاق التي تحكم وتتحكم بهذه العلاقات بين أفراد الأسرة آباءً وأبناءً، أجداداً وأحفاداً ذكوراً وإناثاً. وأخالُ الفتى بعمر اثني عشر عاماً لا يفقه الكثير من الخطب الدينية والدروس الوعظية إلّا أن هذا الخطيب الأزهري جزاه الله تعالى عنا وعن الإسلام خيراً ـ والذي ما زال اسمه محفوراً في ذاكرتي الشيخ جودة عبد العزيز ـ عَرف كيف يتملَّكُ حواس السامعين وعقولهم أسبوعاً بعد أسبوع،

وبأسلوب شيق استعرض كل ما يعتري علاقة الآباء بالأبناء، والأزواج بالزوجات، والأخوة والأخوات فيما بينهم، بدأ فضيلتُه السلسلة من اختيار الشريك منطلقاً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والمأثور مما كان عليه صحابةُ رسول الله المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكان موضوع خطبه مثار تداول فيما بيننا طيلة أيام الأسبوع مراجعةً واستفادةً من المعلومات والمواقف والمنطلقات الإسلامية لتكون نبراساً لنا في علاقاتنا فيما بيننا كأسرة مسلمة ومع الآخرين، ومنذ ذلك الحين كان اهتمامي يتزايد في البحث عن الكنوز التي تذخر بها شريعتنا الإسلامية فيما يخص قضايا الأحوال الشخصية، والهوة التي تزداد اتساعاً بين النظرية والتطبيق.

وقُدّر لي أن أعمل في المجال الإذاعي منذ أوائل ثمانينات القرن الماضي وعلى مدى هذه السنين أجريت مئات الحوارات الإذاعية مجتمعة تحت عناوين مختلفة لبرامج إذاعية، أو متفرقة في مناسبات تتناول شؤون الأسرة المسلمة من الجوانب المختلفة أحكاماً وتطبيقات، آداباً وفضائل وتعاملات. إلى أن قرأت لفضيلة الدكتور **محمد سليم العوا** سلسلة مقالات صحفية بعنوان: **«بين الآباء والأبناء»**.

ولما كان بيني وبين الدكتور **«العوا»** مجموعةُ حوارات إذاعية رائعة لإذاعة الشرق في باريس ولإذاعة القرآن الكريم من لبنان، وجمعتنا أخوةٌ وصداقة أفتخر وأعتز بها. لفتتني واقعيةُ

هذه المقالات التي تحكي مواقف هذا الأب مع أولاده وبناته، عوضاً عن بعض الوقائع التي عرفتها شخصياً من الدكتور «العوا» بحكم السؤال عن الحال والأحوال عند كل لقاء بيننا، فكان الاقتراح للدكتور العوا بأن يكون لنا سلسلة حوارات عن الأسرة المسلمة من واقع عملي وليس مجرد أحكام وتشريعات. وكم كنت أتمنى أن أقدم للمتلقِّي عبر الإذاعة أو التلفزيون مثالاً مُعَاشَاً يمكن لنا جميعاً مع قليل من الجهد والتصميم أن نحتذي به طالما أنَّهُ يلتزم المنهج الإسلامي القويم يمكن لنا بوسطيته واعتداله من دون تفريط أو غلو وإفراط.

فكانت هذه السلسلة من الحوارات الإذاعية التي أنتجت لإذاعة القرآن الكريم من لبنان في شهر رمضان 1426 للهجرة ـ 2004 للميلاد، تحت عنوان: **«أسرتنا بين الدين والخلق»**، انطلاقاً من حديث الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين: **«إذا أتاكم من ترضون دينَهُ وخُلقَهُ فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد عريض»**. والفهم السليم لهذا الإرشاد النبوي أنَّ التديُنَ وحدهُ لا يكفي إن لم يقترن بالخلق، كما أن الأخلاق الرفيعة وحدها لا تكفي إن لم تقترن بعلاقة سليمة بين العبد وربه تنعكس هدايةً ورحمةً بين الناس، الأقربين منهم قبل غيرهم.

سلسلة حوارات إذاعية تتحول إلى كتاب يقرأ ويُحفَظ. نسأل الله تعالى أن يكون فيه النفع ويجزي عنا صاحب العطاء الدكتور محمد سليم العوا والناشر دار المعرفة ـ بيروت، وعلى

رأسه الأخ والصديق محمد فولادكار كل الخير في الدارين، وكذلك الشكر والدعاء لكل من أسهم في إخراج هذا العمل وفي المقدمة للقائم بالأمر على إذاعة القرآن الكريم من لبنان سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ الدكتور محمد رشيد قباني حفظه الله تعالى الذي شرفني وكلفني بتولي إدارة هذا الصرح الإعلامي الرائد في لبنان ما بين عامي 2000 و2005 للميلاد.

وأسألكم الدعاء، هدانا الله وإياكم إلى خير وأفضل الصلاة وأزكى السلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

زياد دندن

بيروت 9/ 7/ 2007

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: 1].

أما بعد:

فإن الدين من دون الخُلق لا يكفي، والخلق بمعنى الأخلاق الفاضلة والنبيلة من غير وازع إيماني وحده لا يكفي، فكلاهما مكمل للآخر فهما يجب أن يكونا متلازمين مع بعضهما من أجل بناء أسرة مسلمة صالحة.

وإن تربية الأولاد تعدّ من أصعب المهام في المجتمع، ونحن الآن بأشد الحاجة إلى تربية الأبناء تربية صالحة تقوم على

أساس الدين والأخلاق الحميدة، نريد أن نعود إلى أصولنا، وديننا وثقافتنا الصحيحة لكي تقوم الأسرة على ما يصلح المجتمع، لا لكي تكون الأسرة معول هدمٍ وفسادٍ وإفسادٍ في هذا المجتمع.

وهذا الكتاب سلسلة من حلقات أذيعت في لبنان في إذاعة القرآن الكريم فله المنة وله الكرم، راجياً من المولى أن يتقبله مني ويجعله في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة الإيمان.

الدكتور محمد سليم العوا

العلاقة بين الرجل والمرأة

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: 21].

هذه الآية الكريمة هي دستور العلاقة بين الزوجين علاقة سُداها ولحمتها أنهما من أصل واحد.

والصلة التي تقوم بين الزوج والزوجة، ليست صلة مشاركة مثل شركة لا تقبل الانفصام، كما هو متعارف به عند الغرب.

بل هي صلة تقوم بين بعضهم البعض على المحبة الدائمة والرحمة المتجددة، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

ومعنى ذلك أنَّ هذه المودّة الدائمة هي المحبة، فإذا وَدَّ الرجل أخاه أو ودّ الزوج زوجته فهذا يعني: أنَّ المحبة رسخت في قلب كل منهما نحو الآخر.

وأصبح كل منهما بسبب هذه المحبة يستصغر الهفوات ويستقل العثرات ولا يقف عند الأخطاء الصغيرة التي تقع بين الرجل والمرأة، لماذا؟ لأن المودة قائمة، فهذه المشاكل الصغيرة

التافهة؛ لو أنَّها تراكمت لعكّرت صفو العلاقة الزوجية والإنسانية، أما لو أُزيلت الواحدة بعد الأخرى لحالت دون الوقوع بأخطاء أكبر حجماً من المشكلة؛ وهذا كله يقع ضمن معنى الرحمة التي تأتي بعد المودّة.

المودة والرحمة:

قال الله تعالى في كتابه العزيز عن علاقة الزوج بزوجته: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21] وهو يعني بالرحمة رحمة الشريك، فلا يستغل أحد الزوجين نقطة الضعف عند شريكه، فلكل منا نقطة ضعف أو نقاط ضعف.

والمروءة وحسن الخلق يقضيان على الشريك بأن يراعي نقاط الضعف في شريكه بعلاجها أو بتجاهلها. وذلك بألا يستغل نقطة الضعف ليحقق لنفسه على حساب شريكه مكانة أو سطوة، فالرجل الذي يستبد برأيه وينفرد في الأسرة بكل قرار لا يمارس الرحمة الواجبة عليه شرعاً. وإذا كانت الرحمة واجبة على كل من الزوجين للآخر فإن المرأة أولى بالرحمة لأن رسول الله ﷺ قال: **«اتقوا الله في النساء فإنهنّ عندكم عوانٌ»**[1].

والعاني: هو الأسير؛ فالمرأة أسيرة في بيت زوجها؛ لأن الرجل هو الذي يملك عقدة النكاح والطلاق.

---

(1) ذكره **الطحاوي** في «مشكل الآثار» (الحديث: 3/ 212).

لذلك أمر الرسول ﷺ الرجال بتقوى الله في نسائهم؛ لأن هذه التقوى تؤكد معنى الرحمة، فأنا لا أتقي الله في زوجتي لأنني أخاف؛ بل لأنها ترحمني، وعندما تأتي اللحظة الحاسمة فواجبي أن أتقي الله بها وأرحمها.

الحب الحلال والحب الحرام:

سئل الإمام حسن البنا رحمه الله عن الحب فقيل له: «هل الحب حلال أم حرام؟ فرد الإمام: الحب الحلال حلال والحب الحرام حرام».

والحب الحلال هو الذي ينشأ بين الرجل وزوجته بعد ارتباطهما بالرباط الشرعي الذي سماه الله ﷻ رباطاً وميثاقاً غليظاً.

الميثاق الغليظ

قال تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: 20-21].

لقد سمّى الله عقد الزواج ميثاقاً غليظاً، ولم يسمّ أي علاقة أخرى بهذه التسمية المهمة التي تُشعِر بعظم المسؤولية وثقلها.

الحب في القرآن والسنة:

عَبّر القرآن الكريم بلفظ المودّة ولم يعبّر بلفظ الحب؛ لأن

المودّة أبقى من الحب؛ فالحب عاطفة قد تنشب وقد تخفت وقد تكون في أوج اشتعالها عند الشباب لأن قوة الإنسان تدفعه إلى إشباع غرائزه ورغباته البدنية والنفسية والذاتية، وقد تخفت هذه المشاعر وهذه الرغبة مع التقدم في السن أو مع تغير الظروف الاجتماعية والصحية وحالتي الغنى والفقر، أما المودّة فإنها تزداد مع الأيام رسوخاً، وتتراكم عناصرها كل لحظة، فيشعر الرجل أن مودّته ومحبته لزوجته تزداد يوماً بعد يوم.

وقد جاءت كلمة الحب من الغرب، ولم تعد تعبّر هذه الكلمة في الغرب عن العلاقة الروحية؛ بل عن العلاقة المادية، فهم يطلقون عليها اسم اللقاء الجسدي بين الرجل والمرأة (love) أي: الحب باللغة الإنكليزية.

أما في الإسلام فلا وجود للحب المادي دون رباط شرعي بين الرجل والمرأة، وقد حدد الله ﷻ كيفية إشباع هذه الغريزة العظيمة التي يكون بها التكاثر والتناسل بين البشر، والتي بها يباهي الأنبياء والرسول ﷺ يوم القيامة.

ففي صحيح البخاري أن رسول ﷺ قال: **«عرضت عليّ الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك»**

وفي رواية أحمد: «**فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهيئتهم فقيل: أرضيت يا محمد؟ قلت: نعم**»[1].

ويروى عنه ﷺ قوله: «**تناكحوا وتناسلوا وتكاثروا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة**»[2].

فالمباهاة لا تكون بكثرة العدد ولكن بكثرة الصادقين والمخلصين والصالحين، لذلك يرجو النبيّ ﷺ أن نكون أكثر التابعين له وأن يكون هو أكثر الأنبياء أتباعاً.

إنَّ العلاقة التي يسميها البعض حباً علاقة قد تدوم وقد لا تدوم في أكثر الأحيان؛ لأنَّها علاقة آنيّة وجسدية ونفسية بالنسبة للشباب والفتيات، وسرعان ما تنتهي، ويطمح كل منهما بشريك وقرين آخر ـ في أكثر الأحيان ـ ليعطي نفسه إشباعاً آخر ويصبح الموضوع كأنه نوع من الطعام والشراب يتذوقونه، أو ملابس يريدون تبديلها كلّما شعروا بالملل منها.

والمودّة الحقيقية في الإنسان لا تتبدّل بل تزداد، أنت مثلاً يمكن أن لا ترى صديقك لمدة طويلة وعندما تلتقيان تشعران أنّكما كنتما بالأمس معاً، وذلك لأن المودّة راسخة في القلب

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 6541)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 401) و(الحديث: 1/ 420) و(الحديث: 1/ 271).

(2) أخرجه القرطبي في «تفسيره» (الحديث: 5/ 391)، وأخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (الحديث: 10391).

وكذلك المشاعر الجميلة التي تجمع بين الزوجين شعور يكاد لا ينقضي؛ بل يزداد كل يوم، وعندئذٍ تتحول الصلة بين الزوجين من حب عاطفي جسدي ومادي إلى حب روحي لا يخفت ولا يخبو ويكون مداره العطاء لا الأخذ.

قال رسول الله ﷺ: «**إن أبرَّ البِرِّ صلة الولد أهل ودّ أبيه**»[1]. لماذا لم يقُل قرابة أبيه أو أهل أبيه وقال: **أهل ودّ أبيه**؛ لأن الصلة الواجبة أشمل من أن تقتصر على القرابة، والودّ الدائم هو الأمر المشترك في كل صلة طيبة سواء أكانت بين الأقارب أم كانت مع غير الأقارب.

هدف العلاقة بين الرجل والمرأة:

إنَّ العلاقة بين الرجل والمرأة يجب أن يكون هدفها الارتباط لتكوين أسرة، وأن تكون علاقة أمل وتشوُّق لا علاقة فساد وانحراف وخلوة غير مشروعة بدون علم الأهل.

لذلك إذا كانت العلاقة الروحية يصحبها نيّة في الرغبة بالارتباط بين الشاب والفتاة فالحب مباح. وإذا اتفقا وتمنى كل منهما الارتباط بالآخر فليتقدم هو ويطلب يدها من أهلها.

كان الصحابة ﷺ يعرّضون بخطبة النساء، ومن طريف ما يروى في ذلك:

---

(1) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 6460) و(الحديث: 6461) و(الحديث: 6462)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 5143)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1903).

أنَّ امرأة توفي عنها زوجها فجلست تلطم وجهها بعد وفاته أمام الناس في الطريق، فأرسل إليها أحد الصحابة وقال لها: اتقي الله في هذا الوجه فإن بنا إليه حاجة، وكان هذا من التعريض، فعلمت المرأة أن الرجل يفكّر في الزواج منها. وفي كتب التفسير صيغ للتعريض كثيرة تدل على اتساع نطاق استعمال العرب له.

والله تعالى يقول: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 235]، أي: عندما يتوفى زوج المرأة أو يطلقها طلاقاً بائناً، تدخل المرأة في أشهر العدة التي أمر الله تعالى بها في القرآن، فلا يجوز أن تُخطب إلّا عند انتهاء أشهر عدتها، ويجوز التعريض في أثناء هذه المدة، والتعريض يكون باللفظ واللغة الحسنة والعبارة المؤدبة، لا يتجاوزان هذا الحدّ من جانب الشاب الراغب في الزواج.

والهدف الوحيد المشروع من العلاقة بين الشاب والفتاة هو تكوين الأسرة، وفي الهدف من تكوين الأسرة أمران: أمر يخص الزوجين، وأمر يخص المجتمع والأسرة؛ أما فيما يخص الزوجين فهو الاستقلال بحياة سعيدة هانئة مستقرة فيها الهدوء النفسي والإنساني والرحمة والمودّة.

وأما الأمر الثاني الذي يخص المجتمع فهو التكاثر والتناسل من أجل بناء مجتمع إسلامي متقدم وجديد قادر على الإنماء والتطور ودفع مسيرة الحضارة إلى الأمام.

وأقول في مناسبات كثيرة لأصدقائنا:

انظروا إلى أحوالنا وإلى أبنائنا فهم يقولون: آباؤنا يؤكدون لنا دائماً: إنَّ الجيل الماضي كان أفضل وأحسن، وأنا لا أرى هذا التأكيد صحيحاً، يجوز أن يكون الجيل الماضي أحسن من ناحية مستوى الفرد، لكنه ليس صحيحاً أنه في مجموعه ـ دائماً ـ أفضل من الأجيال اللاحقة.

ما هو مستوى التعليم في جيلنا وجيل آبائنا؟ لا بد أنَّ الأمر في تقدم واضطراد، وما هو مستوى الثروة في جيل أبنائنا أو جيلنا وجيل آبائنا إنه في تقدم واضطراد، ما هو مستوى العمل الإسلامي العلني الحر المباح الذي يؤدي إلى إنماء المؤسسات الصناعية والصحية والاقتصادية والاجتماعية والزراعية، والعمل الثقافي والإعلامي والترفيهي، لا بد أنّه في تقدم ونماء.

من أين أتى هذا التقدم؟! أتى من تزاوج الناس وتناسلهم ومن انتشار التعليم بين أبنائهم وبناتهم، بل وتراجع الأفكار السائدة التي كانت مخيفة قبل أن ينتشر هذا التعليم وقبل أن تحدث الصحوة الإسلامية المباركة التي تحدث الآن والتي نعيش في ظلها.

أنا لا أوافق من يقول: زوّجوا فتيانكم كي لا يقعوا في الحرام ولكن دون أن ينجبوا أطفالاً، لأنّ أصحاب هذا القول يغفلون عن أمر مهم جداً ومقصد مهم هو بناء هذه الأمة، فالإنجاب والتناسل يوسع فرص التقدم والحضارة في أمتنا.

أما إذا لم يتفق الشريكان لسبب أو لآخر وقررا الانفصال فالله شرّع لهذه الحالات أبغض الحلال وهو الطلاق، أي جعل لهذا الأمر وسيلة انفصال محترمة، وجعل الطلاق مرة واثنان وثلاثة، وفي حال وقع الطلاق في المرة الثالثة فلا يحلّ للزوج استعادة زوجته إلّا إذا نكحها زوج آخر ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة: 230].

إن تكوين الأسرة في وقتنا الحاضر أمر يعاني منه الشباب والفتيات على السواء. ويجب أن تعمل الأسر على تيسير الزواج وتخفيف أعبائه لئلا يضطر شبابنا إلى ما لا يحل لهم، ولئلا يقف نمو الأمة الإسلامية الضروري لبقائها وتقدمها.

تربية الأولاد

إن تربية الأولاد تعدّ من أصعب المهام في المجتمع، لذا قد يتساءل البعض: كيف نتعلم التربية ونحن في مقتبل العمر، ونؤسس لأسرة ونربي أبناءنا وننشئهم على كل معاني وقِيَم الخير؟ هل نتعلم التربية من الكتب ومن الموروثات أم من العادات، أو نتطلع إلى أجدادنا، أم ننظر إلى المستقبل على ما سيكون عليه أمر أولادنا؟

نحن الآن بأشد الحاجة إلى تربية الأبناء تربية صالحة تقوم على أساس الدين والأخلاق الحميدة؛ لأن العالم الإسلامي والعربي تتنازعه من جميع الاتجاهات صيحات نحو الإصلاح: الإصلاح السياسي والاقتصادي والفكري، ولا يمكن أن يثمر أي نوع من هذه الإصلاحات إلّا إذا بدأنا بإصلاح الشباب والفتيات؛ لأنَّ إصلاح التربية هو إصلاح الإنسان، فالإنسان هو الذي يصنع السياسة والاقتصاد وهو الذي يتقدم ويتخلق، وإذا أحسنّا التربية تمكّنا من صنع ما نتمناه لوطننا وأمتنا. أمّا إذا أهملنا الإصلاح التربوي فلن يحصل ما نتمنّاه في أي مجال آخر.

لذلك فإن التربية أمر صعب جداً، وأمر جدي، وليس فيه هزل، وعلينا أن نتبع فيها منهجاً علمياً محدداً.

أذكر أنني عندما كنت في السنة الجامعية الأخيرة من دراستي الحقوقية طلبت من أحد أخوالي ـ وقد كان قاضياً ـ أن يدعو الله لي كي أحصِّل درجات عالية، فقال لي خالي: وما نفع دعائي إذا لم تستعدّ وتجهد كثيراً لتنال ما تريد؟ قلت له: أنا طلبت منك أن تدعو لي فقط. فقال لي: إن الله لا يقبل مني حتى تعمل أنت عملاً جاداً عند ذلك يقبل الله منك عملك ويجزيك عليه خيراً ويقبل دعائي.

حينها كنت صغيراً فلم أفهم معنى كلامه ومغزاه، وكل ما فهمته أنه رفض أن يدعو لي. وبعد أن تزوجت وأنجبت الأطفال، وأصبحت الآن جَدّاً، فهمت ما كان يقصد بقوله ذاك. فالدعاء وحده لا يكفي بل لا بد أن يقرن بالعمل، والتربية بالأخص يصدق فيها هذا المعنى. فلا يجوز أن نترك الأولاد على بركة الله، دون أن نتبع في تربيتهم منهجاً محدداً.

كان آباؤنا وأمهاتنا يقومون بتربيتنا بطريقة عفوية كما فعل آباؤهم وأمهاتهم ولقد أدى ذلك إلى نتائج حسنة، لكن المجتمع تغيّر الآن... والمؤثرات التي تأتي من الخارج أصبح تأثيرها في الشباب والفتيات أكبر من تأثير الآباء والأمهات فيهم إلّا من عصم ربي.

والوسط المدرسي الذي كان وسطاً حاضناً شافعاً في أغلب الأحيان لأولادنا، لم يَعُد اليوم ذلك الوسط الذي نأمنه عليهم،

فزادت صعوبة المنهاج التربوي الذي ينبغي أن نتخذه منهجاً سليماً في التربية.

فالتربية ليست كلمة نقولها وتنقضي، ولا يوم نمضيه في المكتب ثم نخرج منه ونقول إننا فعلنا ما يطلب منا. بل هي منهج عمل مستمر لا تقطف ثماره إلا بعد عشر سنوات أو أكثر. ولنصل إلى نتيجة مُرضية علينا أن نعمل ونصبر، لنصل إلى إنبات أبناء صالحين.

وأول ما ينبغي أن نستحضره في هذا الشأن، هو ضرورة بناء منهاج تربوي على طريقة رسول الله ﷺ، فتأمل كيف ربى أصحابه عليه الصلاة والسلام، وكيف ربى القرآن الكريم الأمة المسلمة بتنزيله متدرجاً ومتمماً كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: 106]، وقال الله لرسوله الكريم: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: 16، 17].

كان والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلاً يعمل في مجال الاتصالات، ويجيد اللغة الإيطالية، وكنت أتعجب من حسن تربيته لنا ومن صواب منطقه وجمال حكمته، وقد سألته ذات يوم: أين تعلمت هذا المنهج التربوي الذي اتبعته في تربيتنا؟ لأنني عندما أتزوج أريد أن أتبعه في تربية أولادي.

قال لي: تعلمت ذلك كله من القرآن الكريم.

قلت له: وهل في القرآن الكريم طريقة تعلمنا تربية الأولاد؟

قال: لا توجد آية في القرآن إلا وفيها أمر بالتقوى والصبر، والصدق والمودة، والإخلاص، والأمانة، أو إشارة إلى هذه المعاني ونظائرها، وهي عماد أية تربية صحيحة ناجحة. فأخذت أتأمل آيات القرآن تأملاً شاملاً ليس كالسابق، ثم نقلت هذه الحكمة إلى أولادي.

فكرة والدي هذه علمتني كيف أربي أولادي باتباع المنهاج القرآني كاملاً بشرحه وبيانه أي مكملاً بالمنهاج النبوي.

الأمر الثاني والمهم في مسألة التربية هو اتفاق الأبوين؛ لأن أكثر ضربة يصاب بها هذا المنهاج أن يكون لكل من الوالدين منهج مختلف عن الآخر، وأن يكون هذا الاختلاف علنياً وبيّناً بحيث يدركه الأولاد ويعلمون أنهم سيأخذون من هذا ما لا يأخذونه من الآخر. والاختلاف ـ على هذه الصورة ـ يزعزع الاستقرار النفسي لدى الأبناء ويضعف القيم والمبادىء التي نحاول غرسها في نفوسهم.

وقد جربت ذلك الأمر مع أولادي، فاتفقت مع زوجتي ألا يسمح أحدنا بشيء إلا إذا كان الآخر على علم به، فإذا طلب أي ولد من الأولاد شيئاً من أمهم تقول لهم: اسألوا أباكم وبالعكس، ونجلس معهم ونسألهم عما يريدونه، فيبدأون

طلباتهم المعقولة وغير المعقولة، ويكون لنا تعديلات فنضع الشروط والقيود حسب ما نجده مفيداً لمصلحتهم، وهذا ما تعلمناه من آبائنا وأمهاتنا، فقد تعلمنا أن الاتفاق بين الوالدين يبعث السرور ويجلب السعادة بين الأسرة.

وتعلّم الأبناء أن الأمر لا يكون إلا بالشورى مهما تكن المسألة بسيطة، فمثلاً عندما يقترب الصيف كنا نجتمع ونبحث ونخطط كيف سنقضي الإجازة الصيفية، أين نقضيها وبم ينشغل كل من البنات والأبناء في أثنائها. فبهذه الطريقة يتعلم الأولاد المشاركة في حل مشاكل أفراد العائلة، فالبيت بلا شورى لا قيمة له. وهم الآن أي ـ الأولاد ـ قد كبروا وتزوجوا وأنجبوا أطفالاً وهم يربونهم كما ربيتهم.

ودون اجتماع هذه الأفكار لا تستطيع أن تقدم للناس منهجاً تربوياً عملياً مناسباً يستطيعون أن يتبعوه في حياتهم.

فوات الأوان:

لا يوجد في الحياة ما يسمّى: فوات الأوان أو تأخر الوقت طالما بقي الإنسان حياً على هذه الأرض، فإنه يستطيع أن يتجنب الأخطاء ويتعلم من أخطائه الماضية ويصححها.

والتربية كذلك ليس فيها وقت معين تقول بعده: فات الأوان! بل باستطاعتك أن تبدّل وتغيّر فيهم وتبدأ من جديد وتعدّل المسار، ولكن ذلك يتطلب منك شجاعة خاصة ـ أي من الوالدين ـ.

وينشأ الفتى مِنا على ما عوّده أبواه عليه، وقال الذين أبوا أن يتبعوا رسالات الأنبياء: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]، وقد سيق هذا النص القرآني في سياق تأنيب قائليه، فلا يجوز أن يقول الأب: إني تعوّدت على هذا ولا أريد أن أتغير بل يجب أن يقول لنفسه كل يوم: أين أخطأت، وأين كنت ليّناً فأشدد المرة القادمة، وأين كنت شديداً فألين المرة القادمة، وأين قصرت......

ومن العجائب في التربية مصارحة الأولاد بكل ما يحدث من تقصير أو إهمال أو أخطاء، فهذا يشعرهم بالثقة بالنفس والحماس والنضج، ويشعرهم أيضاً بالصداقة مع آبائهم، وهذه الصداقة تنمي فيهم مشاعر هائلة تجعلهم رجالاً ونساءً صالحين في المجتمع وناجحين في مستقبلهم.

ومن أجمل آثار هذه المصارحة أن يتعلم الأولاد أن آبائهم بشر يخطئون ويصيبون كما يخطأ الأبناء ويصيبوا، وبذلك يعرف الابن أن خطأه ليس نهاية العالم وأن تصحيح الخطأ ممكن دائماً وهو أولى من الاستمرار فيه.

وأنا ضد أن يقرأ الأب أو الأم كتاباً لتعليم التربية ويعمل على تطبيقه حرفياً على أبنائهم؛ لأن كل إنسان يختلف عن الآخر، وحاجات كل شخص تختلف عن حاجات الآخر، وعلينا أن نطوّر أسلوبنا في التربية ونطوّر أداءنا كل يوم لننمي علاقتنا بأبنائنا، فالتطبيق الحرفي لنظريات التربية المسطورة في

الكتب نمطية مذمومة، لأنّ تربية الأبناء ليست مسألة رياضية لها قواعد ثابتة تطبق بطريقة آلية، فأطفالك ليسوا كأطفال أخيك فلكل فرد تربية خاصة به يجب أن تراعي حاجاته وظروفه الفردية، والتربية النمطية التي تطبق قواعد نظرية تطبيقاً أصم قد تصلح لتدريب القرود على الطاعة ولكنها لا تصلح لإنشاء أبناء وبنات قادرين على التفاعل مع الحياة والمجتمع بقرارات مستقلة تناسب شخصية كل منهم، وهذا التنوع في الشخصية الفردية لا يأتي إلا بإدراكك لما تفعل، ولاختلاف أبنائك عنك، ولاختلاف كل منهم عن أخيه أو أخته وبمعرفتك أنت المربي أين الخطأ وأين الصواب لتتمكن من التفريق بينهما فتضع كل جزء من الألوحة في مكانه الصحيح، وبذلك يمكن للمربي أن يصل للأسلوب الأمثل للتعامل مع أبنائه وبناته.

المنهج الأولى بالاتباع عندي هو أن نتمسك بالقيم الأساسية العليا ونغرسها في النفوس وألّا نمِلّ تكرارها فإنك لا تدري أين تصيب الكلمة موضعها وموقعها في الأرض وتنبت النبات الحسن والثمرة الطيبة.

فمثلاً يقول الأب: لقد قلت له ذلك ونصحته مراراً، فماذا يضرك لو كررته مرة وأخرى وألفاً، لا يضرك شيء، لأن قلبه قد ينفتح في اللحظة التي تقولها له للمرة الألف.

والأولاد هم كالأرض، منها ما ينزل عليها الماء فتنبت ويخرج منها الزرع والثمر، ومنها ما لا يحفظ من الماء إلا

قليلاً، ومنها ما لا يمسك ماء ولا ينبت زرعاً فيكون أرضاً صحراوية قاحلة.

وليست النفس الإنسانية على نمط واحد من هذه الأنماط، بل إن في كل نفس من كل نمط جزءاً.

وعلى الآباء أن ينتبهوا إلى هذا التنوع داخل نفوس أبنائهم فيزيدوا من رقعة الأرض الصالحة فيها بالإصرار والمثابرة والتنويع في تقديم القدوة والأسوة الحسنة، وتكرار شرح الأفكار والمبادىء والقيم الأساسية يأتي في كل مرة بثمرة مختلفة قد تصلح واحداً من الأبناء في مناسبة وتصلح الآخر في مناسبة أخرى، وقد يعجل نحو من الكلام أو أسلوب من البيان بإصلاح نفس، بينما يتأخر إصلاح النفس الأخرى إلى أن يكرر المربي كلامه للمرة الألف.

لذلك فإن علينا أن نتمسك بالقِيَم التربوية الأساسية، وأن نحرص على تكرارها في كل وقت.

حدة الطبع عند الأولاد:

الحِدة عند الأطفال بعضها فطري يولد معهم، وبعضها مكتسب يكتسبونه من خلال تربيتهم الأولى إذا تربوا في بيئة عصبية تجعلهم عصبيين.

وأكثر ما يؤدي إلى زيادة هذه الحِدّة أن يستجاب لها، أعني أن يحقق للطفل ما يريد كلما أظهر عصبيته.

عرفت طفلاً كان يستعجل استجابة أهله لما يطلبه بأن

يضرب الحائط برأسه وآخر كان يضرب الأرض بقدميه وكان أحدهما كلما فعل ذلك استجيب لطلباته، فكان في كل مرة يزداد غلواً وعناداً؛ لأنه أدرك أن بغيته ستتحقق كلما أظهر مزيداً من العصبية وسوء الخلق.

التربية بين الآباء والأبناء:

في الحقيقة كلانا يربي الآخر، نحن نربي أولادنا، وأولادنا يربوننا، وسوف ترد في سياق الكتاب صور من تربية أبنائنا لنا، تثبت أن الواقع شيء وأن النظريات شيء آخر. وتعلّم الآباء من أبنائهم ليس عيباً بل لعله مزية هائلة؛ لأن الإنسان يظل طول حياته يتعلم.

وعندما يخطىء الكبار فيصحّح أحد الصغار ذلك الخطأ فإن المربي يجب أن يرحب بموقف الصغير ويشجعه على صوابه؛ لأن التربية عملية تبادلية تستمر مدى الحياة دون توقف، فكما ننصح أبناءنا ونصحح لهم ما يفعلون، يردون الجميل إلينا بإبداء رأيهم فيما نفعل فننتفع به. وقديماً روي عن أمير المؤمنين عمر ﷺ أنه إذا حزبه أمر ـ أي اشتد عليه ـ فزع إلى الفتيان يستشيرهم يبتغي حدة عقولهم.

من يبدأ بالتربية:

الذي يبدأ بالتربية هم الأهل طبعاً؛ فمنذ ولادة الطفل تبدأ الأم برعايته وتربيته، وكذلك الأب يرعاه ويحسن تنشئته إلى أن

يصبح رجلاً أو امرأة، ويترك منزل والديه، أي: يبدأ حياة جديدة وتكوين أسرة جديدة.

فالدور الأول للوالدين، ولا يأتي دور الأبناء في المشاركة في تربية أنفسهم أو تربية آبائهم إلا بعد أن ينضجوا، أي: في أواسط سن المراهقة في الغالب؛ ففي هذه السن يبدأون المشاركة بعد أن كانوا من قبل في موضع المتلقِّي، وكانوا إذا اعترضوا فالغالب يكون اعتراضهم ساذجاً ويكون التغلب عليه سهلاً بقليل من الرفض أو بتنفيذ آرائهم بعد سماعها.

لكنهم بمجرد أن يشعروا باستقلال شخصياتهم يبدأون باتخاذ آراء منفصلة عن آراء آبائهم نتيجة ما يسمعونه من أصدقائهم أو مدرّسيهم أو إخوانهم.

هنا تبدأ المناقشات بين الآباء والأبناء، وينتقل الابن من دور المتلقي إلى دور المشارك في صنع الواقع التربوي في الأسرة.

والأمهات والآباء الذين يدركون ذلك يعيشون سعداء جداً؛ لأنهم يبدأون مبكراً في حصاد ثمرة ما زرعوه في نفوس أبنائهم، فقد استطاعوا أن يجعلوهم قادرين على المناقشة أكفاء في الحوار، مؤهلين للإدلاء بالحجة والاعتراض القابل للمناقشة، وليست كل اعتراضات الأبناء خاطئة بل كثير منها قد يكون صحيحاً، وحينها تشعر بالفخر لأن ابنك بدأ يميز الصواب من الخطأ وأصبح بإمكانك الاعتماد عليه عندما أصبح هو قادراً على الاعتماد على نفسه.

فالتربية تبدأ من الآباء؛ ورد الفعل يأتي من الأبناء وبقدر ما تعطي تأخذ، فكل إناء بما فيه ينضح، فإذا ملأت الإناء بالخير والمحبة والرأفة، يعطيك الإناء من هذا كله، أما إذا ملأته قسوة وعنفاً وسوء معاملة وبذاءة ألفاظ فإنه لا يعطيك إلا مثل ما أعطيته.

وقديماً قالوا: لقد عققت ولدك قبل أن يعقك.

أي: الذي لا يحسن إلى ولده في صغره ليس له أن يتوقع أو يطلب أن يحسن إليه ولده حين يكبر. فالبدء من الآباء والرد من الأبناء، والتفاعل بين الاثنين ينتج الحصيلة النهائية في التربية الأسرية الناجحة بإذن الله ونحن سواء كنا آباءً أو أبناءً، فالأمر يعنينا جميعاً، لأنه في النهاية لا يشكل حاضرنا فقط بل ومستقبلنا أيضاً.

المجتمع الإسلامي والغزو الغربي

إن الأمة العربية أمة مهمة ذات شأن مهم، ولذلك فهي مغزُوّة من الغرب ثقافة وتربية وأخلاقاً. ونحن لم نعرف أمة في التاريخ فكّر عدوّها في غزوها واحتلال أرضها وتدمير بنيتها الأساسية والاستيلاء على مقدراتها وثرواتها وتقييد تسليح جيوشها وعدد أفراد هذه الجيوش كالأمة العربية؛ ليس لأنها لا شأن لها أو قيمة أو مكانة بين الأمم؛ بل العكس: الأمة التي تتعرض لكل تلك المحن والهموم والاستبداد هي أمة لها شأن وقيمة؛ ويتوقع لها إذا تركت يداها مطلقة من القيود وظهرها متخفف من الأثقال ـ التي يحاول عدوها أن يربطها بها ـ أن تغيّر التاريخ. والواقع أننا لو كنا أمة جاهلة وسخيفة بلا قيم لا يُخشى منها لَتُركنا كما تُرك غيرنا!!

ولكن الواقع أن هذه الأمة منذ بدء الاستعمار ومِنْ قبله وحتى يومنا هذا، هي محط أنظار القوى العظمى التي تحكم العالم، فكل عصر له قوة أو قوى عظمى، وهذه القوة أو القوى لها مكان على المسرح الدولي، وأول ما يلفت انتباهها ويقع عليه ناظرها الأرض العربية الإسلامية.

لماذا؟ لأن هذه الأرض أرض واعدة؛ وعدوها يؤمن

بقيمتها ويعرف خطر انطلاقها من عقالها، فنحن خطيرون في نظرهم، لكن لماذا نحن خطيرون؟

لأننا نقدم منظومة حضارية وإنسانية بديلة للمنظومة الغربية السائدة التي أكلت من الناس الأخضر واليابس، والتي همها مادي بحت يتجه إلى الدولار أو اليورو أو غيرهما من العملات العالمية، وإذا اتجهت إلى الإنسان اتجهت إلى شهواته ولذاته الجسدية العاجلة تشبعها إشباع الحيوان الأعجم رغباته وشهواته.

وإذا اتّجَهَتْ إلى التعليم اتجهت إلى ما ينفع الإنسان مادياً وما يؤدي إلى تقدمه اقتصادياً، أو يجعله أداة في سوق العمل؛ لأنَّ نظرية تقسيم العمل الرأسمالية لا تزال سائدة على الرغم مما تتخذه من تسميات جميلة أو أسماء برّاقة وأشكال مختلفة من مثل العولمة واقتصاد السوق وغيرها.

والبديل الذي يقدِّم للإنسان إنسانيته هو حضارتنا العربية الإسلامية. وهو الذي يقول للإنسان: أنت لست سلعة تباع وتشترى ولست أداة كلما أراد أن يستخدمها صاحب المشروع استخدمها.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: 38]، أي: إن الأخطاء والمعاصي والأوزار يحملها صاحبها فقط، وكذلك الثواب وأعمال الخير والحسنات صاحبها يؤجر عليها.

وأصحاب الحضارة المسيطرة يخافون ويخشون من أن يعم الدنيا هذا البديل الحضاري فيفسد عليهم نظرتهم الرأسمالية، وقدرتهم الاقتصادية، ومشروعهم الذي يضم فقط بضعة آلاف

شخص فحسب يحتكرون ثروة العالم، ويريدون أن يجعلوا من بقية العالم عبيداً عندهم.

التفاؤل والإحباط:

ولكي نحارب الغزو الغربي علينا:

أولاً: أن نعمل على تأسيس مؤسسات اقتصادية تضاهي مؤسساتهم.

ثانياً: أن ننمي عوامل التفاؤل لدى الشاب العربي والمسلم والفتاة العربية والمسلمة.

فالشباب يعاني الإحباط العام الذي قد يأتي ـ مثلاً ـ عندما يتقدم الشاب لخطبة فتاة ويبدأ الأهل بالطلبات من شقة واسعة ومهر غالٍ، وأثاث فخم، وجهاز مكلف، وهذا فيه ظلم للشاب والفتاة معاً.

فالشبابُ والفتيات المتواضعون الطيِّبون مقتنعون بفكرة العيش مع بعضهم في مساكن بسيطة وأثاث بسيط، وبعدها يأخذون بالتوسع شيئاً فشيئاً حتى يفتح الله عليهم.

فالأسر التي تبدأ بالكماليات الفخمة والأثاث الفاخر والشقق الكبيرة والواسعة، سرعان ما تنهار، وقد يفشل الزواج لأنه قائم على أساس مادي بحت، يذبل بسرعة لا على أساس إنساني ينمو الاحساس به على مر الزمان.

أما الأسر التي تبدأ متواضعة، وبسيطة، وراضية بما

قسم الله لها، فهي الأسر التي تثبت أقدامها، وتبقى متطلعة إلى الأحسن، وتعمل على تحسين أوضاعها الاقتصادية وعلاقاتها الإنسانية معاً.

وخطابي الآن موجه إلى الآباء: لا تحمّلوا أبناءكم من الأمر ما لا يطيقون ولا ترهقوهم في بداية طريقهم، واستجيبوا لرغباتهم في الزواج بأبسط ما يطيقون من التكلفة المادية، واسمحوا لهم أن يبدؤوا حياة شرعية كريمة وفقاً لطاقاتهم وإمكانياتهم، وبعدها سوف تتحسن أوضاعهم شيئاً فشيئاً. أما إذا أرهقتموهم من بداية الطريق فلن تحصدوا إلا ثمراً مراً في النهاية، فارضوا وعلموا الأبناء الرضا بالقليل الذي يبارك الله فيه، ويعطي بعده الكثير الكثير، ولا تغضبوا من قسمة الله للرزق، ولا تزوجوا بناتكم صاحب الملايين كأنها نوع من السلع أو المتاع يباع لمن يغلي الثمن!!.

مسالة تزويج الفتاة:

أصبحت مسألة تزويج الفتاة في عصرنا الحالي أشبه بالمعضلة، فقد يتقدم الشاب إلى الفتاة، وينزل الأب عند رغبة ابنته مع أنَّه لا يجد الشاب مناسباً لها لا من ناحية الدين، ولا من ناحية المستوى الاجتماعي أو الأخلاقي.

من ناحية أخرى قد نجد الشاب يطمح إلى الارتباط بفتاة ذات جاهٍ وغنى، وهذا نوع من الغباء والحمق! إذ أن الشاب عندئذ لا يفكّر بالحب أو بالأشياء المشتركة بينهما سواء أكانت

من الناحية الفكرية أم الاجتماعية، ومثل هذا شاب أحمق؛ لأنه يتطلع إلى المال والمكانة الاجتماعية. والغالب أن يصبح الواحد من هؤلاء الشباب تبعاً لزوجته، أو لأهلها وبذلك يفقد مهمته الأساسية في أن يُدير أسرته، وأن يكون قواماً على شؤونها.

والقوّام: هو الرجل الذي يقوم على خدمة ورعاية ومصلحة زوجته وأولاده، والمرأة الغنية لا تحتاج مثل هذا الرجل، بل هي في غنى عنه.

وقد يأتي الأسرة للزواج من ابنتها شاب ممن ينخرطون في سلك الجماعات المتشددة دينياً. وقد يكون صالحاً في نفسه، لكن تنشئته الإسلامية (تحت الأرض) تجعله فظاً غليظاً لا يحسن إلى امرأته ولا يعنى بمشاعرها وعواطفها. والغلظة والفظاظة يفسدان العلاقة الزوجية ويذهبان ببهجتها، ويقضيان على المودة والرحمة والسكن وهي المعاني التي خصها القرآن الكريم بالذكر في شأن الزواج وعلاقات الزوجين.

والنصيحة هنا للآباء، ألا يكتفوا بمظهر التدين في الشاب بل يجب عليهم التريث والصبر حتى يعرفوا مخبر هذا التدين وجوهره وحقيقته، وحتى يستيقنوا أن لدى الشاب القدرة والقابلية على اتباع أحسن ما يسمع ولو كان مخالطاً لما ألف وعرف.

هذه الأحوال التي تجري عن التقدم للزواج يقابلها أحوال توجب التأكد مما ستصبح عليه الفتاة بعد زواجها، وكلاهما وقع كل يوم في دنيا الناس، لكن شيئاً من ذلك لا يؤدي إلى الامتناع عن الزواج، إنما هي أحوال توجب البحث عن شريك الحياة

المناسب، رجلاً كان أم امرأة، لتحلو بهذه الشركة الحياة وتستمر وتستقر.

فالحياة ميزان نريد أن نجعل كفتيه بمستوى واحد، لأنه إذا اختلت إحدى الكفتين تطيش الأخرى. فإذا أردنا إعادة البناء الإسلامي إلى مساره الصحيح، علينا أن نوازن بين الكفتين.

والأمر يحتاج إلى حكمة ولا شك، والمسؤولون عن الحكمة هنا هم الآباء والأمهات. فتجارب الحياة التي مروا بها، والثقة التي بنوها مع أبنائهم في مراحل الحياة المختلفة، والبصيرة التي أورثهم إياها حسن معرفتهم بنقاط قوة الأبناء ونقاط ضعفهم كل ذلك يمكنهم من أن يحسنوا النصيحة، فيحسن الأبناء تقبلها والانقياد لها.

فالآباء والأمهات إذن مسؤولون معاً عن ذلك البناء.

مدى حدود سلطة الآباء تجاه الأبناء في شأن الزواج:

ليس للآباء أن يضغطوا على أبنائهم أو يجبروهم على الزواج من أشخاص لا يرغبون بالزواج منهم. فقرار الزواج في النهاية قرار خاص يأخذه الابن أو البنت ويتحمل مسؤوليته، صحيح أن على الأبوين النصح، كما قدمت، لكن ليس لهم سلطة الإكراه أو الإجبار.

والرسول الكريم ﷺ يقول في الحديث الشريف: «إذا

أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[1].

ورغم ذلك نرى في بعض المجتمعات العربية من يرفضون الزواج ممن كان لون بشرته مختلفاً عنهم، أو هناك قبائل لا تزوج من قبيلة أخرى لأنها أكبر منها شأناً وأكثر مالاً.

والقرآن الكريم يقول: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: 32-33].

وهذه العصبية قضى عليها الإسلام في عهد النبوة، ولكنها عادت تطل برأسها بعد أن ضعف الإيمان وقلّ الحرص على التأسي برسول الله ﷺ. روى ابن سعد في الطبقات في ترجمة بلال بن رباح عن زيد بن أسلم أن بني أبي البكر جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: زوج أختنا فلاناً، فقال لهم: **«أين أنتم عن بلال؟»** فعلوا ذلك ثلاث مرات ورسول الله ﷺ يرد عليهم بالجواب نفسه، قال في الثالثة: **«أين أنتم عن بلال؟ أين أنتم**

---

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 1084) و(الحديث: 1085)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 1967).

عن رجل من أهل الجنة؟»[1]. فأنكحوه.

وفي بعض البلاد يحتاج الشخص الأجنبي إلى تصريح رسمي من الدولة حتى يمكنه الزواج من فتاة تحمل جنسية تلك الدولة وبعض البلدان تشترط ذلك لزواج الرجل من فتاة من بلد آخر.

وهكذا يعلمنا الإسلام أن الرجل الصالح يجب أن يُزَوَّج، وأن سلطة الآباء والأمهات تقف عند تقديم النصيحة والتوعية، ولا تبلغ الحق في الإكراه لأي سبب كان.

إن تشجيع الفتاة على الزواج برجل صالح ولو كان فقيراً لا يعتبر جريمة، الجريمة الحقيقية هي تشجيعها على الفساد والانحراف الأخلاقي بمنعها من الزواج عن طريق المغالاة في الطلبات المادية أو الفخر الكاذب بالآباء والأجداد، وزعم أن الكفاءة في النسب لا في الصلاح والخلق والدين، ومن المهم بمكان أن تشعر الفتاة أن أهلها يحافظون عليها ويحمونها وأنهم راغبون في سعادتها، لا يعوقهم عن تحقيقها تقاليد بالية أو مظاهر اجتماعية لا تحقق خيراً ولا تجلب نفعاً.

---

(1) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (الحديث: 7/ 137).

كيفية اختيار الشريك

اتخذنا في هذا الموضوع، من القرآن الكريم والسنة النبوية، منهجاً وطريقاً لنتعرف من خلاله على الطريق الذي يجب أن تسلكه الأسرة المسلمة. فإذا أتينا إلى تكوين هذه الأسرة وجدنا قول رسول الله ﷺ: **«إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»**[1]، وقول النبيّ ﷺ: **«تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»**[2].

الحديث الأول: يتعلق بأسس اختيار الفتاة لشريك حياتها. **والآخر**: يتعلق بأسس اختيار الرجل لشريكة حياته، وأصل ذلك كله يؤخذ من قول رسول الله ﷺ: **«تخيّروا لنطفكم»**[3].

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1084) و(الحديث: 1085)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 1967).

(2) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 5090)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 3620)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 2047)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 3230)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 1858) و(الحديث: 1860).

(3) أخرجه **ابن ماجه** في (الحدينث: 1968)، وأخرجه **الحاكم** في «المستدرك» (الحديث: 2/ 163)، وأخرجه **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 7/ 133).

إذن هناك أسس وضعتها الشريعة الإسلامية لاختيار الشريك يجب الاعتماد عليها عند الإقبال على الزواج، ويجب قبل ذلك بثَّها في نفوس الأبناء والبنات صغاراً ليكونوا مستعدين لمرحلة الاختيار والاستعداد الصحيح.

إذا جاء الأسرة رجلٌ ذو دين وخلق فهذا أمر جيد؛ لأن التدين الفردي هو أداؤك صلاتك وزكاتك وحجك، وهو إيمانك الصحيح وعقيدتك، وهو شأن يخصك وحدك، ثم يظهر تطبيق ذلك الدين من خلال الخلق، أي من خلال معاملتك لزوجتك وأولادك.

فالصفة اللازمة للمتدين حقاً هي حسن الخلق، أما أن تكون فظاً غليظ القلب مع الناس، بذيء اللسان، أو شحيحاً على أولادك وعلى أهلك أو عنيفاً، وكل هذه الصفات السيئة لا تدل على صدق التدين بل تدل على رقّة الدين، وعلى أنه ظاهر لا باطن له.

لقد أمرنا رسول الله ﷺ إذا جمع الشاب خصلتي حُسن الدين، وحُسن الخلق أن نزوجه، لأن رفض طلبه سيدفعه إلى ارتكاب المحرمات، إلا من عصمه الله، وهذا ما يسميه النبيّ ﷺ فتنةً وفساداً كبيراً في الأرض.

الفتنة والفساد الكبير هنا هما انهيار البناء الاجتماعي وبسبب بقاء الشباب بلا زواج ـ كذلك الأمر بالنسبة للفتيات ـ لأنهم ليسوا في وظائف عالية، أو لا يملكون المال الكثير، أو لا ينتسبون إلى عائلات مرموقة، ويبقى الرجال الصالحون بلا

زواج؛ وقل مثل ذلك في الفتاة الفقيرة، أو السمراء في بيئة تفخر ببياض اللون، أو البيضاء في وسط لا تحب فيه إلا السمراوات، أو التي تفخر بخلقها وآبائها وأجدادها.

ثم تأتي بقية المعايير، مثل: العمل حتى يستطيع أن ينفق على أهله والتعلم حتى يحسن تربية أبنائه..... إلخ.

وهنا أريد أن أنبّه أسرة الفتاة إلى خطر السقوط في هاوية الرفض المتكرر لمن جاء لطلب الزواج من فتياتهم إذا كان ذا دين وخلق، لأن هاتين الصفتين كافيتان للتزويج بنص الحديث الصحيح.

فإذا اكتمل له الدين والخُلُق فقد استوفى الشروط اللازمة للزواج؛ لأن الباقي كله يُحصّل؛ لكن الدين والخلق إذا فاتا في التنشئة الأولى فمن الصعب استدراكها بعد الكبر.

الزواج العشوائي:

بعض الشباب لا يرى هدفاً واضحاً لحياته المستقبلية، فيكون اختيار الزوجة أو الزوج عشوائياً، وبعد أن يتزوج يحدث نفسه: هل سيأتي الحب فيما بعد، وإن كان فيها خصلة أو عادة هل ستتغير، أو هل أستطيع أن أغيّره أو أغيّرها في المستقبل؟ هذه الأمور كيف نعالجها وكيف نتأكد من أن الزواج سيكون ناجحاً أو فاشلاً؟

ولا ننسى أن هناك ما نسميه القدر، فقد قُدّر لكل منّا أن

يتزوج من شخص معين وينجب فلان وفلانة، فإلى أي حد نختار نحن لأنفسنا؟

تقول لي زوجتي: إن المرء لا يتزوج إلا الزوجة التي كتبت له يوم خُلق، ولا أحد يتزوج امرأة غيره. أما زوجتي السابقة وأم أولادي رحمها الله فقد كانت تقول لي عكس ذلك: إن الزواج ليس عشوائياً ولا بد أن يبحث الإنسان عن شريكه ويتحرى عنه عند الاختيار ويتأكد من دينه وخُلقه، وعلى الزوج أن يتحرى عن أخلاق الزوجة وعن صبرها وعقلها إلى آخر الصفات التي تتزوج لها المرأة. وكنا نتحدث في هذا أنا وزوجتي بعد أن أنجبنا الأولاد والبنات، وكنت أجيبها قائلاً: إن القدر يمضي في النهاية.

فقد كان لكل منا مشروع زواج لم يتم قبل أن نتزوج.

تزوجنا دون معرفة سابقة، وها قد أنجبنا خمسة من الأولاد، ومن البنات، وعشنا سعداء، وتوفيت رحمها الله وهي راضية عن أولادها وأنا راضٍ عنها، بل في غاية الرضا.

ثم تزوجت بعد وفاتها، ونعيش أنا وزوجتي أسرةً سعيدةً بين أبنائها وأبنائي، نعيش أسرة واحدة ذات منهج واحد في الحياة. لذلك لا تفكر كثيراً في مسألة الزواج، فإنَّ الناس لا يتزوجون إلا من قُدِّر لهم الزواج منه، ولا ترهق نفسك في البحث والتحري، وإن فعلت فبطريقة خفيفة ـ هذا ما تقوله زوجتي الثانية ـ وما تبذله من جهد ـ إن لم توفق إلى اختيار ضيك ويسعدك ـ إنما قد بذلته قياماً بواجبك نحو نفسك وأخذاً

بالأسباب كما أمرنا الله ورسوله، فتكون قد أديت واجبك في البحث ولم تستخف بأمر عظيم في حياتك هو اختيار شريك حياتك، وكلّ ما يأتي بعد ذلك هو ابتلاء من الله.

أما زوجتي الأولى فقد كانت تقول: أتعب نفسك وابحث وتحرَّ وابذل كل جهد وفي النهاية لن تتزوج إلّا ما قدر وكتب لك.

فالذي يتزوج دون أن يبحث أو يتحرى هو لا يغلب القدر، إذ لا يستطيع إنسان أن يغلب القدر، إنما هو ينفذ إرادة الله تعالى بطريقة عشوائية ومستعجلة، إلا أن هذا التنفيذ في النهاية يصيبه بما يبتلى به، إما خيراً فعليه أن يحمد الله ويشكر حتى ينال ثوابه، وإما شراً فعليه أن يصبر ويحتسب.

أذكر أن أحد شيوخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان غير سعيد في زواجه، وكان حين ذاك قد أنجب طفلاً واحداً فقط، وأخبرني أنه يريد أن يفسخ هذا الزواج وهو يفكر في الطلاق مراراً، ولكن كان يأتيه هاتف ـ أي: شيء يناديه وهو يفكر في هذا ـ يقول له: أنت رجل من علماء الدين وامتحنك الله بالصبر، هل تريد أن تلقي بلاء هذه المرأة على رجل آخر، قد لا يكون صبوراً فيطلقها وتفسد حياتها مرة ثانية، لماذا لا تصبر وتحتسب لعل الله يدخلك بهذا الصبر الجنة؟!

فصبر وأنجب منها تسعة من الأبناء والبنات، وكانت حياته شقاءً وكان يقول لي: إنه صابر وراضٍ بهذا الشقاء؛ لأنه يريد بصبره وجه الله ورضاه، ويرجو أن يدخله الله به الجنة.

وكنت أستغرب لحاله، وأتعجب لهذا الصبر على المدى الطويل. وكلما مرت السنون أعود فأسأله: هل تحسنت أحوال زواجك؟ فيقول لي: لا.

واعلم أخي القارىء أن ليس كل زواج تنقصه السعادة مقضياً عليه وينتهي بالطلاق. هناك زيجات كثيرة لا تحكمها السعادة ومع ذلك تستمر وتثمر أبناءً يكونون في حياتهم الزوجية أفضل وأحسن من آبائهم، لماذا؟ لأنهم أخذوا العبرة من آبائهم وأمهاتهم، واستفادوا من تجاربهم، وأصبحوا يميزون بين الصح والخطأ، لذلك فهم يحبون أن تكون بيوتهم أفضل مما كانت عليه بيوت آبائهم.

ومن يتزوج بالطريقة التي وصفتها في أول حديثي، أتمنى أن يوفقه الله ويسعده ويظلّله بالمحبة والمودّة التي تديم العِشرة، وإذا وقع غير ذلك فقد شرع الإسلام طريقاً للانفصال بالحسنى دون أن يخسرا طبيعة علاقاتهم وصلتهم الحسنة بعضهم ببعض.

الزواج بدون سعادة:

يتساءل البعض: كيف لا يكون الأزواج سعداء وقد أنجبوا أبناءً ومضت بهم حياتهم الأسرية واستمرت زمناً طويلاً؟ وكيف يمكن أن ينجبوا دون وجود سعادة في العلاقة الزوجية؟ لعل هذا دليل على ما كنت أقوله، وهو أنه ليس كل زواج لا تتوفر فيه شروط الزواج المثالي محكوم عليه بالإخفاق؛ لأن مثل هذه

الزيجات يتخللها لحظات رضا واستمتاع، ولحظات غضب وتعاسة... لحظات السعادة بعملٍ حسن ولحظات التعاسة بألف عمل كئيب، فإذا قبل الإنسان هذه اللحظات القليلة التي تكون الحياة فيها هنيئة ورضية مع الطرف الآخر، واحتسب عند الله الأوقات واللحظات الحزينة التي عاشها وصبر عليها وعلم أنها ستوضع في ميزان حسناته يوم القيامة، استمرت الحياة واستقامت.

أما إذا لم يصبر عليها فحتماً سيقرر أن ينهي هذه العلاقة وينهي لحظات الفقر والضيق وفساد الطعام وتشعث المظهر وسوء الكلام؛ لأنه لم يعد يحتمل.

العلاقة الزوجية بين جميع الأزواج لا تسير على وتيرة واحدة، ولا بد أن تمر كل علاقة بفترة من الفتور والركود وبفترات تقارب ومودة واستمتاع، ولا بد أن تمر أحياناً بالحرارة وأحياناً بالبرودة، وكما قال الشاعر:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صِل أخاك فإنه مقارفُ ذنبٍ تارة ومجانبه

فصديقك يخطىء مرة ومرة يصيب، ومرة يحسن ومرة يُسيء فإذا أردت أن لا تتعرض إلى أذىً فعش وحيداً، وإن أردت الصحبة وحياة الجماعة فصل أخاك، وكذلك تسير الحياة الزوجية.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله وهو صاحب «إحياء علوم

الدين»: «ليس البر بالمرأة كف الأذى عنها ولكن احتمال الأذى منها، ليس حسن الخُلُق مع المرأة كف الأذى عنها، ولكن حسن الخلق مع المرأة احتمال الأذى منها».

فالذي يستطيع أن يستحضر هذه المعاني ويعيشها، سيرضى ويسعد ولو كانت ظروف حياته تعيسة.

الزواج بين الأمس والحاضر

كيف تزوج آباؤنا وأجدادنا قبلنا؟ وكيف اختار الزوج زوجته وكيف قبلت أو رفضت، هل اختارت هي أو أرغمت أو قبلت مجرد قبول وكيف نشأت الأُسر؟ ولِمَ نسبة الطلاق في الماضي كانت أقل مما هي عليه الآن ورغم ذلك نتفاءل ونقول بأن اليوم أفضل من الأمس، والمستقبل سيكون أفضل مما نحن عليه الآن؟

إنَّ الواقع يفرض نفسه علينا، والذي أراه اليوم أفضل من الأمس، وأتوقع أن يكون الغد أفضل من اليوم، كل هذا نشأ من اشتغالي في الواقع وليس من مجرد النظر في الإحصاءات والأرقام والقصص التي تذكر في الصحف ووسائل الأعلام.

فأمهاتنا وآباؤنا وأجدادنا تزوجوا على الطريقة التقليدية، حيث يتفاهم الآباء مع الأسرة على أن هذا الشاب يجب أن يتزوج، ويرشحون زوجاً للفتاة قبل أن يتقدم بها العمر، كما يرشحون زوجة للشاب.

ويبدأ الاتصال بين الأمهات وتتناقش هذه مع نظيرتها، ويدبر لقاء في مكان ما، ويمر الشاب من هناك ويلقي نظرة عليها

أو العكس، ويقرر أن يوافق أو لا يوافق وتقرر هي كذلك، ويتم الزواج بالطريقة التقليدية. رغم أن الشاب لا يعرف الفتاة وهي كذلك. فقط قال هؤلاء: لدينا شاب أصبح في سن الزواج، وقال أولئك: لدينا فتاة في سن الزواج، والعائلتان بمنتهى الأدب والحشمة والاحترام، وقد تكون هاتان الأسرتان قد تعارفتا عن طريق الصدفة.

فهذا الأسلوب للتعارف ومن ثم الزواج ما زال وسيبقى في مجتمعاتنا وقد تنجح الزيجات التي تنشأ عنه وتدوم مدى الحياة.

ينشأ عن اتباع هذه الطريقة زيجات وبيوت مستقرة كالبيوت التي نشأت في زيجات آبائنا وأجدادنا، لكن المجتمع تغير والوضع أصبح ينبىء بأن الأصل لم يعد كذلك. إن الشاب والفتاة يلتقيان ببعضهما البعض إما في الجامعات، أو مع الأهل في لقاءات الأسر المختلطة في أيامنا هذه، أو يتعارفان من خلال الأصدقاء وتنشأ بينهما علاقة، وأحياناً تنشأ هذه العلاقة بينهما قبل أن تنشأ بين أهليهما وأسرتهما، ويذهب كل منهما إلى أهله ليخبرهم أن هناك مشروع خطبة، وأحياناً يكون الأمر مفاجئاً.

في أحد الأيام قمت بزيارة أحد الأشخاص فرأيت عنده صورة لابنته مع زوجها فعلق عليها قائلاً: لا تقولوا هذه صورة زواجهما؛ بل مناسبة إخراج فيلم كذا وكذا. . .

فاستغربت وقلت له: لماذا؟ فقال: لأن دورنا في هذا الزواج هو مباركته، فهما اتفقا وتعارفا على كل الأمور، وعندما

جاء الشاب ليخطب ابنتي وبدأت أناقشه في موضوع الزواج وجدته على وفاق معها في كل الأمور.

هل في هذا بأس، أنا لا أرى فيه بأساً أبداً، ما دام التوفيق هو رائد الطرفين، وإنشاء الأسرة الصالحة هو هدف الطرفين، والرغبة في العيش الذي يؤدي إلى بناء منزل يرتكز على الإسلام هو ما يجمع بينهما وفي كل هذا خير وبركة.

الاختلاط بين الرجل والمراة:

لقد أرسلنا أبناءنا إلى المدارس والجامعات وجعلناهم يخوضون غمار الحياة بأنفسهم، وكذلك بناتنا. والمجتمع يسير نحو اتجاه التعارف المباشر بين الشاب والفتاة فهما يتعاملان معاً في البيع والشراء، وقد يكون الشاب مدرس الفتاة أو زميلها أو رئيسها، وهذا كله واقع جديد غير مألوف.

هذا الوضع الجديد لا بد له من أحكام وضوابط تناسبه، فإذا قلنا للفتاة تعلمي وتوظفي مع الشباب شرط أن لا تتحدثي إليهم، وقلنا للشاب لا تجالس ولا تقابل الفتيات ولا تكلمهن فهذا جنون وليس لنا أن نتوقع من أبنائنا طاعة ذلك.

ونحن هنا نتحدث عن الشاب والفتاة المسلمين اللذين يعرفان الحلال والحرام، والملتزمان اللذين إذا التقيا لا يقع بينهما ما نهى عنه الله ﷻ ورسوله ﷺ، ليس من الضروري أن يكون هذا اللقاء في خلوة، فيكفيهما الكلام في الأماكن العامة جميعها بلا حرج من الوقوع في الخلوة المنهي عنها،

وبإمكانهما التكلم في أمور الزواج والاتفاق على المكان الذي سيعيشان فيه وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالزواج. فهذه أمور لا حرمة فيها، الحرمة تنشأ فقط عندما يختلي الشاب بالفتاة خلوة غير شرعية.

ثم تأتي الخطبة والزواج وهو أن يطلب الشاب من أهل الفتاة الزواج بابنتهم. وليست الفتاة هي من تزوّج نفسها وإنما يزوجها وليّها، وعقد القران هو الذي يحلل لها أن يكونان معاً، فهو الخطوة الجامعة بين الرجل والمرأة في ثوب حلال وعلاقة مشروعة.

حسن اختيار الشريك:

هناك بعض العلامات والملاحظات التي ينادي بها التربويون، ليتعرف الواحد بها على أخلاق الآخر، ومثاله: إن كان الشاب لا يراعي حرمة لِقطة مرّت من أمامه وهو يقود السيارة، فلتعلمي أيتها الفتاة أنه غليظ الطباع وليس في قلبه رحمة. وإن أخلف وعده أكثر من مرة فاعلمي أنه لا وعد له ولا عهد، فهل هذه العيوب يمكن على أثر اكتشافها أن يقطع الشاب أو الفتاة علاقتهما ببعضهما؟!

بعض هذه العيوب والصفات لا يمكن احتمالها؛ لأنّ تغييره من أصعب ما يكون وأثره على الحياة الزوجية المشتركة سلبي ومؤذ للشريك الآخر، أما ما لم يكن متأصلاً في النفس والطبع فيمكن تغييره، وما يمكن قبوله والتعود عليه أو احتماله

فلا يستحق الوقوف عنده طويلاً، وإلا فهذه العلاقة لا يمكن لها أن تستمر والمعيار في تقدير خطورة العيب أو الصفة وأثرها شخصي فلا يوجد مقياس واحد على جميع البشر السير عليه وتطبيقه وما يقاس على الصداقة لا يقاس على الزواج.

فهنالك أخلاق لا يمكن إصلاحها مثل: أخلاق الكاذب؛ الذي أدمن الكذب ما لم يتب عليه الله تعالى توبة من عنده.

سئل الرسول ﷺ: أيكون المؤمن بخيلاً، قال: «نعم»، أيكون المؤمن جباناً، قال: «نعم»، أيكون المؤمن كذاباً، قال: «لا»[1]. وليس معنى ذلك الحديث أن الكذاب قد خرج من الدين ولكن معناه أن الإيمان لم يتلبس في قلب ذلك المسلم تلبساً يجعله يخشى الله خشية تمنعه من الكذب.

فلا تستطيع المرأة غالباً العيش مع رجل كذاب ويكون العيش مع البخيل كذلك صعباً جداً، وإذا اكتشفت المرأة في الرجل بخلاً أو كذباً، فلا يسعها الاستمرار في حياتها معه. وهذه النصائح نقولها لفتياتنا وشبابنا؛ لأنها قد تقع للرجل وللمرأة سواءً؛ فالرجل أيضاً لا يستطيع أن يعيش مع زوجة بخيلة أو كاذبة.

الإقلاع عن الخصال السيئة:

البعض يظن أنه يستطيع أن يغيّر الخصال السيئة الموجودة

(1) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (الحديث: 1913).

عند شريكه ولكن مهما حاول فإنه قد لا يستطيع، عندها عليه أن يتقبل هذه العيوب ويتحمل بعض الخصال التي تعتبر ثانوية، أي عليه أن يقبل شريكه كما هو، وهذا ما نسميه في اللغة العامية الشائعة «اختلاف الطباع»، مثل ذلك أن يحب أحدهما تناول القهوة قبل الإفطار بينما الآخر لا يفضّل ذلك، وهذا يحب أن يقرأ قبل أن ينام بينما الآخر لا يستطيع النوم إلا بعد إطفاء الأنوار، وهكذا. . . . .

هذا هو اختلاف الطباع، وعلى الزوجين أن يتحمل كل منهما الآخر، وأن يرضخ كل منهما لرغبة زوجه؛ وخيرهما من يتنازل عن رغباته للآخر؛ لأن الحب مرادف للعشرة والترفع عن الصغائر. وبالمقابل فإن الأخلاق الأساسية السيئة مثل البخل والكذب، لا يمكن التنازل عنها إذ لا يمكن لأحد أن يغيّر بخل البخيل.

قال أحد الشيوخ رحمه الله: رأيت مدمن خمر قد أقلع عنها ورأيت مدمن قمار قد أقلع عنه، ولكني لم أرَ بخيلاً أصبح كريماً. وقال أيضاً: إن البخل في النفس من القمار.

قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: 128]، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9]. فالبخل أشبه بحالة مرضية لا شفاء منها.

وهناك من لا يهتم بالنظافة الجسدية ومثل هؤلاء لا يمكن أن تستمر الحياة معهم، سواء أكان رجلاً أم امرأة، إذ أن النظافة الجسدية من الخصال الضرورية التي أمرنا بها الإسلام كالوضوء خمس مرات، والغسل. فعليهما أن يتعلما النظافة، وإلا جاز

الطلاق عندها للمرأة أو الرجل المتضرر ويكون الطلاق رغماً عن الرجل إن أبى.

التدرج في التغيير:

في حديث لعائشة ﵂ عن رسول الله ﷺ: **«لو قالوا للعرب أول ما قيل لهم: دعوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً»**[1]، ولكن رسول الله ﷺ ترفق بهم؛ لأن الوحي ترفق به ﷺ.

ولم يشرع منع هذه المحرمات إلا والنبي ﷺ في المدينة أي بعد الهجرة، ولم ينزل الأمر بالنهي وبالكف عنها أمراً قاطعاً وتقرير عقوبات للمخالف للنهي إلا وهو في المرحلة التشريعية في المدينة المنورة، أما مكارم الأخلاق والأمر في العادات والأمر بالتقوى والأمر بالتوحيد وبعبادة الله وحده فإنَّها جميعها نزلت في مكة في المرحلة الأولى من النبوة.

ينبغي علينا أن نسلك هذا السلوك مع الناس ولا نطلب منهم أن يتحولوا في ليلة وضحاها إلى ملائكة في لحظة؛ لأنه من المستحيل أن يتحول الشيطان إلى ملاك إلا من عصم الله، وأن يتحول العاصي إلى مطيع إلا من وضع الله في قلبه نور الطاعة.

ولا بد أن ندرك أن نتيجة محاولات التغيير لن تكون إيجابية 100٪، فالأغلب أن يقل سلوك الزوج أو الزوجة السيىء

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 4993).

لا أن ينقطع تماماً، والواجب علينا أن نتدرج مع الناس ونتلطف معهم ونرضى معهم بالقليل.

قال ﷺ: «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله**»[1]، وهذا أقوله أيضاً للآباء والأمهات فلا تطلبوا من أبنائكم أن يتغيروا فجأة لأن التغير فجأة مستحيل، ولكن كلما وقفتم على نقيصة أو صغيرة أو أمر لا تحبونه أصررتم على تغييره.

ولا يكون التغيير بالقوة والقهر؛ بل بالرفق واللطف، فالقهر لا ينتج إنساناً سوياً، بينما التكرار واللطف ينتج إنساناً مستجيباً، وهكذا ربى الأنبياء أتباعهم وهكذا يربي أهل السلوك ـ الآباء والأمهات الصالحين ـ أبناءهم. والتغيير في الأبناء يختلف عن التغيير في الأزواج، فنتيجة كل منهما وأسلوبه مختلف، فليس على الزوج أو الزوجة أن يعيد تربية شريك حياته بل أن يكون هناك فقط محاولات لتقليل العيوب.

فاختيار الشريك شريكه على هذه الأسس والقواعد الشرعية والأخلاقية التربوية التي فيها شيء من عصرنا وواقعنا، كلها مقتبسة ونابعة من شريعتنا السمحة.

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 6024)، و(الحديث: 6395)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 5621)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 6/ 36).

آداب الارتباط

إن أول ما ينبغي أن نقدّمه من نصائح للخاطب ـ وهذا النصح موجَّه إلى الرجال أكثر من النساء ـ أن لا يُثقل على أهل مخطوبته لا بوجوده ولا بطلباته؛ لأنه ما يزال خاطباً لا زوجاً، ولأنه لم يصبح بعد جزءاً من هذه الأسرة، كما لم يصبح مَحْرَماً للأخوات والأم.

الآن هو ضيف، ولكنه ضيفٌ أكثر وروداً من الضيوف الآخرين، ضيف له حقوق زائدة عن غيره من الضيوف. فيجدر به أن لا يكثر من التردد على بيت أهل خطيبته ولا أن يطيل القعود عندهم، كما لا يحق له أن يطلب من خطيبته الخلوة غير المشروعة، أو أن يخرج معها إلى مكان لا توافق عليه أسرتها.

ويجب على الخاطب أن يتحرى قواعد الحلال والحرام في علاقته بخطيبته كما يتحرّاها في علاقته مع النساء الأخريات اللاتي لا تربطه بهن علاقة خطبة.

وعلى الفتاة ألا تثقل على أهلها في شؤون خطيبها وألا تحمّلهم ما لا يطيقونه.

أما أول ما ينبغي أن نقدمه من نصائح للمخطوبة، فهو أنْ

هذا الخاطب غير مكلف بأن ينفق عليها في الملابس والدراسة وغيرها... فهذا تكليف لا يطاق وهو سبب مُنَفِّر للزواج.

أما الأسرة فعليها أن لا تُضَيِّق على المخطوبين أكثر مما ينبغي أي: لا يجب أن يرى الخاطب في بيت خطيبته وجهاً عابساً أو ما يشعره أنه غير مرغوب فيه وذلك دون تخطي حدود الحلال والحرام. فإذا راعينا هذا مضت الخطبة بسلام وانقضى وقتها بمحبة ومودة وانتقلنا إلى الزواج.

وأنا لا أنصح ولا أحب إطالة فترة الخطبة؛ خاصة إذا كان الشاب والفتاة راغبين في الاقتران؛ لأن في إطالة الخطبة تعذيب لهما. أما إن ظهرت (وقعت) بعض التصرفات التي تدل على أن هذا الزواج لن يتم ولن يُوفَّق إليه فالإسراع في فض هذه الخطبة أفضل لتوقي إطالة هذه الصلة التي لا مسوغ لها.

وكلما قصرنا مدة الخطبة كلما كان أفضل، لأن إطالة فترة الخطبة تسمح بأن يقع بين الخطيبين مما يقع بين الأزواج، فعلينا أن نقلل هذه المدة قدر الإمكان لنقلل فرصة الاحتكاك التي قد تأتي بنتائج غير مرغوب بها، ونقلل فرص السماح بما لا يجوز أن يقع شرعاً بصفة خاصة بين الرجل والمرأة ولتقع الخطوة التالية وهي التزويج وعقد القران.

أعرف أناساً في مصر يقولون: إن الخطبة سنة وعقد القران بعد سنة، وبعدها نفكر في الزواج.

سألت يوماً إحدى قريباتي: لماذا تقولين: إن الخطبة سنة؟

فقالت: ليقدم الخاطب هدية في العيد الأول والثاني وفي مولد النبيّ وفي عيد ميلاد خطيبته. . . . وبدأت تعُدّ حتى أصبحت خمس هدايا من الذهب، ومنها تعرف أنه قادر على أن ينفق عليها. فقلت لها: أليس من الأفضل أن يحضر كل هذه الهدايا لبيته؟!

مثل هذه الأفكار المغلوطة السيئة التي تقيس نجاح الزواج بقدرة الرجل على إحضار الهدايا هي التي تفسد الزواج.

الوجه الآخر بعد الزواج:

من الشائع أن الخاطب والمخطوبة يمثل كل منهما على الآخر ـ أو كلاهما ـ دور الرقيق المحب الودود، إلا أن حقيقتهما شيء آخر؟

إذا قام أي منهما بدور الممثل فإن هذا الدور سينتهي بانتهاء المسرحية، وإذا تزوج ثم ظهرت حقيقة ما أخفاه بتصنعه فلن يجني إلا حصاد ما قدم.

فأنا لا أقبل من ابني أو ابنتي أن يكون في فترة الخطبة على غير ما سيكون عليه بعد الزواج أو غير ما كان عليه قبل أن يخطب. على الشاب والفتاة أن يكونا صادقين مع بعضهما وأن يكونا على طبيعتهما دون تكلف وتصنُّع حتى يطمئن كل منهما إلى الآخر لأن المقصود من فترة الخطبة أن يطمئن كل واحد للآخر، وأن يُقْبِل على الزواج وهو راغب فيه، ويقبل بدء هذه

الحياة وهو حريص على استمرارها واستدامتها، ومظهر هذا الحرص هو الصدق وعدم التصنع في فترة الخطبة، أما إذا كذب كل منهما على الآخر وتجمل له تجملاً مصطنعاً غير صحيح في هذه الفترة المهمّة، فذلك حتماً سيؤول إلى الانفصال لأن كل منهما كان يريد أن يقتنص الآخر ويصطاده بالكذب عليه ولم يقصد أن يصدق معه.

الزواج ليس صيداً يُقتنص، وإنما علاقة محبة ومودة ورحمة تنشأ وتربى على هذه المعاني وتستمر بها، فإذا بدأت بالكذب فلا يستطيع أي منهما أن يصدق الآخر.

ذكريات الآباء:

كثير من الأمهات والآباء يظنون أن من خفة الظل أو الدم أن يسخر الأب من زوجته وبالعكس، وذلك بأنه كان يفعل كذا وكذا، فتهتز صورهم أمام أولادهم، وبعض الآباء والأمهات يقولون العكس لأولادهم فلا يتحدثون إلا بالخير عن حياتهم السابقة، وعن حسن علاقاتهم، وهكذا يعرف الأبناء أنهم مقبلون على حياة مفرحة وطيبة لا منغصات فيها على غير الحقيقة.

وبالنسبة لي أنا لم أمر بفترة خطوبة في المرتين اللتين تزوجت بهما، بل كان الزواج مباشرة، ولكن في الفترة الأولى من كل زواج كان هنالك ذلك النوع من التعارف، والذي كان يقول فيه شيخنا ومدرسنا في الجامعة في الإسكندرية عمر

عبد الله: «في كل زواج لا بد من مشاحنة بسبب ما يجري بين الزوجين من مباسطة».

عند استعمالهِ هذا التعبير كنت ما زلت شاباً صغيراً ولم أتزوج بعد فسألته: ماذا يعني؟ فقال: يحصل بين الزوجين من المودة والألفة وإفضاء كل منهما إلى الآخر، فينشأ بينهما صلة. وكلما كانت الصلة صحيحة وقريبة كلما كان احتمال الغضب من تصرف صغير قائماً، ثم يزول هذا الغضب فوراً؛ لأن الزوجين سيتذكران ما كان بينهما بالأمس من مودة ورحمة، وتقع المشاحنات بكثرة أو بحسب ما يقع من المباسطة وعندئذٍ تزول بسرعة، أما إذا كانت الحياة غير حميمية لا مشاحنة فيها أو رضا أو مودة فالمشاحنات تتراكم فوق بعضها جبلاً من الكراهية.

إذاً يجب على الأزواج والزوجات أن يتذكروا في لحظة الغضب لحظات الرضا وفي لحظة الإساءة لحظات الإحسان، ولا يجب أن تكون المرأة كما وصفت في بعض الأحاديث: **«لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»**[1]. وهذا سلوك خاطىء، يسلكه النساء والرجال على حد سواء، فهناك رجال يسيؤون إلى نسائهم وينكرون حقهن بعد أن أعطين حياتهن كلها لهذا الزوج.

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 1052) و(الحديث: 5197)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 2106) وأخرجه أبو داود في (الحديث: 1189)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 1492).

لقد سمعت عن زواج دام خمسة وأربعون عاماً، ثم انتهى بالطلاق؛ لأن الزوجة لم يعد بإمكانها أن تتحمل إساءات زوجها المتكررة، فهذا الزوج لا يعترف بحقها بحياة كريمة وهي التي أنفقت عمرها في تربية أولادهما وخدمته. فكفران العشير من أسوأ الأشياء، وهو يقع في الرجال كما يقع في النساء.

والعلاقة الزوجية تقتضي أن يتجنب كل منهما هذا الكفران، واستمرارها يحتم أن يغفر كل منهما للآخر، وأن يضع أمام أولاده الصورة المشرقة والصورة الصحيحة.

ويحدث أحياناً أن يخطىء الرجل أو تخطىء المرأة فيقول للابن أو الابنة كلمة قاسية عن الأم أو عن الأب، وقد يسمعها الأب أو الأم ولكن الأب العاقل أو الأم العاقلة لا تقف عند هذه الكلمة وتمر عليها مرور الكرام كأنها لم تقع.

أعرف رجلاً سمع زوجته تقول لابنهما: إن أباك ليس له فضل في تربيتكم، فهو في عمله طول النهار، وأنا التي علمتكم وخدمتكم وخرجتكم من الجامعات. سمع زوجها هذا الكلام ودخل إلى منزله وسلم عليها، ودخل غرفته وكأنه لم يسمع شيئاً.

ثم دخلت زوجته إلى غرفته لتشتكي له ابنتها التي أغضبتها اليوم، فطلب ابنته ووبخها على فعلها، وقال لها: إن هذه أمك، وعليك أن تتحمَّليها، وأنت الآن لا زلت في الجامعة ولا تتحملين كلام أمك، فكيف ستتحملين زوجك عندما تتزوجين،

ماذا يحصل إن قالت لك أمك كلمة؟ وانتهى الموقف عند هذا الحد، والزوجة لم تعلم أصلاً أن زوجها سمع قولها، فالزوج لم يعاتبها على ما قالت بل أكثر من ذلك: قام بتوبيخ ابنته التي أغضبت أمها، فهو لم يتخذ موقفاً حاداً من قول زوجته.

لو أن هذا الزوج انفعل وقال لزوجته: أنا صاحب هذا البيت وصاحب الكلمة لاشتعلت الأسرة ناراً ولانهدمت الصورة المثالية بين الزوجين أمام الأولاد.

فالزوجان العاقلان لا يخرجان خلافاتهما خارج غرفة نومهما، إذا اختلفا فداخلها فقط، ولا يتركاها إلا إذا اصطلحا، وإن لم يحرصا على هذا السلوك تزعزعت صورة الأسرة والآباء والأمهات عند أبنائهم.

النصيحة الخائبة:

بعض الناس يقدم نصيحة لمن يريد أن يتقدم لخطبة فتاة قائلاً: عليك أن تثبت شخصيتك عند أول لقاء وأول موقف بينكما، وينصح الفتيات بمثل ذلك أيضاً: عليكِ أن تثبتي له أن شخصيتك قوية وأنك صاحبة كلمة وصاحبة رأي.

هذه النصيحة نصيحة خائبة لا يقولها مَن عنده شخصية أو من عندها شخصية، فعلى المرأة والرجل أن يظهرا على حقيقتهما، لا أن يصطنعا قوة أو ضعفاً غير حقيقي.

ويجب ألا يحاول أي منهما أن يظهر على غير حقيقته، لأنه إذا ظهر اليوم على غير حقيقته، فماذا سيفعل غداً إذا

اكتشف كذبه أو تمثيله، وكيف سينظر في عيني خطيبته بعد ظهور كذبه.

هذه النصيحة إهانة للرجل والمرأة اللذين يؤمران بالاصطناع، وأنا أرى أن الواجب على الشاب والفتاة من أول لحظة تعارفا فيها وإلى آخر لحظة يبقيان فيها معاً أن يكونا صادقين مع نفسيهما أولاً، ومع بعضهما ومع الناس ثانياً؛ لأن الصدق يهدي إلى البِر والبِر يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار.

فأنا لا أنصح أحداً أن يمثل ويكذب ليصطنع شخصية ليست له؛ لأنه سَيُكتشف ولو بعد حين، وإذا اكتشف ستكون هذه اللحظة بالنسبة له لحظة شعور بالحقارة والدناءة، ولحظة استصغار، في حين يستطيع أن يتجنب ذلك كله إذا ظهر على حقيقته منذ بداية العلاقة.

فإذا هي أحبته وقبلته كما هو عاشت معه، وإن رأت غير ذلك فلا بد أن يأتيها الله بخير منه، وسيأتيه بخير منها.

حقوق الزواج

ولي المرأة:

إن الحديث عن ولي المرأة، هو حديث عن احترام المرأة وإكبارها وإعزازها بين أسرتها وعشيرتها وقومها؛ لأن الرجل ينضم إلى أسرة زوجته، والمرأة تنضم إلى أسرة زوجها. فلا ينضم الرجل لأسرة زوجته بمفرده؛ بل بأسرته وأهله وعشيرته، وكذلك المرأة تنضم له بأسرتها وأهلها وعشيرتها، هذا الانضمام يبدو في أكمل صوره وأقواها، إذا بدا أن عزوة المرأة من الأب أو العم أو الخال أو الجد من الذين نسميهم: القائمين بشؤون المرأة، هم الذين يتحدثون باسمها، وهم الذين يحرصون على حقوقها عند زوجها، وهم الذين يحرصون على وضع هذه الحقوق في إطارها الشرعي وإطارها العرفي المقبول.

وأنا أعتبر أن اشتراط صحّة زواج المرأة: الوليّ، وشاهدَي عدل كما نص على ذلك حديث النبيّ ﷺ: «**لا نكاح إلا بِوَليّ**»[1]، هو من تمام حقوق المرأة، وليس فيه أي إنكار

---

(1) أخرجه أبو داود في (الحديث: 2085)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1101) و(الحديث: 1102)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 1880) و(الحديث: 1881)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 4/ 394).

لحقوقها أو شخصيتها، لكن أين يأتي الإنكار؟

نقول: يأتي الإنكار، لو أتى هذا الولي بولاية الإجبار. قال العلماء منذ القدم: إن الإجبار يكون للفتاة الصغيرة، فإذا ما كبرت فهي تُستأذن وتختار.

وأنا لا أقر ولاية الإجبار أصلاً، وما صحت فيه وقائع زواج الصغيرات بإرادة آبائهن من روايات يتداولها الفقهاء هي قضايا أعيان لا عموم لها، يعني لا يؤخذ منها حكم عام يقال إنه «حكم الإسلام».

وإذا قدمت الفتاة وليًا لها كأبيها أو عمها أو جدها ـ أي الزوج ـ أن لها كبيراً يُرجع إليه، وأن لها مرجعاً يؤوب إليه، وأن لها من يمضي عليها قوله إذا وقع بينهما خلاف واحتاجا إلى حل، فإنهما يلجآن ويستجيبان له.

أما إذا كانت العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة ثنائية، ولم يكن فيها أولياء من جانب المرأة، ولا أسرة أو جماعة من جانب الرجل، فإن هذه العلاقة قد لا تجد من يحميها إذا أصابها الفشل أو الخلل.

فكثيراً ما يؤدي دخول أهل الطرفين إلى إزالة الغضب، وإزالة سوء التفاهم، وإحياء الأسرة وإبقائها، وهذا هو الهدف الأسمى.

فالولاية على المرأة مسألة ضرورية، ليس لأنها قاصر، أو لأن رأيها غير ضروري، وإنما لأن إرادتها مكفولة، ولا يمكن

لأحد إجبارها على الزواج، لذا فتقديراً لها يجب أن يكون وليها هو المتحدِّث باسمها.

ومن من ناحية أخرى أنا لا أتصور أن المرأة تستطيع مناقشة أمر مهرها كما ينبغي في كل زواج، فمناقشة المهر تستدعي أن يكون للمرأة نظير في مسألة مهرها. فتقول: مهرها كأختها أو كخالتها أو كعمتها... والزوج إما أن يكون قادراً وإما غير قادر، فإذا لم يكن قادراً قد يقع تفاوض.

يروى أنه كان في زمن النبيّ ﷺ رجل فقير أراد أن يتزوج ولم يكن معه مهر ليتزوج، ولم يكن في بيت المال ما يعطيه النبيّ ﷺ لهذا الرجل حتى يتزوج به، فقال له النبيّ ﷺ: «**التمس ولو خاتماً من حديد**»[1]، وقال ﷺ لرجل آخر: «**زوّجتُكها بما معك من القرآن**»[2]، أي: حتى يعلمها ما يحفظه من سور القرآن الكريم.

والله تبارك وتعالى يقول في شأن الصالحين من عبادكم وإمائكم: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: 32]، أي: إن يكونوا فقراء وقت التزويج.

---

(1) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 2111)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1114)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 336).

(2) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 2310) و(الحديث: 5135) و(الحديث: 7417)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 2111)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1114)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 3359).

فهذه المناقشة لا ينبغي أن تتم بين الرجل والمرأة وحدهما، ولكن يجب أن تتم بين ولي المرأة والخاطب، أو بين المرأة وأقرباء الرجل أو من يقوم بمقام الحديث عنه.

وهنا يكون الحديث غير مباشر، بحيث لا يكون فيه جرح للكرامة، ولا يكون فيه مساس بالعلاقات الودودة بين الطرفين، ويمكن الحفاظ على الاحترام بينهما. فهذه كلها مسائل تحل بعيداً عن المودة والرحمة التي ستنشأ بين الرجل والمرأة فيما بعد الزواج، وهي التي تديمه وتحفظه وترسخ الرغبة في الاستمرار فيه.

تزويج المراة نفسها:

المرأة تزوّج نفسها بدون وَلي عند المذهب الحنفي، وأما في بقية المذاهب فلا تُنكح إلا بِوَلِي.

فالمذهب الحنفي يجيز للمرأة أن تزوِّج نفسها، وذلك بأن تباشر عقد الزواج بنفسها، فالمذهب الحنفي بهذا الرأي حل إشكال المرأة التي لا وَلي لها. بينما قال الآخرون: إن السلطان ولي من لا ولي لها، فالمرأة التي ليس لها أب أو أخ أو عم يزوجها، فالقاضي الشرعي هو الذي يقوم بتزويجها.

إن إجازة المرأة تزويجها لنفسها هو بحد ذاته دلالة على حريتها، وهي أيضاً للدلالة على أن حرية المرأة موفورة محترمة، وأن رغبتها هي التي تقوم على أساسها الحياة الزوجية. والأمران

جائزان، إلا أن الأفضل الزواج بِوَلي؛ لأن هذا ما نص عليه النبيّ ﷺ.

وهذا المعمول به في معظم الزيجات التي تتم في مصر، حتى إن حوالي 70٪ منها تتم بدون ولي.

لكن إباحة تزويج المرأة نفسها، يشترط فيها أن تكون عاقلة وبالغة. وهو أكثر ما يكون في الثيب لا في البكر، والبكر صمتها جوابها، وأما الثيب فتستأذن؛ ويطلب منها رأيها صريحاً عملاً بحديث: **«الأيم (أي الثيب) أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأذن في نفسها، وإذنها صماتها»**[1]. لأن عنصر الخجل لديها يتطلب منها التعبير بلسانها.

مهر المرأة:

الإعلام اليوم يصور لنا أن المهر هو ثمن للزوجة، لكن هذا التصوير باطل ولا أصل له في الإسلام بل هو مأخوذ عن الثقافة الغربية.

ففي الثقافة الغربية أن الرجل يقبل من المرأة هدية عند الزواج، تسمى: «الدوتة»، في لهجتنا المصرية وفي اللغة العربية. لكن عندنا في الشرع الإسلامي، المهر هو هدية المرأة.

---

(1) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 3461)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 2098)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1108)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 3260)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 1870).

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: 4]، ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: 20]، يعني: مهما بلغت هدية أحدكم لزوجته من المال، فهذا حقها.

وهذه النِحلة، يعني: الهدية، إكرامٌ للمرأة ودليلٌ على صدق الرغبة في الزواج، مما يعني أن الرجل مقبل على الاقتران بها غير مبال لمسألة المال، وإنما جُلّ همه هو إسعادها وإكرامها. فالمهر ليس ثمناً للمرأة، ولا ثمناً لعقد الزواج، أو لشرائها من أبيها، وهي ليست رقيقاً تباع وتشترى، وإنما المرأة كائن حي يكرَّم، والنبيّ ﷺ يقول: «**تهادوا تحابّوا**»[1]، ومعنى هذا: إذا أهديتيني ثم أهديتك، فأهديتيني ثم أهديتك، فإن هذا يرسخ المحبة بيننا.

فهذه الهدية من الخاطب تنشىء محبة بينه وبين عروسه، وتشعرها بصدق طلبه لها كزوجة، وبأنه راغب فيها، وليست ثمناً لشيء. والزواج ليس فيه بيع ولا شراء، كالسلعة التي تفاصل في ثمنها وتقلبها ذات اليمين وذات الشمال، وترى أتدفع فيها أم لا.

ونحن عندنا للأسف الكثير من العائلات والأسر التي تقول: نحن لا نرضى بأقل من كذا وكذا، ولا نزوّج ابنتنا بأقل

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 405)، وأخرجه **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 6/ 169)، وذكره **الهيثمي** في «مجمع الزوائد» (الحديث: 4/ 146).

من كذا وكذا، فهذه الأسر تدمر الحياة الزوجية ولا تبنيها أبداً، وتجمد العلاقة بين الرجل والمرأة وتجعلهما ينظران للقضية بنظرة الإعلام الغربي المادية المفسدة التي تهدم ولا تبني.

الحقوق والواجبات:

وترتب العلاقة الزوجية عند إنشائها على كل من الطرفين واجبات، وقد يتدخل الأهل بشكلٍ أساسي في هذه الأمور، مما يؤدي في بعض الأحيان إلى نسف هذه العلاقة حتى ولو كانت بذرة صالحة قابلة للنجاح.

لذلك يتوجب علينا أن نقدم كل ما نستطيع تقديمه لتيسير أمور هذا الزواج.

فإذا كان كلا الطرفين قادراً على المساعدة في إنشاء أسرة صالحة فلم لا؟ إذا كان كل منهما قادراً على بناء حياة زوجية بسيطة دون تكلّف يخرج عن طاقتهما واستطاعتهما فلماذا نطلب الكثير؟! إن إقامة البيت الصالح هدف في حد ذاته، وإنشاء العلاقة الزوجية السامية المستمرة مقصد هام، يمكن التضحية في سبيله بتلك المادية. وذكرنا الآية الكريمة التي تقول: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: 32]. هذا الرضا بالقليل واليسير، وقبول إنشاء البيت المسلم على الحد الأدنى من الإمكانات، أفضل ألف مرة من إفشال مشروع الزواج حتى تتوفر المتطلبات الكاملة كلها.

وقد يحدث العكس، كأن تقول الفتاة مثلاً: أريد كذا

وكذا، وغرفة بكذا وكذا. . . إلخ، ففي هذه الحالة يجب على الأهل أن يردعوها ويردّوها إلى صوابها، ويقولوا لها: إن هذا ليس مما يقوّم العلاقة الزوجية، وإنما هو من الكماليات والمحسِّنات. لأن المعنى المنشود من الزوجية هو المعنى المذكور في الآية الكريمة وهو: إنشاء المودة والرحمة. فإذا ما استقرت هذه المعاني في نفوس الزوجين وأهلهما، تجسدت السعادة الزوجية حتى ولو في خيمةٍ من صوف أو خيمةٍ من وبر، وأما إذا انعدمت المودة والرحمة، فلن يكونا سعيدين ولو عاشا في قصر من قصور ألف ليلة وليلة، لأن الحياة الزوجية الحقيقية هي الحياة التي يطمئن فيها كلٌّ من الزوجين إلى الآخر، ويسكن إليه. وليست الحياة الزوجية هي تلك التي يدفع فيها الرجل ألف جنيه كل ليلة، فهذا لا يقع في الزواج وإنما يقع في أمكنة أخرى بعيدة كل البعد عن معنى الزواج، لأن البيوت لا تقوم على هذا، إنما تقوم على تقوى الله ﷻ، وعلى رضىً بما قسمه الله لهما. وكما قال عمر ﷺ لامرأةٍ زعمت أنها لا تحب زوجها: «يا بنيّتي، وهل تقوم كل البيوت على الحب؟ وإنما يتعاشر الناس بالإسلام وبالأحساب». بالإسلام أي: بما أمر الله به من الإيمان والصبر والمودة والرحمة . . . وإلخ.

وبالأحساب، أي: أن يحرص الرجل على إكرام زوجته رعاية لأهلها وحرصاً على مودتهم، وتفعل المرأة مثل ذلك.

هذا نفسه عامل من عوامل استقرار الحياة الزوجية وضمان قيام الأسرة الصالحة بإذن الله تعالى.

فرحة الاقتران:

بعد انعقاد القران يجب على المرء أن يكون مستبشراً فرحاً، والفرحة طبعاً مشروعة، بل ومطلوبة أيضاً، فلا يُقبل المرء على الزواج وهو عابس الوجه مقطب الجبين، وإنما يقبل عليه وهو يستبشر بالخير، ويأمل بأن تكون حياته المستقبلية مع زوجه أفضل من حياته قبلها.

وهذا حق مشترك للشاب والفتاة على حد سواء، لذلك تقام عند الزواج ـ ولا تقام عند الأتراح والأحزان والمشاكل ـ الأفراح مع الالتزام بعدم الإفراط والمبالغة في الخلاعة والبذخ كما يحصل في أفراح الناس اليوم.

فاليوم تقام الأعراس في الفنادق، بينما قديماً كانت تقام الأفراح في البيوت. وأصبح الناس يدعون المغنيين والموسيقيين، ويدفعون الآلاف من الريالات أو الدولارات أو الجنيهات أو الليرات، وهذا كله إسراف في غير محله.

أعرف بنتاً صالحة طلبت من أبيها أن يتبرع بالمال الذي سيصرف على حفل زواجها لأسرة فلسطينية مشرّدة؛ لأنه ربما كانت هذه العائلة أحوج منها بكثير فتساعدهم بالمال الذي كانوا سيدفعونه لإقامة الفرح، وهذا ما حدث فعلاً.

ولو أن كل زوج وزوجة، وكل أسرة، يكتفيان ـ من موضوع إقامة الأعراس بشكلها الحالي ـ على ما يُعلن به الزواج وهذا شرط أساسي لإعلان الزواج: أي الإشهار، **«أعلنوا هذا**

النكاح واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف»[1] ـ فلو اكتفى الناس بذلك، ووضعوا ما فاض من المال في عمل هو بر وخير، وفيه قربة لله تعالى، لكان هذا أبرك للزوجين، وأدوم للعشرة بينهما، وأدعى إلى توثيق الرباط بينهما لأنهما بذلك يكونان قد بدءا زواجهما بخير.

وقد جاء في الحديث الشريف: **«شر الطعام طعام الوليمة، يدعى إليها الأغنياء ويترك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله ﷺ»**[2]. وأكثر ولائم الأفراح هي هكذا، يُدعى إليها من لا يحتاج إلى طعام أو إلى شراب، بل ربما من لا يحب أن يأكل أو يشرب أصلاً؛ لأنه يرغب في الحفاظ على وزنه، أو وزنها، فيذهب هذا الطعام كله في سلال القمامة، وهكذا يُنفَق المال في غير ما يجب أن يُنفَق فيه.

فنحن ندعو إلى الفرحة المعقولة المشروعة، التي هي في الحدود لا تُرهق الزوج أو الزوجة، أو تكلف الناس من أمرهم عسراً، ولا إسراف فيها، فالإسراف كله محرم وغير محبب قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141].

ولا بد وأن يكون من بين القرّاء من هو مقبل على

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1089).

(2) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 5177)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 3507)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 3742)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 1913)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 241).

الزواج، أو من هي مقبلة على الزواج، أو من هو مقبل على تزويج ابنته أو ولده، فنأمل أن يكون في هذا الذي نقدمه منفعة لهم، وتسليطاً للضوء على أحكام شريعتنا السمحة، وعلى خُلُقنا الإسلامي في هذه التعاملات كلها.

آداب المعاشرة الزوجية

لعل هذا الجزء من الحياة الزوجية، هو أهم جزء فيها على الإطلاق؛ لأن الكلمات الأولى، والخطوات الأولى والحركات الأولى التي تقع من كلٍّ من الزوجين، تترك أثراً في نفس كل منهما، وقد يبقى مدى الحياة كلها. فالإسلام أمر أن نتلطَّف بعلاقاتنا الزوجية، فقال ربنا ﷻ: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 223]. والتقديم للنفس هنا معناه: الملاطفة، والكلمة الطيبة، واللمسة الحانية، والإشعار بأن هناك فرقاً بين العلاقة الحيوانية التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، وبين الشعور الإنساني الذي يأتي بالصحبة والألفة التي تنشأ بين المرء وزوجه.

هذا التقديم للنفس أنواعه كثيرة، وقد يختلف من شخص لآخر في المعاملة والشعور. وحدُّه ونهايته، أنه لا يجوز للزوجين أن يجعلا هذه الأمور محور علاقتهما الزوجية وأساسها وعمودها.

وهي أمور جد ضرورية، وبالغة الأهمية، إذ لا يمكن للفرد أن يستغني عنها، لكنها في النهاية جزء لا يتجزأ من الترابط والحنان الذي يجمع بين الزوج وزوجته. وهذا الجزء يحتاج إلى هذا الحنان وهذه العاطفة وهذه الرقة أكثر مما يحتاجه

أي جزء آخر من حياتهما معاً. وكثير من الناس يظنون أن من واجب الرجل في الليلة الأولى أن يُثبت لزوجته بطولته.

ينبغي على الزوج أن يوضح ويثبت لزوجته مدى أهميتها عنده، وعدم استغنائه عنها، وفرحه بها، وسروره بأنها قرينة حياته التي لا يتخلى عنها، حتى يكون الإقبال منها كالإقبال منه، وحتى تكون الرغبة عندها كالرغبة عنده، لا أن تكون بين طرفٍ غالب وطرف مغلوب، أو طرفٍ قاهر وطرف مستسلم لما يُطلَب منه.

وهذا يأتي بالتعلم أو التدريب أي تكرار المعاشرة، إما بالتوعية من الأهل قبل الزواج بالواجب على الزوج نحو زوجته، إذ أن كثير من الأزواج لا يدركون في ليلة الزواج هذه الأبعاد.

وهذا الجانب من علاقة الزوجين يتطلب ثقافة خاصة، قد تكون بالتعلم أو بالقراءة، أو عن طريق التخصص في الدراسة، كالطب والصيدلة والتمريض، أو ممن درسوا ما يمت بصلة لهذه العلوم البيولوجية، أو ممن خاضوا تجارب في هذا الموضوع، فينقلون للطرف الآخر نوعاً من الإشارات، تجعله يتناول هذه العلاقة تناولاً طيباً كريماً، يُشعِر المرأة بآدميتها، وجمالها، ويشعر الزوج نفسه بإقبال زوجته عليه وترحيبه بها وإن لم يتيسر هذا التعلم للشاب والفتاة من التعليم والقراءة فعليهما واجب البحث عن المعرفة والثقافة في هذا المجال.

ولا أظن أن مصير العلاقة الزوجية يتحدد من الليلة الأولى

كما يظن بعض الناس، ولكن يتحدد مصير الاتصال الحميم بين الزوجين إلى حد كبير.

وقد يتطور عند كثير من الناس نتيجة تدخل أحد الناصحين ممن يمارسون الإرشاد النفسي، أو نتيجة تدخل طبيب نفسي. لكن إذا كان الإنسان في أول أمره رجلاً كان أو امرأة قادراً بنفسه على ضبط إيقاع العلاقة الحميمة بينه وبين زوجه فإنه سيحول دون الوقوع في المشاكل والعراقيل، كأن يحدث بينهما تباعد، ثم نحاول التقريب بينهما في المسائل التي يتدخل فيها الخبراء، أو الأقارب، أو الأصدقاء. وكل ذلك يمكن تجنبه بالمودة والألفة والحنوّ في أول يوم من العلاقة الزوجية أفضل من الوقوع في الخطأ ثم محاولة تجنبه فيما بعد.

ثم استمرار هذا الحنو والألفة والحرص من كل طرفٍ على رضا صاحبه في كل لقاء بعد ذلك، فالمودة كما تنمو تذبل وتموت، فيجب تعهدها بالعناية والرعاية ولا يتأتى ذلك إلا باستمرار حرص كل زوج على رضا صاحبه وحنوه عليه.

وعلى الزوجين أن يدركا ويعيا الهدف من هذه العلاقة فهو ليس محصوراً في إشباع رغبة ملحة أو في إنجاب الأبناء فقط، ولكنه أيضاً تحقيق الارتواء العاطفي وإشباع الحاجة النفسية لدى الطرفين في الشعور بالقرب والألفة والصلة الخاصة المميزة التي تجمعهما دوماً.

في الحديث الشريف: **«لو أن أحدهم، إذا أراد أن يأتي أهله، قال: باسم الله، اللهم جنّبنا الشيطان، وجنّب الشيطان ما**

رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولد في ذلك، لم يضره شيطان أبداً»[1]، فهذا نوعٌ من طلب البركة الربانية. وأما الصلاة، فهدفها الإحساس بأن الجامع بين هذه المرأة وذاك الرجل ليس دنيا فقط، وإنما الدنيا وطلب الآخرة.

إذ ليس الهدف من تأسيس هذه الأسرة أن يسعد الرجل والمرأة ويُنجبا الأولاد فقط، وإنما الهدف أن يتعاونا في إقامة أمر الله في الأرض، فإذا اجتمعا على هذا الرباط، كان بينهما إلى جانب الحب الشخصي الذي يجمع بين الرجل وامرأته، الحب في الله الذي يجمع بين المؤمن والمؤمنة، وكان بينهما إلى جانب الاستظلال البيتي الذي يجمع بينهما، الاستظلال برحمة الله تبارك وتعالى التي وصفها القرآن الكريم بأنها: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56]. هذه الرحمة القريبة من المؤمنين والمحسنين كيف تأتي؟

تأتي بأن يستظل الإنسان بظل الله ﷻ، بالتعبد والعمل الصالح والتصدق. إذ يُحمد لكثير من الناس التصدق في هذه الليلة ـ ليلة عقد الزواج ـ فهذه عادة من العادات الحسنة ندعو لمن سنها ولمن فعلها الأجر إن شاء الله إلى يوم القيامة.

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 141)، و(الحديث: 3271) و(الحديث: 3283)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 2161)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1092)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 1919)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 1/ 271).

سألت بعضاً ممن يفعل ذلك لم يفعلونه، فقال: إذا كنا نفق كل هذا المال على الزواج، أفلا نجعل للفقراء والمحتاجين نصيباً من هذا الإنفاق؟ وهذا أيضاً إن شعر به الزوجان، فإنه يقوّي الصلة الزوجية بينهما، التي تجمع بدورها بينهما في ظل الإسلام.

ليس الأدبُ الذي تعلمناه من رسول الله ﷺ قاصراً على اللقاء الحميمي الأول بين الزوجين، وإنما على امتداد الحياة بكل جوانبها. فإذا أكلا معاً سميا الله في أول الطعام، ثم حَمِداه في وسطه وآخره، هذا السلوك ينشىء روحاً طيبة بينهما.

إذا وجد أحدهما يأكل بيده اليسرى وقد نبّه الشرع الحكيم على وجوب الأكل والشرب باليد اليمنى فنبّهه، فهذه كلها أمور موصلة إلى مودة وصلة حميمية بينهما.

وأنا أعرف في بعض الأسر من تعوّد على استعمال يده اليسرى في كل شيء، لعلها أقوى من يده اليمنى، أو لعله ممن نسميه أيسر، وبعضهم يسميه أعسر، فكان الطرف الآخر يذكر صاحبه في بداية الطعام أن كل بيمينك، فينتبه ويأكل بيمينه، مرة، اثنين، ثلاثة، عشرة، وكنت قد حضرتهم في مرات كثيرة، وقلت له: أما مَللتَ كثرة التنبيه، وأما اتعظ صاحبك فتنبه وحده لمسألة الطعام أو الأكل بيمينه دون تنبيهك؟ فقال لي: يا عم، هل تريد أن أخسر ثوابي؟ فالطرف الآخر ينسى وأنا أذكره بهذه الطريقة. فرأيته يضع طعامه هو بيده اليسرى، ثم يعاود ويأخذه

بيده اليمنى وهو يشير إلى الطرف الآخر فيذكره بهذه الطريقة دون أن يقول شيئاً.

هذا النوع من الرقة في تعليم الآداب الدينية هو جل ما نتمناه في بيوتنا الإسلامية.

مثلاً: أنا أعرف امرأة ـ أدعو لها بالخير ـ كانت لا تصلي السنن أبداً، فسألها زوجها: هل تعرفين السنن والرواتب؟ فقالت: نعم، أعرف السنن والرواتب، فذكرتها له وهي تعرفها معرفةً جيدة. فقال لها: لماذا لا تصلين السنن إذاً؟ قالت: إنها سنن، إن فعلتها أؤجر عليها، وإن تركتها ليس عليَّ شيء. فقال لها: هذا صحيح. وسكت.

مرة ثانية، ذكر النوافل أمامها لقوم من أقاربه، وقال: إن ترك هذه النوافل لا شيء فيه، لكن الاستهانة به خطر؛ لأنه يُخشى منه أن يجر إلى الاستهانة بسنن أخرى، أقوى منها، أو راتبة أو ما إلى ذلك.

في المرة الثالثة قال: إن الإنسان يمكن أن يعوِّد نفسه على هذه النوافل، بأن يأتي ما لم يتركه منها النبيّ ﷺ، وهو: ركعة الوتر بعد العشاء، وركعتا الصبح قبل صلاة الفجر، فلاحظ أن المرأة بدأت تصلي ركعة الوتر وركعتا السنة قبل الفجر. ثم بعد مدة وجدها تصلي ركعتين بعد المغرب، ثم وجدها تحافظ على النوافل كلها، وتزيد، ولمْ يسألها قط. وحكى لي ما جرى معه فقلت له: ولِمَ لمْ تسألها؟ فقال لي: ولماذا أسأل؟ فقد فعلت أكثر مما كنت أطلب منها أن تفعل، فيكفيني هذا.

قِسْ هذا الخُلُق وهذه الطريقة في التعامل، على خلق الذي يتعامل ويأمر بشدة وغلظة، وينهى بعنف أو سخرية، ويجعل الأمر بين أسرته منفِّراً للطاعة، مبعداً عن العمل الحسن، مكرِهاً الغير على فعل الحسن.

فالذي تعلمناه من الإسلام في مسألة العلاقة بين الزوجين لا يقتصر فقط على ما هو قائم بينهما في غرفتهما، وإنما يمتد ليشمل ما بينهما في كل جوانب العلاقة بين الزوج وزوجته، وهي لا يمكن أن تُحصى كثرةً، ولا تنوعاً، ولا تعداداً؛ لأن صورها تتعدد بتعدد خلق الله.

العلاقة التي تنشأ بين الزوجين بجوانبها المختلفة تحتاج إلى الأدب ـ هذا العاصم الحسن ـ ليحميهما من الانهيار والتدهور والأمراض أيضاً.

فترى أزواجاً قد يجلسون لساعات دون أن يتحدث كل منهما إلى الآخر، وإذا جاء الضيف أو الابن أو الحفيد، تحدث كل منهما على انفراد، دون أن يشتركا مع بعضهما في حديث.

قديماً سألت فتاة في أسرتنا إحدى الزوجات، قالت: أين كنت؟ قالت: كنا أنا وزوجي في حديقة من الحدائق التي يذهب إليها الأسر ويجلسون بها. قالت: استمتعتما بوقتكما كما في أيام الشباب؟ وتكلمتما في الماضي والحاضر؟ فضحكت الزوجة وقالت: يا بنيتي، غداً تتزوجين وتعرفين أنه لا يوجد زوجة تتكلم مع زوجها في مثل هذه المواضيع. وهذه العبارة ظلت

راسخة في ذهني وقد حصلت منذ أكثر من ثلاثين سنة، ولم أنسها حتى اللحظة.

لذا من الواجب على كل من الزوجين أن يحرص على الحوار والنقاش وتبادل الكلام والأخبار فالحوار هو عنصر هام في علاقتهما، حتى لا يصيب العلاقة الزوجية فتور بحيث لا يتكلم المرء مع زوجه إلا في الحالات النادرة. كما حدث مع تلك المرأة وزوجها.

هذا كله يدخل في العاصم الذي يقي الأسرة من أن تتجمد العلاقات، أو تتفتت، فيجد كل منهما نفسه وكأنه يعيش في مجتمع وحده دون شريك.

الموروثات الخاطئة:

بالعودة إلى الخطوات الأولى في تكوين الأسرة، هناك الكثير من الموروثات - عن الليلة الأولى من الزواج وعن هذه الحياة التي سيبدآنها معاً - خاطئة وبعيدة كل البعد عن تعاليم شرعنا الحنيف، هي مما غزانا به الغرب من عادات لم نكن نألفها في مجتمعاتنا.

إن الموروثات التي تسود مجتمعاتنا العربية والإسلامية كافة، أكثرها لا أصل له في الإسلام، وأكثرها يتعارض مع أهداف الشرع؛ وأول ذلك ما يتصل بالعلاقة الحميمة بين الزوجين فهي علاقةٌ لا يجوز التكلّم فيها؛ بل وُصِف اللذان

يفعلان هذا، بأنهما مثل كلبين التقيا في الطريق لقاء حميماً ورآهما الناس كلهم وهما في هذا اللقاء الحميم.

فهذه العادات الموروثة عن (ليلة الدُخلة)، وما يقع فيها، وكيف كانت العروس، وكيف كان الرجل. . .إلخ. هذا كله باطلٌ وفاسد. لا يجوز أن يفعله مسلم، فضلاً عن أنه لا يجوز أن يفعله عاقل؛ لأن أساس هذه العلاقة هو الستر والكتمان. ولذلك في أمثالنا الشعبية الجميلة أن المرأة ستر لزوجها، والرجل ستر لزوجته، هذا الستر كيف يكون؟

يكون بأن لا يُفشي أحدهما سرَّ الآخر، وألا يُفشيا هما معاً سرَّ علاقتهما، ولو حصل هذا، لأصبحت فضيحة على رؤوس الخلائق، ولضاع ما فيها من لذة، واستمتاع واستلطاف وحُسن تأتي من جانب الرجل أو من جانب الزوجة.

وقد نهى الرسول ﷺ عن أن يتحدث الرجل عما كان بينه وبين امرأته، أو أن تتحدث المرأة عما كان بينها وبين زوجها، فقامت فتاة صغيرة من الأنصار، وقالت: يا رسول الله، إنهم ليتحدثون، وإنهن ليتحدثن، فشدَّد الرسول ﷺ في النهي.

وهذا النص لا يشمل فقط الحديث عن اللقاء الأول بين الزوجين ولكنه يشمل كل ما يكون بين الزوجين أثناء الزواج وبعد أن ينتهي أيضاً، فلا يجوز للزوج أو الزوجة أن يتحدثا ما كان بينهما إن حدث الطلاق بينهما أو إذا مات أحد الزوجين.

إن كل العادات التي جاءتنا من الغرب، لا نقول إنها

تخالف ديننا فقط، بل تخالف ثقافتنا أيضاً، إذ أن ثقافتنا تقوم على احترام المرأة لا امتهانها، وعلى الاحتياط، كل الاحتياط في كتم أسرار الأسرة، وليس على الإفصاح بما يجري وبما سوف يجري، وما جرى مع الآخرين.

أحياناً يقول لي بعض الشباب والشابات: كنت أحب فتاةً، وأنا الآن على وشك الزواج، أو كان يحبني شاباً وأنا الآن على وشك الزواج، فهل يجب عليّ أن أخبره؟ فأقول لهم: يا بنيّ، أو يا ابنتي، شرَّع الله الستر ولم يشرع الفضيحة.

قال الرسول ﷺ لهازال الذي حض على الاعتراف بجريمة الزنا: **«يا هازال لو سترته بثوبك لكان خيراً لك»**[1]، قال الإمام النووي في شرحه على مسلم، أي: لو ستره بثوبه حال ارتكابه للزنا لكان خيراً له من أن يأمره بالاعتراف. هذا الاعتراف الذي سيلقيه على الرسول، فيقيم عليه الحد، فيطهره، حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة أو معصية وقع فيها! والرسول ﷺ يقول: **«كل أمتي معافاةٌ إلا المجاهرين»**[2]، ومن الإجهار أن يعمل الرجل بالليل عملاً، فيبيت يستره ربه، فيصبح وهو يقول: لقد فعلت البارحة كذا وكذا. فيبيت يستره ربه، فيصبح فيكشف ستر ربه عنه.

---

(1) أخرجه أبو داود في (الحديث: 4377)، وأخرجه الإمام مالك في «الموطأ» في (الحديث: 1578)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 5/ 217).

(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 6069)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 7410).

وهذا في المعاصي، فكيف في الطاعات؟

إذا كانت العلاقة بين الرجل وامرأته، هدفها الإعفاف، وهدفها إغناء كل منهما الآخر عن ارتكاب الحرام، فكيف يخرج أحدهما فيفشي هذا السر؟

هذا كله من العادات القبيحة، إن كانت موروثة فهي مخالفة لشرعنا، وإن كانت مستوردة فهي مخالفة لشرعنا، ويجب على الرجال والنساء والأزواج والزوجات والأسر أن يكفوا عن هذه العادات وأن يخرجوها تماماً من نطاق تصرفهم، وأن يعلموا أبنائهم عكسها أي الخلق الصحيح المبني على الستر، لئلا يقعوا فيما حرَّم الله ﷻ عليهم.

دور الأهل تجاه أبنائهم في المرحلة الأولى من الزواج

كنا قد بدأنا الكلام عن الخطوات الأولى في تكوين الأسرة التي ننشدها، لتكون أسرة مثاليةً في مجتمعنا الإسلامي، وفرغنا من الكلام عن الموروثات والعادات القديمة التي يجب أن نزيلها من أذهاننا. والآن ننتقل للحديث عن دور الأهل تجاه الزوجين في الليلة الأولى من زواجهما.

سوف تُفاجأ إن قلت لك: إن الأهل ليس لهم بعد عرس الشاب والفتاة أي شيء على أبنائهما، سوى الزيارة والاطمئنان على حالهما.

فعلى الأمهات واجب أن يعلّمن أبناءهنّ الحياء أولاداً كانوا أم بنات، وعليهن أن يلتزمن حدود ذلك الحياء في علاقاتهم بأبنائهم كذلك عند زواجهم.

فالأمهات تَقُلْنَ الكثير مما نسمعه في معظم بلادنا العربية: «ماذا فعلتما الأمس؟» «كيف كانت ليلتكما؟» «طاب صباحكما»، ـ وفي مصر يسمينها (صباحية مباركة)، ثم ينظرن في لهفة إلى الرجل والمرأة، وهن في رغبة الاستنطاق كالتحقيق... فهذا كله مخالف للحياء. ولا يجوز لمسلم ولا مسلمةٍ أن يفعله؛ لأن ذلك يهدم حياء الرجل والمرأة.

فدور الآباء والأمهات انتهى بتزويج الشاب والفتاة، وأصبح دورهما مقتصراً على النصح إن سئِلوا، والإرشاد إن طُلب منهم الإرشاد، والتوجيه إذا كان هناك خطأ بيّنٌ ظاهر، في الأمور الظاهرة، لا في الأمور الخفية التي تجري بين الزوج وزوجته.

فالأم الفضولية لا تأتي لتسأل عن التوافق ومستوى الامتاع ولكن للاطمئنان على حدوث اللقاء الحميم وليس عن جودته أو مدى تمتع كل منهما بالآخر.

يحتاج بعض الأزواج إلى أسبوع، وربما إلى أكثر، وقد تصل أحياناً المدة إلى شهر حتى يعتاد كلٌ منهما على الآخر، ويعرف كل منهما ما الذي يُمتِع صاحبه، وما الذي يقربه إليه، ثم بعد ذلك تمضي الحياة حلوة، هنيئة، لينة، دون تدخل من أحد.

قرأت كتاباً ترجمته السيدة عزة العشماوي، اسمه: «الرجل من المريخ، والمرأة من الزهرة»، يتحدث فيه الكاتب عن الفروق بين الرجل والمرأة، ويبين أن ما يفهمه الرجل على نحو ما، تفهمه المرأة على نحوٍ آخر. ويضرب مثلاً عجيباً، إذ يقول: إذا أتتك امرأتك بفنجان من القهوة، شكرتها بنقطة؛ لأن فنجان القهوة يساوي عندك نقطة كاملة.

وإذا أتتك بأوراق وأقلام وأنت تكتب، شكرتها بعشرين نقطة؛ لأنك عند الكتابة تكون الأوراق والأقلام هي حياتك التي تعيش فيها. وإذا وجدتك قد قلّت قواك، فطلبت منك أن تتعشى

وأنت جالسٌ مرتاح، كنت مُمتناً لها بخمسين نقطة؛ لأنك فعلاً محتاجٌ للطعام، وقد لاحظت حاجتك إلى ذلك الطعام.

أما المرأة، فأنت إذا أهديتها خاتماً من الألماس أو السوليتير الفخم، ثمنه مثلاً مئة ألف دولار، فهذه نقطة، وإذا أعطيتها كوب ماءٍ وهي عطشى، فهذه أيضاً نقطة. وإذا أهديتها فستان من دور الأزياء الراقية، فهذه أيضاً نقطة واحدة، فكل شيء عند المرأة بنقطة واحدة. وهكذا يحصل التفاوت بين الرجل وزوجته، عندما يجعل بعض الخدمات بنقطة وبعضها الآخر بألف نقطة.

فإذا نسي هذا الرجل أو المرأة الفارق في التكوين الذهني بينه وبين زوجته خيَّمت التعاسة على المنزل.

أما إذا انتبه إليه، وانتبهت المرأة أيضاً إليه، فإنهما يستطيعان أن يستغلا هذا الأمر في إسعاد كلّ منهما للآخر.

ويضرب مؤلف الكتاب مثلاً آخرَ، فيقول: إذا كنت مسافراً أنت وزوجتك، فتوقفتَ في الطريق وعرضتَ عليها فنجان قهوة، فهي لن تفهم من عرضك سوى أنك تحب أن تشرب معها فنجان قهوة بهدوء أثناء سفركما، فإن كانت لا تريد القهوة ستقول لك: شكراً. أما إذا قالت امرأتك لك : هل تحب أن نتوقف ونشرب القهوة؟ فلن تفهم أنت إلا أنها تريد أن تشرب القهوة، فتتوقف عند أول مقهى، وتشربان القهوة. وأنت عندما وقفت لم تفعل شيئاً، بل هي قالت لك: هل تريد أن تشرب القهوة؟ فوقفت، وهي بالتالي لن تحسب ذلك لك نقطة، أما إذا

عرضت عليك هي شرب القهوة، وقع في ظنك أنها وجدتك متعباً وتريد أن ترتاح قليلاً، فسوف تحسب لها عشر نقاط.

ونرجع إلى ما قاله هذا الرجل: أنك إذا لم تدرك الفرق الذهني بين هذين الموقفين، فلن تعيش سعيداً. كذلك الحياة اليومية، وكذلك الحياة الخاصة، وكذلك العلاقة الحميمة... كل من الرجل والمرأة يقدِّرها بطريقته. هذا بطريقته التي من المريخ، وتلك بطريقتها التي من الزهرة. وأنا طبعاً لست ممن يروِّجون لفكرة الكواكب والأبراج، بل أنا ضد هذا تماماً.

ولكنني استمتعت بهذا الكتاب جداً عندما قرأته بالإنكليزية ثم قرأته مترجماً بالعربية، ووجدت فيه حلولاً لكثير من مشاكل الرجال والنساء لو استطاعوا أن يفهموا طبيعة تكوين كل منهم.

وفيه أيضاً الكثير من الحلول لمشاكل الآباء والأمهات إذا عرفوا أن هذه الفروق موجودة من أول لحظة، وأنها تفرض نفسها على العلاقة بين الزوج وزوجته.

فعلى الأمهات أن يتركن أبناءهنّ وبناتهن ليديروا حياتهم وأسرهم الجديدة كما يريدون بطريقتهم لا بطريقة أهلهم، وأن تترك هذه الأسرة الجديدة تنمو في ظل نفسها، لا في ظل الأسرتين الكبيرتين وسيطرتهما وفضولهما الذي قد يكون سخيفاً في أكثر الأحيان، وقد يؤدي أحياناً إلى انهدام الأسرة.

أعرف إحدى الأمهات كانت ترغب في رؤية حفيدها

بأسرع ما يمكن وتستعجل قضاء الله، ولم يكن الله قد قدَّر بين الزوجين هذا الإنجاب بعد، وبعد أن قدره الله وزاد فيه، وبارك، إذا ذكّرها أحد بأيامها الأولى، تضحك في نفسها، لكن هذا الضحك لا يغني من الأمر شيئاً؛ لأن استعجالها وإفصاحها عن انزعاجها من عدم حصول الحمل سريعاً قد ترك أثراً سيئاً في نفس البنت وزوجها، فماذا كان لو أنها أحسنت إليهما في الأيام الأولى، والشهور الأولى من زواجهما.

فنصيحتي لكل أم وأب أن لا يتدخلا في حياة الزوجين أبداً ولاسيما في أيامهما الأولى، وليتركاهما لنفسيهما يعملان ما يريدان، ويستمتعان كما يحبان، وبالطريقة التي يرغبانها.

من العيوب الخطيرة في مجتمعاتنا الإسلامية الملتزمة، أنها تدرِّس الفضيلة، وكيف ينبغي أن تكون العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة بطرق منفّرة لكليهما. وتجعل المرأة تشعر بالإثم، أو الرجل يشعر بالإثم من مجرد تفكيره في مقاربة امرأته المقاربة الجسدية الزوجية الطبيعية للإنجاب، واستمرار النسل بينهما وإشباع حاجاتهما العاطفية من تحقق هذه الصلة.

ونحن إذ نعلّم أبناءنا الفضيلة وحسن الخلق، علينا أن نعلمهم أن هناك حراماً ممنوعاً، وحلالاً واجباً، وليس حلالاً مباحاً فقط.

فينبغي أن نعلم أبناءنا، أن من واجب المرأة أن تُعِف زوجها عن النظر إلى امرأة أخرى، وأن من واجب الرجل أيضاً أن يُعِف امرأته، فلا تنظر إلى غيره. وهذه العفة لا تتحقق إلا

بإشباع كل منهما لرغبات الآخر، إشباعاً حلالاً مباحاً.

ومما ينبغي أن ننبه إليه إخواننا وأخواتنا في البيوت، أن التربية المبالغ فيها إعلاء شأن البعد عن الجنس، والبعد عن العلاقة بين الرجل والمرأة، قد تؤدي إلى نتيجة عكسية وتؤدي أيضاً إلى أضرار بالغة بعلاقة الزوجين وصحتهما النفسية عندما يتزوجان وتصبح هذه العلاقة حقيقة في حياتهما لا يمكن الهروب منها، لكن التوسط في التعليم، بمعنى أن أبيّن له أن الحرام لا يجوز له أن يقربه، وأن الحلال هو واجب عليه وأن لا شيء عليه أو عليها إن هما استمتعا بما أحله الله لهما. فهذه الصلة حق لكل منهما وواجب عليه القيام به لزوجه، وهو الذي يساعد على استمرار الأسرة الفاضلة التي نريدها.

لذلك كله فتدخل الأهل بين الزوجين في أيامهما الأولى يجب أن يكون محدوداً.

دور الأهل تجاه ابنائهم ما بعد المرحلة الأولى من الزواج:

أنا أرى أنه لا يجوز التدخل أصلاً في حياة كلا الزوجين لا بالسؤال، ولا بالتوجيه، ولا بالاقتراح، ولا بتقديم العون إلا إذا طلب الزوجان ذلك، وكانا راغبين فيه. والطلب ليس من الضرورة أن يأتي بعد المشكلة.

فالطلب قد يأتي أحياناً من الزوجين في أمرٍ لا يستطيعان حله، فيلجآن لمن يثقان به من أهل الزوج أو أهل الزوجة،

وكثيراً ما يحدث أن يتدخل الأهل في أمور الزوجين فتفسد العلاقة بين الزوج وزوجته.

وكثيراً ما نسمع أن الزوج يقول لزوجته: لا تذهبي إلى بيت أهلك، أو الزوجة تقول لزوجها: أنا لن أذهب معك إلى بيت أهلك، إذا كنت ترغب في زيارتهم فاذهب وحدك. لماذا؟ لأنها سمعت من أهله ما لا تحب أن تسمع، أو لأنه سمع من أهلها ما لا يحب أن يسمع. فالتدخل المقيت، والتدخل السيىء يؤدي إلى مثل هذا الفتور. أما إذا لجأ الشاب أو الفتاة إلى أهليهما وطلبا المشورة، أو طلبا النصيحة، أو طلبا المعونة، فلا يجب أن يُبخل بها.

والذي نحذر منه ليس التدخل فقط ولكن العبوس وكثرة الانتقاد والتعليقات الخفية عما يكرهون في زوج ابنتهم أو زوجة ابنهم. وهو أن تقحم نفسك وتتدخل في حياة ابنك أو حياة ابنتك، وأن ترى نفسك قيّماً عليهما بعد أن خرجا من بيتك. ولنذهب إلى أبعد من هذا الأمر ونقول: إذا كبر الولد أو البنت في البيت، وأصبحا في سن الزواج ولم يتزوج الولد، أو لم تتزوج الفتاة بعد فإنه ينبغي أن تتغير صورة الرقابة عليهما، وينبغي أن تتغير صورة العلاقة معهما، وينبغي أن يعامل كل منهما كَنَدٍّ، وقرين، لا كطفل ينبغي أن يُسأل أين كنت؟ مع من كنت؟ من كان على الهاتف؟..... هذا كله لا يمكن أن يعامَل به أبناؤنا من شباب أو نساء إذا بلغوا سن التقدير ولم يتزوجوا. لنحن قد أصبحنا في زمن يتأخر فيه سن الزواج بحيث تبقى

الفتاة دون زواج حتى سن الخامسة والعشرين، والثلاثين، وأحياناً الخامسة والثلاثين. فأنت إذا عاملت الفتاة في هذه السن كما كنت تعاملها في سن العاشرة مثلاً أو الثانية عشرة، أفسدت حياتها، وأتعستها، وأفسدت علاقتها بك وبأمها...

وكذلك الحال بالنسبة للشباب، إذ لا يمكنك أن تعامل الشاب الذي أصبح في يده مهنة مثلاً، مثلما كنت تعامله عندما كان طالباً في المدرسة وتسأله باستمرار: متى عدت؟ ومتى نمت؟ ماذا فعلت؟ هذا كله لا يجوز. معاملة الأبناء عند نضوجهم تتغير، مثلما تتغير من طفولتهم إذا أصبحوا شباناً، ومن الفتوة إذا بلغوا مبلغ الرجال.....

كذلك فإن تدخل الآباء أو الأجداد في مسائل الأحفاد مثل قولهم: افعل هذا لابنك، ولا تفعل هذا لذاك، لم تكلمه هكذا؟ ولا تكلمه هكذا، لماذا تفضل هذا على ذاك؟ ولماذا تفضل تلك على هذه؟ هذا كله من أعظم الفساد، والذي يؤدي بالأب والأم إذا كانا صالحين إلى سماع كلام الجد والجدة دائماً، فيفقدان شخصيتهما أمام الأولاد، أو ما يدفعهما إلى الرد أو إلى أن يرد على الجد والجدة، ولا يقبلا منهما، فيفقد الأطفال احترامهم لآبائهم لأنه: كما تدين تدان؛ فهما يفعلان هذا، والأولاد يقلدونهم فلا يسمعون كلام آبائهم وأمهاتهم اللذين علموهم عصيان أوامر الجدود.

فالقضية معقدة تعقيداً شديداً، والحرص فيها واجب، والسير فيها بحذر، وجعل هذه العلاقة قائمة على المحبة بين

هذه الأسرة والأسرتين اللتين انبثقت منهما هذه الأسرة الجديدة أمرٌ ضروري.

وكما أن على الأم والأب تجاه الزوجين واجب، كذلك على الزوجين تجاه الآباء والأمهات واجب. واجبهما أن يضعا حداً لهذا التدخل ولكن بأدب، ولطف، ورقة، وهذا مما يضيق حدود هذا التدخل أو يجعله غير موجود.

وأنا أعلم أن الذي أقوله لا يطيقه إلا من عصم الله تعالى؛ إذ أن كثيراً من الناس يقولون: إن أولادنا وبناتنا امتداداً لما صنعناه. ولعل هذا من فساد العقل، فأنت لم تصنع ابنك، والمرأة لم تصنع ابنتها، وإنما وفقهما الله لأن يساعداهما فيكونا بهذه الصورة. ثم تزوّج الأبناء، وانطلقا بعيداً عنك، ومما لا شك فيه أن لك بهما شأن المحب لمن يحب، والمشفِق لمن يشفق عليه ولكن ليس شأن الوصيّ والقيِّم.

حرية الاختيار:

في أول تجربة لنا في الاختيار الجامعي، ظننت أني بينت لابنتي الكبرى ـ الدكتورة فاطمة ـ المزايا والعيوب لأنواع التخصص التي يمكن أن تختارها، وكانت قد درست في المرحلة الثانوية في القسم الأدبي، وظننت أيضاً أني تركت لها أن تختار ما تحب أن تتخصص فيه من هذه الاختيارات.

وناقشت ذلك مع أمها ـ رحمة الله عليها ـ مناقشة طويلة، في يومٍ لا أنساه كنا مسافرين فيه من الإسكندرية إلى القاهرة،

وقد ظهرت نتيجة الثانوية، وحصلت فاطمة على مجموع درجات لا بأس به، يخولها الدخول إلى ما تشاء من الكليات النظرية. ونحن نناقش الموضوع، أكدت لزوجتي أن ليس لي رغبة معينة، وأن فاطمة هي من ينبغي لها أن تختار ـ فلعلها تختار التاريخ؛ لأنها كانت دائماً تشتري كتب التاريخ وتقرؤها.

وعندما وصلنا إلى القاهرة ذهبت ابنتي واشترت أوراق التقديم للجامعة. وبالمناسبة، لقد عوّدت أولادي بعد المرحلة الابتدائية أن يذهبوا وحدهم ويقدموا أوراق المدرسة، ويأخذوا الطلبات بأنفسهم دون أن يعتمدوا علي في هذا. فكانوا يملؤون الاستمارات تحت إشرافي أو إشراف والدتهم حتى لا يخطئوا، ثم يذهبون إلى المدرسة ويقدمون أوراقهم بأنفسهم، ويدفعون الرسوم بأنفسهم ـ فلما أحضرت فاطمة أوراق التقديم للجامعة وجلست معها، وتأكدْتُ أني وضعتها على مفترق الطرق، ذَهَبَتْ وحدها إلى مكتب التنسيق وقدّمت أوراقها ثم عادت، فقالت لها أمها: ماذا فعلت؟ فقالت: لقد اخترت الحقوق.

وكان اختيارها بالنسبة لي أشبه بالصدمة؛ لأن آخر ما كنت أفكر فيه أن تختار ابنتي الحقوق، إذ أنها لم تكن تحب القانون، وكنت إذا أبديت رأيي في بعض القضايا القانونية لم تعرني أذناً صاغية. . . ولعله قد بدت على وجهي علامات الاستغراب، فجاءتني وقالت: يا أبت، لقد اخترت الحقوق حتى أرضيك، وأنت كنت دائماً تتمنى بأن أدخل كلية الحقوق، فأنت لا تكلمنا إلا في القضايا، والقانون، فقلت لها: على بركة الله، ولم أقل

شيئاً آخر، وبعد ذلك، انتقلنا أنا وأمها في مكان آخر. فقالت لي: أرأيت؟ هذه هي نتيجة طريقة حديثك مع الأولاد، أرأيت؟

ودخلت كلية الحقوق، وأكملت دراستها، وحصلت على الدكتوراه، وهي متميزة في علمها والحمد لله، وكذلك في عملها، لكنها كانت بالنسبة لي تجربة قاسية جداً. فحاولت أن أستدرك ذلك مع البنت الثانية ـ وهي الدكتورة سلوى ـ فأبعدت نفسي عن أن أبين لها ما حاولت أن أبينه لأختها الكبرى من مزايا الكليات وعيوبها أو كففت عن الحديث معها عن القانون.

فاختارت أن تدرس في القسم العلمي، ودرست فيه. وفي يوم امتحان اللغة الإنكليزية في السنة النهائية من المرحلة الثانوية، وبينما كنت ذاهباً للصلاة، خرجت ورائي وقبلتني، وقالت: يا أبي، ادع لنا غداً فعندنا امتحان في اللغة الإنكليزية. فقبلتها، وقلت لها: إن شاء الله تأتي بمجموع يخولك دخول كلية الطب أو الهندسة أو الصيدلة ـ فإن هذا عادة طموح طلاب القسم العلمي ـ فوقفت على باب البيت، وقالت: يا أبي، أنت لا تعرف أني سأدخل كلية الآداب، قسم اللغة العربية؟ فأنا أحب أن أتخصص في اللغة العربية، والدراسات القرآنية، فقلت لها: كلية الآداب، قسم اللغة العربية؟ لكن أنت في القسم العلمي! قالت: لقد درست في القسم العلمي لأني لا أحب مادة الجغرافيا.

فقلت لها: ودرست مادة الأحياء، والفيزياء، والكيمياء،

وتعبت كل هذا التعب، حتى تتركي الجغرافيا؟ الجغرافيا سهلة، وكنت لأشرحها لك في ساعة في كل أسبوع وأخفيت سبب هذا الاختيار عنا؟!.

فقالت: إن أمي تعرف أني درست في القسم العلمي لأهرب من الجغرافيا.

فذهبت إلى الصلاة، وعندما عدت، سألت أمها عن ذلك، فقالت: نعم، فقلت لها: لِمَ لم تخبريني؟ قالت: نحن ربينا الأولاد على الاستقلال، وهي من اختارت دخول القسم العلمي وكلية الآداب.

ودخلت كلية الآداب، قسم اللغة العربية، وتفوقت، وكانت من أوائل دفعتها، وعينت في الجامعة مُعيدة، ثم مدرسة، ثم حصلت على الدكتوراه من بريطانيا في اللغة العربية والدراسات القرآنية.

والولد الأكبر ـ أحمد ـ عرف طريقه مبكراً جداً، أظن منذ السنة الأولى من المرحلة الإعدادية، وقد قرر أن يدرس الصيدلة؛ لأن بلادنا تنقصها صناعة الدواء، وحقق لنفسه ما أراد، ودخل كلية الصيدلة، وعيِّن معيداً، وهو الآن يدرس الدكتوراه في بريطانيا.

دور الأهل في تعليم أولادهم حسن التصرف والاختيار

ونكمل الحديث عن اختيارات الأولاد، ومدى إعطاء الحرية لهم، وكيفية التعامل معهم، وخاصة عندما ينتقلون إلى بيوت الزوجية، ونحن في حديثنا عن الخطوات الأولى للأسرة المسلمة التي ننشدها، أسرة مثالية تُبنى على الدين والخلق.

حرية الاختيار عنصر هام في تربية الأولاد، فأنت إذا ربّيتهم على الاستقلال من صغرهم، وعلمتهم الاهتمام بشؤونهم بأنفسهم، وأبقيت عينيك عليهم من بعيد، بحيث تشعر بما يجري، وتراقب ما يحصل، وتتأكد أن الذي يجري هو في إطار الصواب وليس الخطأ، تجعلهم قادرين عندما يكبرون على اتخاذ القرارات.

سأخبركم عن قصة ـ أثرت في نفسي كثيراً ـ حدثت مع ابني أحمد عندما كان يدرس في السنة الجامعية الثالثة حين سألته زوجتي ـ خالته كما ينادونها ـ عن نوع من أنواع السيارات، ومَن مِن الشباب في سنه لا يعرف بالسيارات؟ فقال لها: لا خبرة لي في هذا الموضوع، فأنا الآن أفكر فقط في الكيمياء، والدرج المخصص للسيارات في ذهني مغلق الآن،

ولا أفكر في السيارات وأنواعها ولن أفكر بها إلا عند الحصول على رخصة قيادة.

فجاءت زوجتي وهي تضحك، فقلت لها: ما بك؟ قالت: ابنك أحمد لديه أدراج في عقله، درج للسيارات، ودرج للصداقات، ودرج للكيمياء، ودرج للطبيعة... وهو لا يفتح الدرج إلا في موعده.

فإذا استطاع ابنك أو ابنتك أن ينظم حياته على هذا النحو، تكون قد بلغت غايتك، وليس لك عليه بعد ذلك من سلطان؛ لأنه يعرف ما يريد وماذا يفعل ليصل إلى غايته. وعلى كل أب أو كل أم أن تربي أبناءها على هذه الاستقلالية منذ الصغر، مثلاً أن تقول لابنك: كُلْ هذا... فيقول: لا، أنا لن آكل هذا... فتجيبه إذا لم تأكل من هذا فلن تأكل شيئاً آخر... لماذا؟ لو أنك قلت له: كُلْ قليلاً من هذا، ثم كُلْ ما شئت. سوف يتقبل الطفل ذلك ويحبه، ويكون الأب أو الأم في الوقت نفسه قد حدد الهدف المنشود من تعليم الأبناء حسن التصرف والاختيار.

أما أن تفرض عليه أن يأكل الطعام الذي تريد أن يأكله، ولو كان مفيداً أو مغذياً أو نافعاً، فهذا لن ينفع. بل ينبغي أن تعلمه التوازن، بأن تنصحه مثلاً أن يأكل مما تختاره له لأنه مفيد، ويأكل مما يحبه لأن نفسه اشتهته. فبذلك أنت تعلمه الموازنة، وتعلمه كيف يتخذ قراراً معقولاً، بدلاً من أن يكون عنيداً أو غبياً، أو مغلق الذهن، أو كما كان بعض أصدقائي

يقول: يضع على رأسه قفلين، فسألته مرة: ولماذا قفلين؟ فقال لي: قفل لئلا يسمع، وقفل لئلا يتصرف. لذا بدلاً من أن يضع على رأسه قفلين، دعه ينفتح على الحياة ليتعلم كيف يدير شؤون حياته بنفسه فأنت وأمه لن تعيشا له للأبد فهناك يوم لا بد منه سيحتاج ولدك أن يدير شؤون حياته فاعمل ليكون ابنك وابنتك مستعدين لذلك اليوم.

وهذه الحرية في التصرف والاختيار ينبغي أن تكون مرة في اللعب، ومرة في الأكل، ومرة في الخروج، ومرة في زيارة الأقارب، ومرة في أداء الواجب نحو الضيوف... لأن هذه الأمور مجتمعة ستنشىء حتماً إنساناً سوياً. أما إذا تركنا أولادنا، دون أن نعلمهم شيئاً، ودون أن نسقيهم هذه المعاني الجميلة فإنهم لن يشعروا بها على امتداد حياتهم وفجأة سنجد أن الفتى أصبح رجلاً، أو البنت أصبحت فتاة، وهما لا يعرفان شيئاً من واجبات المجتمع، أو أصول الحياة، أو القدرة على اتخاذ القرار، فتأتي بعدها وتسأل نفسك: لماذا؟ كل ذلك لم يأتِ هباء، بل جاء نتيجة تقصيرك، وعدم تعليمك إياهم.

وأنت بذلك تكون عودت نفسك أن تقلل من سلطانك عليهم يوماً بعد يوم؛ لأنهم يكتسبون سلطانهم على أنفسهم، ويعرفون كيف يتخذون قراراتهم بأنفسهم، باتقاء مهالك السوء وعواقب الفساد، فعندما يكبرون ويستقلون أو يتزوجون لن نحتاج إلى التدخل لتوجيههم.

أما إذا كنت مقصراً في البداية، فسيبقى أثر هذا التقصير على حياة أبنائك حتى النهاية.

التربية منذ الأشهر الأولى:

لعل التربية تبدأ من لحظة الحمل الأولى، من لحظة استقرار الجنين في رحم أمه. فمنذ ذلك الوقت ينبغي على الأم أن لا تكون عصبية، وألا تكون حادة الطباع، وألا تكون سريعة التأثر بما يقع حولها، وأن تعطي نفسها قسطاً كبيراً من الراحة، لأنها بهذه الراحة تعطي الطفل طمأنينة؛ لأن كل مشاعرها تنتقل إلى جنينها، عبر ما يتلقاه منها من مشاعر وانفعالات.

فالتربية لا تبدأ بعد سن السابعة، أو العاشرة، بل تبدأ منذ بداية تكوين هذا الجنين.

وعندما يبصر الطفل النور يجب على كل من الأب والأم أن يعامل هذا الطفل الصغير معاملتين: معاملة التدليل والرحمة والمحبة التي تشعره بالطمأنينة، ومعاملة الإنسان العاقل الذي ينبغي أن يعرف كل شيء.

ذات يوم قلت لمستشار في القضاء ـ وهو في منزلة أبنائي ـ: إذا عدت من عملك، وخلعت عنك ملابسك، وارتحت قليلاً، وكان رضيعك هذا مستيقظاً فخذه بين يديك، وقل له: يا فلان، تعال أحكي لك ماذا فعلت اليوم، كان عندي قضية كذا وكذا وكذا. . . . حضر المحامي الفلاني، وهو محامٍ ممتاز، أو وهو محامٍ فاشل، و. . . . .

احكِ له القصة، وقل له ماذا حصل من قيل وقال، وبماذا رد عليك هذا... وانظر إلى عيني ابنك وأنت تحكي له كلّ هذا.

ولما ذكرت له هذا أول مرة، قال لي: فعلاً سأفعل هذا، ولكني كنت أرى هزءاً في عينيه ـ بمعنى: ما هذا الذي يقوله الدكتور محمد؟ كيف سأحدث طفلاً رضيعاً ابن ثلاثة أشهر؟ـ

وبعد فترة جاء، وقال لي: هناك شيء غريب، قلت: وما هو؟ قال: وأنا أمسك بابني وأُدَلِّلُهِ التدليل المعتاد، وأصدر له الأصوات، يصرخ، أو يبكي، أو يضحك حسب أحواله. ولكن عندما أجلس به على الكرسي، وأضعه بين يديّ، وأتحدث معه بجدية، عما جرى في المحكمة، فإذا به ينتبه إليّ كما لو كان يشاهد فيلماً سينمائياً، ولا يصدر أي صوت، وإذا قمت بحركة في يديّ قابلها بحركة سريعة بيديه ثم يكررها بشكل ثابت، كأنه يريد أن يسمع ما أقول، فيا ترى، هل هو فعلاً يسمع ما أقول؟

فقلت له: نعم إنه يسمع، ويخزّن، ويستوعب. طبعاً لا يفهم ما تقوله في القانون، أو ما تقوله عن المحامي، أو ما حكمت به في هذه القضية، لكنه يفهم أن في الحياة جانبٌ جادّ، ينبغي أن يُعطى اهتماماً، وأن يُنصِت إليه بجدية، وأن ينظر في عينيّ محدثه، وينظر محدّثه بعينيه، فيتعلم الجدية في الحياة.

ثم أنت تلاعبه في أوقات أخرى، فيدرك أن هناك فرقاً بين لحظة اللعب ولحظة الجد.

فإذا وجد أنه يجدّ في وقت اللعب، أو يلعب في وقت الجد، أنّبته نفسه، وعاد فوراً لما كان يقوم به.

فأنا أرى أن التربية تبدأ من هذه الأيام. من اللحظات الأولى للحمل، وليس بعد خمس سنوات.

يقول بعض خبراء التربية: «إن التربية عند سن الخامسة متعلقة بالتعبير اللغوي واستعداد الطفل لتراكم المخزون اللغوي عنده، ثم إعادة استعماله، ولكن هذا خطأ.

فإعادة استرداد المخزون اللغوي قد تكتمل عند سن الخامسة، ولكن هناك أطفال يستعملون مخزونهم اللغوي وهم أبناء سنتين، وهناك أطفال يستعملونه وهم أبناء ثلاث سنوات. وهناك أطفال أبناء أربع سنوات بُلَغاء، يتكلمون كلاماً فصيحاً، مفهماً».

عندما كنت أعِد كتاب «تفسير النصوص الجنائية»، كان عمر ابنتي ـ سلوى ـ حينها أربع سنوات، وجاء أحد أساتذتي ـ وكان مستشاراً ـ ليزورني. فقال لها: أبوك جالس على المكتب، فماذا يفعل؟ فقالت له: يكتب عن القانون الجنائي، فسألها: وماذا يعني القانون الجنائي؟ قالت: القانون الذي يُدخل الناس إلى السجن، حتى يتأدبوا إذا أخطأوا، فقال لها: وما أعلمك أن السجن يؤدّب؟ قالت: يا عم لماذا سيصنعون السجن؟ حتى يدخله المخطىء فيتعلم قليلاً ثم يخرج. وأنا والله، لم أكن قد قصصت هذا عليها، ولم يسبق لي أن حدثتها بمثل هذا الكلام، هي فقط استوعبته مما سمعته في البيت مرات عديدة، وأنا أتناقش مع زملائي المحامين أو القضاة، أو طلابي في العلم الذين يأتونني، فاستوعبت ما لا

أعرف أنها استوعبته، وأخرجت ما لا أظن أنها ستخرجه. فأهديت كتاب تفسير النصوص الجنائية إليها.

فأنت إذا ربيت أبناءك على هذا النحو، باهتمام وإتقان، منذ نعومة الأظفار، ومنذ الميلاد، بل من قبله، فسوف ترى نتائج مختلفة جداً. أما إذا انتظرت حتى يصبح عمر الولد خمس سنوات، فسيأخذ وقتاً طويلاً وشاقاً حتى يكوِّن فكراً، ويصبح له عادات: يصرخ فيُسمع لصراخه، ويبكي فنهلع لبكائه، وعندها يصبح من الصعب إعادة تكوينه فيما بعد.

قال لي أحد الأطفال، وهو ابن ثماني أو تسع سنوات: أبي يحسن التربية كثيراً، فضحكت وقلت له: كل الآباء يحسنون التربية، فأجاب: لا، صديقي فلان، أبوه يضربه بالكرباج إذا أخطأ، أما أبي، فمهما أخطأنا لا يفعل لنا شيئاً إلا أنه ينبهنا، فهذه تربية حسنة. فقلت له: لم؟ وإذا ضربك أبوك فماذا يعني هذا؟ فقال لي: إذا ضربني أخاف، وإذا كنت خائفاً لا أستطيع أن أفعل شيئاً. هذا الأب، أورث هذا المعنى لابنه وهو ابن ثماني أو تسع سنوات، أنا أربيه فألاعبه، وأصاحبه في وقت واحد. أربيه وهو صغير، وأصاحبه وهو صغير، وألاعبه وهو صغير، فينشأ متكاملاً مستقلاً.

أطفالنا والخدم:

تقع الطامَّة الكبرى عندما نكِل أولادنا إلى الخدم، فهذا

منتهى الأنانية من قبل الأب والأم وخاصة في مقتبل حياتهما الأسرية.

وأنا أظن ظناً قاطعاً، أن هذا الأمر كارثة أصابت مجتمعاتنا في الآونة الأخيرة، وأقول في الآونة الأخيرة؛ لأنه فيما مضى كانت الأم تقوم بجميع أعمال المنزل وحدها أو بمساعدة أحد ما، إلا أن هؤلاء كانوا يعاملون معاملة أفراد الأسرة، فكانوا يطعَمون مع الأسرة، ويجلسون لسماع الراديو معها. وإذا خرجت الأسرة، فهم يخرجون معها للزيارة، وإذا كان هناك فرح أو مناسبة اجتماعية فهم في قلب هذه المناسبة... فهم جزء من البناء الأسري المتكامل، ولكل منهم كلمة مسموعة ورأي معتبر في شؤون البيت.

أذكر فتاة كانت تعمل في بيتنا ونحن صغار، وكنت إذا أردت أن أرتدي قميصاً معيناً، تقول لي: لا استعمل القميص الآخر؛ لأنه مغسول قبله. فعلمتني أن أستعمل قمصاني حتى اليوم بترتيب غسلها. وهذه الفتاة لم تكن تحسن القراءة ولا الكتابة، وقد تزوجت وأنجبت ثم ماتت ـ رحمة الله عليها ـ ولم يكن أي منّا يشعر بأن لها مكانة أقل من مكانته في المنزل.

والكارثة التي وقعت في الأيام الأخيرة، أننا نترك بناتنا وأولادنا للخدم ونحن نحتقرهم، ولا نعاملهم على أنهم أفراد من الأسرة أو آدميون لهم حقوق الآدميين.

الطفل عندها يعيش في تناقض لأن هذه التي تربيه تتعرض للسخط والإيذاء بالقول، وانتهاك البدن من قبل الأبوين أو

أحدهما، وفي الوقت نفسه، هي مسؤولة عنه. يتساءل بلا رد شافٍ فكيف تكون هذه مسؤولة عنه وهي لا مكانة لها.

فالكارثة ذات شقين: الشق الأول: أننا أصبحنا نعامل خَدَمنا معاملة قبيحة سيئة على خلاف ما قاله الرسول ﷺ: «**هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**»[1].

وإخوانكم يعني الرقيق الذين في بيوتكم. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، وليعنه إذا أرهقه بالأعمال، للأسف هذه المعاملة الكريمة انتهت أو كادت تنتهي.

ثم إنه في الماضي لم يكن الاعتماد التام في التربية على الخدم؛ بل كان الاعتماد عليهم فيما يقومون به من المساعدة المنزلية، أما التربية فكانت كلها للأمهات.

الشق الثاني للكارثة أن الاعتماد عليهم الآن في التربية أصبح اعتماداً كلياً، وسقط الاحترام، وسقطت التربية في البيوت؛ بل وصل بنا الحال لأسوء من ذلك، وهو: الخدم المستقدمون من بلاد أجنبية من أوروبا أو آسيا أو أفريقيا. يأتون بعاداتهم ولغاتهم، وإذا تعلموا العربية فبلكنة ألسنتهم، فيخرج الولد أعجمي اللسان، لا يستطيع أن يعبر التعبير الدقيق الذي

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 4289).

يمكن أن يتعلمه من أمه وأبيه، أي باللغة العربية الفصيحة أو على الأقل بلهجة أهل بلده.

وينشأ الأبناء غريبي العادات والأعراف؛ لأنهم تعلموها من هذه الخادمة التي أتت من الفيليبين، أو من إندونيسيا، أو من ماليزيا، أو الحبشة، أو من غيرها من البلدان.

وقد رأيت في بعض الأسر شديدة الغنى، خادمات من أوروبا، ولاسيما من أوروبا الشرقية، وهذه أتت بعادات أسوأ من العادات التي أتت بها الفيليبينية المسلمة، أو الماليزية المسلمة أو السودانية المسلمة، أو حتى المصرية المسلمة، التي تحتفظ ببعض القيم الدينية المحترمة. فتلك الأوروبية الشرقية، أو الأوروبية عموماً لا تملك شيئاً من قيمنا الدينية أو الاجتماعية أبداً، والناس يكلون إليها أبناءهم لتربيهم.

وقد رأيت بعض هؤلاء الأوروبيات، يعملن وكأنهن أصحاب المنزل، وأصحاب المنزل كأنهم خدم لهن، لا المرأة صاحبة المنزل لها كلمة على هذه الفتاة الأجنبية، ولا حتى الرجل له كلمة عليها، فهي التي تدير شؤون المنزل من أوله لآخره. فكيف ينشأ الطفل نشأةً سويةً وهو يرى أباه وأمه يستمعان لتعليمات هذه الخادمة الأجنبية؟!

إن مسألة ترك الأولاد تحت إشراف الخادمة كارثة حقيقية علينا تفاديها، فإذا احتجنا للمساعدة في المنزل، فلتكن هذه المساعدة على طريقتنا الأولى، طريقة من هو أخونا وتحت

أيدينا، أخونا بحيث يكون له ما لنا، وعليه ما علينا، ويحترم كما يُحترم الإنسان، وتؤدّى حقوقه كما تؤدّى لنا حقوقنا، ويعامل المعاملة الكريمة الواجبة.

أما شأن التربية اليومية؛ بل اللحظية الذي تتم في كل لحظة في المنزل، فهذا شأن لا ينبغي أن تقوم به غير الأم. وإذا اضطرت الأم إلى ترك ابنها مع جدته أو عمته أو خالته، فهذه حنانها قريب من حنان الأم، وحبها قريب من حب الأم، وتقاليدها لن تكون غريبة مئة في المئة عن تقاليد الأم.

وعندئذٍ تكون التربية منتجة ومفيدة، أما أن يُترَكَ لامرأة من بلدٍ آخر، ثقافتها مختلفة، ودينها مختلف، وذات مستوى اجتماعي مختلف تماماً حتى لو كانت من بلد الأم نفسها، ستكون مغبة هذه التربية سيئة جداً.

الخلود والإنجاب

هناك نوع من العلاقات الإنسانية بين الآباء والأبناء، إذ يقال: إن الابن بعض أبيه وهذا هو أول ما يدركه الأب من الابن، ويراه من الدلائل على إمكان الخلود غير المباشر في هذه الحياة. وقد يرى البعض أن الإنجاب هو خلود للأبوين. ولا يتطلع الأبوان دائماً إلى أن يكون الأولاد نسخة طبق الأصل منهم.

والخلود في هذه الدنيا غير ممكن كما نعرف كلنا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: 34]، هذا حديث القرآن الكريم للنبيّ ﷺ.

فالمسلم بدينه يعرف أن الخلود غير ممكن.

إلا أن فكرة الخلود سيطرت على فكر الإنسان منذ أن وُجد على الأرض. وتمثلت بعد استقرار الأديان، واستقرار معنى الفناء في النفس الإنسانية، في الرضا بالقليل من الخلود. وذلك بأن يكون له ولد، وزوجة، وذرية سواء من الإناث أو الذكور؛ لأن الإنجاب يشعره بأنه مستمر في هذه الحياة، في أولاده وأحفاده ثم هكذا إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

ونقرأ في كثير من كتبنا، فلان كان له ولد كذا كذا، ثم

انقطع عَقِبه، يعني: لم يكن له من أحفاده من يحمل اسم هذه العائلة وتراثها.

أعرف بعض مشايخنا ممن كانوا إذا وقفوا عند ترجمة عالم وكان قد انقطع عَقِبه، يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. كرر هذا، فتجرأت وسألته، فقال لي: يا بني، من منّا يحب أن ينقطع عقبه؟ كلنا لا يحب أن ينقطع عَقِبه إلى يوم القيامة. ثم سكت قليلاً، وقال لي: لعله يبقى منهم صالحٌ بعد صالح بعد صالح، فيستمر دعاؤهم لنا. فوجدت هذا المعنى جميلاً، معنى الرغبة في استمرار الدعاء للأبوين، التي هي الصورة الأخرى للرغبة في الخلود.

فالأب إذا أنجب، يرى نفسه أنه والحمد لله مستمر، وإذا جاءه الأحفاد تأكد استمراره، وإذا عاش حتى رأى أولاد أحفاده، وكثيراً ما يعيش الناس ليروا أبناء أحفادهم، فكأنه ضَمِن الخلود الحقيقي.

وهنا تأتي المشكلة، أو كما يقول إخواننا المغاربة: الإشكالية. هو منته لا محالة، ونسله مستمر بعده أمداً، أياً كان هذا الأمد، فكيف يتأكد من استمرار وجوده في نسله؟

فيحاول الأب أن يتأكد من استمرار ذاته في أبنائه بأن يجعلهم نسخة منه أو نسخاً إن كانوا كثيرين.

بعض الآباء يحاول أن يصنع في أبنائه ما عجز هو عن صنعه. مثلاً: أراد أن يدرس الطب، فعجز؛ لأن ظروفه لم

تسمح له، أو مجموعه الدراسي لم يسمح له. فيقهر أولاده، أو يقهر من يستطيع قهره منهم حتى يدرس الطب، ويحقق له الرغبة القديمة التي كان يتمناها. أعرف ولداً فُعِل به هذا، فدرس الطب، وتخرج بتقديرٍ جيد، ويوم أن تخرج من كليته برتبته الممتازة، وحصل على رخصة مزاولة المهنة، فاجأ أبويه بأنه سيسافر إلى الولايات المتحدة الأميركية، ليدرس الموسيقى.

فجُنَّ جنون الأبوين، وقالا: أنفقنا عليك سبع سنوات في دراسة الطب، وتخرّجت بتقدير رائع....... ! فقال لوالده: والله أنا درست الطب من أجل تحقيق رغبتك التي لم تستطع أن تحققها أنت إلا من خلالي وها أنا قد حققت لك أمَلَك، وليس لك الآن عندي شيء.

وبالفعل، فقد ذهب إلى أميركا ودرس الموسيقى لمدة سبع سنوات، وحصل على شهادات عليا فيها، وعاد، واشتغل بما يسَّره الله له، فلا اشتغل بالطب، ولا اشتغل بالموسيقى.

وتتجسد هذه القصة أمامي كلما رأيتُ أباً يحاول أن يقهر أولاده على دراسة معينة.

عقدة التسمية:

كثيراً ما نسمع أن الأب يريد أن يسمي ولده أو ابنته على اسم والده أو والدته، وربما ينشأ خلاف بين هذين الزوجين حديثي العهد بالزواج حول تسمية أبناءهم.

وقد رأيت هذه المشكلة موجودة في عائلتنا لأن أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان اسمه: سليم، وجده اسمه: عبد الله، وأبو جده اسمه: سليم، وأبو جد جده اسمه: عبد الله، فالأسماء في عائلتنا سلسلة من: سليم، عبد الله، سليم، عبد الله.

وأبي سمى ابنه الكبير، ـ أي شقيقي الأكبر ـ: عبد الله، إلا أن عبد الله لم ينجب ذكوراً؛ بل أنجب ابنتين اثنتين، ولم يعد هناك سليم. وأخي هو الأصغر منه عبد الرحمن سمى أولاده أسماء عادية مختلفة؛ لأن اسم سليم هذا ليس من دوره ولا من حقه، بل هو من حق الكبير، فسمى: محمداً وخالداً وهبة. فلما أنجب محمد ولداً، أصرَّ عليه والده أن يسمي سليم لكي تعود السلسلة. فقلت له: إن السلسلة لن تعود؛ لأن سليم محمد عبد الرحمٰن، مختلف عن: سليم عبد الله، سليم عبد الله، سليم عبد الله.. التي مضت فيكم.

إذن فالقصة تبدأ من التسمية، حين يريد الأب أن يسمي باسم أبيه، وكان أباه قد استمر، ويمضي هذا الأمر حتى ينقطع، كما حدث في أسرتنا وانقطع.

لكن أبي كان له تجربة أخرى في تسميتي أنا، فهو يريد أن يسميني: عبد الله، أو عبد الرزاق، أو عبد القادر، اسم من الأسماء التي فيها عبودية لله تعالى.

وكانت أمي تقول له: سميتَ الأول عبد الله، وسميت الثاني: عبد الرحمٰن، فدع لي هذا أسميه: محمداً. واختلفا اختلافاً كبيراً فهو يريد أن يسميني اسم من أسماء عباد الله، وهي

تريد أن تسميني محمداً؛ لأنها تريد أن يكون اسم واحد من أولادها محمد.

فلما طال الخلاف ولم يسمّيا بعد في شهادة الميلاد، سمياني: محمد عبد الله، فأنا الوحيد من إخوتي الذي له اسم مركَّب.

فلما كبرت وعملت في النيابة العامة في مصر، وكان في مرحلة ما من مراحل اختصاص نيابة الأحوال الشخصية، حين كنت وكيلاً للنائب العام، أن تُغيِّر الأسماء، قلت لأبي: أنا فقط من بين إخوتي اسمي مركب وحدي اسمي محمد عبد الله، فأنت أضفت إلى اسمي اسم جدي، فأصبح اسمي خماسياً: محمد عبد الله سليم عبد الله العوّا، وكل إخوتي وأخواتي اسماؤهم: فلان سليم العوّا، عبد الله سليم، عبد الرحمٰن سليم، فاتن سليم، فلماذا خصصت لي هذا الاسم؟ سأغير اسمي، ليصبح: محمد سليم العوّا.

وكان هذا التغيير ليحدث بقرار بسيط يصدره زملائي في المكتب نفسه الذي أجلس فيه، فلم يقبل أبي هذا أبداً، وأبى إباءً شديداً أن أغير شيئاً من اسمي، وقال لي: لكل مسمىً نصيب من اسمه، وأنا أريد أن يبقى اسمك كما هو: محمد عبد الله ولا تغيره، فامتثلت لأمره ولم أغيره. ولا أعرف حتى الآن ما هو نصيبي من اسمي! لكنه قرر أن يبقى هذا الاسم لي، لكي أتخلق بأخلاق العبودية والأخلاق المحمدية، وأرجو أن أكون قد صنعت شيئاً من هذا، أو وُفِّقت لشيءٍ من ذلك. لكن

للآباء في التسمية عجائب وغرائب كثيرة جداً، وكلها مرتبطة بفكرة الخلود التي تبقى في الذهن أو في خلفية العقل. كأن يَظُنُّ ظان أني إذا فعلت هذا، فقد مكنت لنفسي خلوداً بطريقة غير مباشرة.

لكن لا يتحقق الأمل دائماً، لأن: كثيراً من الأولاد يتمردون فلا يقبلون أن يكونوا نسخاً من آبائهم. بل إن بعض الأبناء يتعمَّدون أن يخالفوا مسلك آبائهم وطريقتهم في الحياة، حتى لا يكونوا مثلهم؛ لأنهم كرهوا ما أريد إكراههم عليه وهم صغار. وبعض الأبناء، يبدو أنه يريد أن يفعل ما يطلب منه الأب أو الأم، أو الأبوين معاً، ثم بعد قليل تراه وقد انحرف عن طلبهما مئة وثمانين درجة؛ لأنه خرج عن سلطانهما، وأصبح بعيداً عنهما.

فمحاولة الأب فرض شخصيته على الابن،أو فرض تصوره لما يجب أن يكون الإنسان الخلوق عليه، هذه المحاولة تبوء في معظم الأحيان بالإخفاق وعدم التوفيق؛ لأن الإنسان مخلوق حر، والله تبارك وتعالى خلق الإنسان حراً، ولو لم يكن خلقه حراً، لما ابتلاه بالأمر الرباني في الجنة، في مسألة الشجرة، إذ أجلسهما في الجنة، ونهاهما عن أكل تلكما الشجرة، فوسوس لهما الشيطان، فعصى آدم ربه فغوى.

وكل إنسان مفطور على حرية الاختيار فهذه خلقة الله. وإذا أردت أن تقهره أبى إما علانية وإما سراً. والإباء العلني

أفضل من الإباء السري؛ لأن الإباء السري قد يجر إلى الفساد، أما الإباء العلني فيمكن أن يكون محل أخذ وردّ.

وأنا أنصح إخواني الآباء، وأخواتي الأمهات، ألا يقعوا في مثل هذا الأمر أبداً ـ أمر محاولة جَعل الابن نموذج لما كان عليه الأب، أو نسخة لما كان عليه الأب ـ لأن هذه المحاولة لا تؤدي إلا إلى تمرد الابن أو انسحاق شخصيته أو بتعاسته لعدم قدرته على تحقيق ما يريده هو لنفسه، فلكل إنسان طموح يعمل جاهداً من أجل أن يحققه لنفسه.

الخلاف على التسمية:

كما ذكرنا سابقاً: إن هذه المحاولة للخلود تبدأ بتسمية المولود على اسم الوالد أو على اسم الوالدة. وكم من أسر تزعزعت علاقتهما؛ لأن الزوجة رفضت تسمية مولودتها على اسم والدة الزوج والعكس. وهذا يحدث للأسف في مجتمعاتنا، وقد سمعت مرة من كانت تقول لزوجها بعد أربعين سنة من إنجابها: أنا لن أنسى لك أنك لم تسمح لي بتسمية المولودة على اسم أمي. أو هو يقول لها: أنا لن أنسى أنك لم تقبلي أن تسمي مولودنا على اسم أبي.

التسمية وبر الوالدين:

قد يرى البعض أن التسمية على اسم الوالدين نوعٌ من البر وأنا أعتقد أنه ليس فيه شيء من البرّ أبداً، وأن البرّ الصحيح هو

أن يترك الزوج لزوجته أمر تسمية أبنائها. وما دامت عاقلة متزنة، ولن تسميه خنفساً، ولا ثعباناً ولا اسماً سيئاً، فليترك اختيار الاسم للأم؛ لأن هذا أقل ما تكافأ به هذه التي حملت ووضعت وهناً على وهن، ورضّعت وهناً على وهن، وتعبت تعباً شديداً في أدنى الحمل والوضع والولادة والإرضاع، فأقلّ ما تكافأ به أن تكون التسمية من حقها.

وقد رزقني الله خمس بنين وبنات، كلهم سمتهم أمهم ولم أسمِّ واحداً منهم. وأذكر في فترة مرضها ـ رحمها الله ـ أنها ذكرت لي ذلك مرة أو أكثر بما يشبه الرضا والسعادة والامتنان؛ لأني تركت لها تسمية الأولاد كلهم.

وكنت دائماً أقول لها: أنا أدعو الأزواج كافة أن يَدَعوا لزوجاتهم مسألة اختيار أسماء أولادهنّ بأنفسهن فالأولى بي فعل هذا معك.

وهذا الترك هو أقل اعتراف بالجميل للمرأة، وبالمقابل ستعطيك هي اعترافاً دائماً بجميلك عليها؛ لأنك تركتها تسمي أبناءكم.

وكانت زوجتي كلما افترضَت اسماً قبلته منها. وفي إحدى المرات ترددت في تسمية أحد الأولاد فاقترحَت اسماً، ثم اقترحت اسماً آخر، ثم ثالثاً، وعند الاسم الثالث قالت لي: ما بك؟ كلما قلت لك اسماً، وافقت! فقلت لها: كل هذه الأسماء التي ذكرتها جيدة وطيبة، وأنا أحبها، ولا بأس عندي أن تسمي بأي منها. فقالت لي: ولكن أريد أن أعرف رأيك، فقلت لها: الاسم الذي ستستقرين عليه هو رأيي.

الأمر هيِّن جداً، وأقل من أن تنتطح فيه عنزتان كما في الحديث الصحيح. فكلما كان الرجل لطيفاً في تعامله مع زوجته، وكلما كان مدركاً مدى حساسية هذا الموضوع بالنسبة إليها، كلما استطاعا معاً أن يصلا إلى تسميةٍ حلوة، تعبر عن حبهما لبعضهما ولابنهما، واعتنائهما به. لكن كلما أصر أحدهما أن يفرض رأيه، وأن يقرر ما يريد، مثل ديكتاتور لا يجوز أن يُخَالفَ رأيه، كلما كانت المسألة أضيع وأفسد.

حقوق الابن على والديه:

في سُنة رسول الله ﷺ الكثير من العبر التي يمكن أن نتخذها نبراساً لنا، وخاصة أننا نعلم أن من حق الابن على والده أن يختار له الاسم الحسن، وليس فقط الاسم، بل والتربية أيضاً، والأم الصالحة، وإلى ما هنالك من أمور.

فالنبيّ ﷺ سمى أبناءه كلهم بأحسن الأسماء، كما غيّر أسماء أصحابه السيئة إلى أسماءٍ حسنة. وكان يأمر بإحسان التسمية، هذا جانب.

أما الجانب الثاني فهو تلك القصة المشهورة، وهي أن رجلاً جاء عمر بن الخطاب ﷺ يشكو أن ابناً له لا يبره، فهو فقير وابنه غني لكنه لا يعطي أباه شيئاً مما يحتاج إليه من النفقة.

فقال عمر ﷺ: ائتوني بالولد، فأُتي به، فسأله: لماذا لا تبر أباك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هل للأولاد حقوق على

آبائهم؟ قال: نعم، قال: ما هو؟ قال: أن يحسن اختيار أمه، وأن يحسن تسميته، وأن يُقرأه شيئاً من القرآن، فقال: وأبي لم يؤدِّ لي أي واحدة من هؤلاء الثلاثة.

أمي كانت كذا، وذكر شيئاً سيئاً، واسمي اسم سيء، فقد سماني خنفساً، ولم يعلِّمني القرآن ولا الصلوات، حتى كبرت، فأخذت أسأل في مسجد رسول الله ﷺ، فعلَّموني كيف أصلي، وكيف أقرأ بعض القرآن.

فنظر عمر إلى الأب، وقال له: لقد عققت ولدك، قبل أن يعقَّك.

وفي الحديث الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ: **«برُّوا آباءكم، تبركم أبناؤكم»**[1]، ومن البر أن تحسن اختيار أمه، واختيار اسمه، وأن تعلمه الدين، وأن تنشئه التنشئة الحسنة.

فهذا الأمر النبوي بإحسان الأسماء، وهذه السيرة العمرية الجميلة، تبيِّنان أن فعل الأبناء ليس إلا رد فعل لفعل الآباء، إذا بررته برَّك، وإذا عققته عقَّك. ولذلك قال للأب: عققت ولدك قبل أن يعقك. فهذه المقولة تدلنا على أن واجب الآباء لا يقف عند حدّ اختيار التسمية، وإنما يبدأ قبل ذلك، باختيار الزوجة، ويستمر بعد ذلك في إحسان التربية.

---

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 4/ 154)، وأخرجه المنذري في «الترغيب والترهيب» (الحديث: 3/ 492)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (الحديث: 8/ 81).

فإذا صنع هذا الآباء والأمهات فقد غرسوا الغرس الطيب، وإذا ضيعوا هذا فقد ضيعوا على أنفسهم في الكِبر خيراً كثيراً، سيكونون أحوج الناس إليه.

الأسماء الأجنبية:

إن هناك أسماء آتية من الغرب ما أنزل الله بها من سلطان، لا معنى لها، ولا طعم، ولا لون.

وإذا كانت هذه الأسماء فعلاً لا معنى لها، أو طعم، أو لون، فهي حسنة؛ لأنها كالماء الذي ليس له طعم ولا لون ولا رائحة، ولكن ـ للأسف ـ هذه أسماء لها معنى سيىء، وأثرها قبيح في المجتمع.

أما معناها السيىء فهو التقليد الأعمى، لأن بعض الأسماء الأجنبية، لا شأن لها بنا، ولا شأن لنا بها، وتسري في المجتمع، حتى إننا قد نجد الجيل بأكمله من البنات ـ ولا أريد أن أذكر اسماً بعينه حتى لا أسيء إلى أحد ـ اسمه اسم أجنبي لا معنى له من لغتنا العربية. وقد يكون له معنىً سيىء، حتى في لغته الأجنبية إلا أنه جاء من فيلم سينمائي، أو مسرحية، أو تمثيلية، أو رواية.... إلخ. والأثر السيىء الثاني، من استيراد الأسماء الأجنبية، هو فقدان الانتماء إلى الأمة.

فإذا لم نسمِّ البنات: خديجة، وفاطمة، وعائشة، وزينب، وحفصة، وأم كلثوم، فمن سيسمي هذه الأسماء؟

وإذا لم نسمِّ: خالد، وطارق، وعمر، وأبي بكر،

وحسن، وحسين، وعبد الله، وعبد اللطيف، وعبد القادر، وعبد الجبار، فمن سيسمي هذه الأسماء؟ وبهذا ستموت وستضيع أسماؤنا العربية.

الأسماء بين الماضي والحاضر:

كان أخونا صالح أبو رقيق ـ رحمه الله ـ قد قرّر أن يسمي ابنته الثانية: عائشة. فاحتار أفراد أسرته وقالوا: إن الناس سوف ينادونها عيشة، وعيوشة، كما يقول المصريون.

فقال: وأنا لن أناديها إلا عائشة، وسيناديها الناس بعد ذلك عائشة. وبالفعل هي لا تزال تُنادَى حتى اليوم من جميع الناس بعائشة. وعندي في مكتبي، الأستاذة عائشة علي عبد الرحيم، فعل أبوها الشيء نفسه، سماها: عائشة، وأخذ يناديها عائشة حتى سرى اسمها هكذا حتى اليوم.

ابنتي فاطمة، لا أحد يناديها فاطمة أبداً ـ بتسكين الطاء ـ ولا فطومة ولا فطوطة، ولا هذا الكلام أبداً، وإنما اسمها فاطمة.

فأنت إذا ناديت ابنك في البيت النداء الصحيح السليم، بقي الاسم صحيحاً وأما إذا ترخصت في التدليل وإفساد الاسم به، ضاع الاسم.

ومن الناس من يسمي ابنه مُحَمّداً، وخير الأسماء ما عُبّد وحُمّد، ثم يناديه حمودة، وحمادة!

فهذا الشخص مخطىء، ومقصِّرٌ في حق ابنه تقصيراً شديداً، ومفسدٌ للاسم الجميل.

وفي سياق الحديث عن الأسماء التي أصبحت نادرة في أيامنا أذكر حادثة جرت معي حين كنت ذات يوم في حفل عرس، وذكرت خلاله قصة عن أم المؤمنين حفصة ﵂، وبعد انتهاء الحفل قام رجل كبير في الدولة ـ عضو في مجلس الشعب ـ فقبلني، واحتضنني، وشكرني، وقال لي: في بلدنا يضحكون على اسم أمي؛ لأن اسمها حفصة، وكل هؤلاء الموجودين، أولاد خالتي، وأولاد عماتي أسماء أمهاتهم حديثة (على الدارج)، وأنا الوحيد الذي اسم أمي: حفصة، وأنت عندما ذكرت لنا قصة أم المؤمنين حفصة ﵁ سررتني بأن ذكرتها في هذا الحفل الكريم.

إذن عندما توجد هذه الأسماء وتنتشر يفتخر الناس بها، ويعود انتماؤهم الأصيل إلى حضارتهم الرائدة، أما عندما تنطمس، وتستعجم علينا أسماء أبنائنا وبناتنا، يستعجم عليهم انتماؤهم إلى الأمة.

والانتماء ليس باللسان فقط، وإنما بالثقافة المتكاملة، التي أسماؤنا جزء منها.

ولذلك كان أحد الظرفاء يقول: كنا نسمي أبناءَنا لأعدائنا، ونسمي خدمَنا لأنفسنا، فكانوا يسمون الخدم: ياقوت ومرجان وألطاف وأيمن و... إلخ. ويسمون أبناءهم: صعب وشديد وحزن و.. إلخ. حتى يكون تخويفاً للأعداء.

طبعاً هذه ثقافة لم تعد قائمة، ولكن سمّ أبناءك لانتمائك، سمّ أبناءك لأمتك، لتاريخك، لتراثك، ليبقى هذا التراث ويعيش.

التميز بين الأولاد

يمكن أن نقول إن مشكلة التمييز بين الأولاد مشكلة أزلية، كأن يفضّل الآباء بعض أولادهم على البعض الآخر، أو بنتاً على أخواتها الأخريات. وربما نشأ هذا التفضيل من أمور متعددة يصعب إحصاؤها، بعضها نفسي، وبعضها تاريخي - من تاريخ ولادة الولد - وبعضها متعلق بطريقة هذا الولد في التعبير عن نفسه نحو الأب أو الأم، وبعضها متعلق بصحته إذا كان معتل الصحة في صغره. . . إلخ. ينشأ من هذا كله موقف تفضيلي - أحياناً - لدى الآباء نحو بعض الأبناء والبنات لديهم دون باقي أخوتهم.

أولاً: حذّرنا الرسول ﷺ من هذا، عندما جاءه أحد الصحابة بولدٍ له وقد منحه منحةً؛ قطعةً من الأرض هديةً، فقال له: «يا رسول الله، إني نحلت ابني هذا نحلة وأريدك أن تشهد عليها»، قال له: **«ألك ولد سواه؟»** قال: **«نعم»**، قال: **«أكُلهم وهبت له مثل هذا؟»** قال: **«لا»**، قال: **«فلا تشهدني إذاً، فإني لا أشهد على جَوْر»، «فأشهد على هذا غيري»**[1].

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 2587) و(الحديث: 2950)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 4157) و(الحديث: 4158) و(الحديث: 4162)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 3542)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 2375)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 3681).

فهذه النحلة التي منحها الصحابي لولده صحيحة وليست باطلة، ولكنها لا تنم عن حسن خلق، وهي إخلال بواجب الآباء العدل نحو أبنائهم، لكن هذا الإخلال لا يصل إلى حد البطلان، فالنبي ﷺ يقول: «**اتقوا الله، واعدلوا بين أبنائكم، بِرّوا آباءَكم تبركم أبناؤكم**»[1].

فهذه الجمل الأربع تدلنا على وجوب المساواة بين الأبناء في الأفعال وفي المشاعر. وعلى أن هذه المساواة مما يقدّمه المرء لغده.

فأنت تقدم لغدك الإحسان إلى أبنائك بالتسوية بينهم، ومعاملتهم بالمساواة، لكي يعاملوك غداً ببرٍّ واحد «**برُّوا آباءكم تبركم أبناؤكم**»[2].

وإذا كبر الإنسان وأصبح شيخاً، شعر بحاجة لبر أولاده، واحتاج إلى أن يشعر بسعادتهم بهذا البر، ويشعر بالرضا أنهم كلهم على قدرٍ واحد من البر، فهم جميعاً بررة. أما إذا كان بعضهم بررة، وبعضهم غير ذلك، فإنه يشعر بالأسى، ويشعر بالظلم، وربما انتبه لما فعله معهم في صغرهم، فجعل بعضهم

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 8587)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 4157)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 3542)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 3681 ـ 3684)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 2375).

(2) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 4/ 154)، وأخرجه المنذري في «الترغيب والترهيب» (الحديث: 3/ 492)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (الحديث: 8/ 81).

برة، وبعضهم الآخر ليسوا على المستوى نفسه من البر.

اهمية الحوار بين الآباء والأبناء:

إن للثقافة الغربية أثر بالغٌ في مجتمعنا، تلك الثقافة التي جاءت عبر وسائل الإعلام. وأخطر طريق سلكته هو طريق المسلسلات والأفلام وما إلى ذلك. تلك الثقافة التي هددت الأسرة المسلمة بالتفكك وجعلت الأبناء وهم ينطلقون في الحياة ينسون ما كان عليه آباؤهم من ود وبر لهم.

وقد كان الآباء يحولون بين أبنائهم وبين هذا التأثير بطريقين:

الطريق الأول: كانت تسلكه زوجتي ـ رحمها الله ـ إذ كانت تشاهد مع أبنائنا كل ما يشاهدونه، وتبين لهم ما يتفق مع ما نريد أن يكون الولد عليه، أو ما يتفق مع ما يريده الإسلام، وكانت أحياناً تشرح شرحاً مطوّلاً، وأذكر أن بعض بناتي كن يرين في هذا الشرح المطول درساً يشبه الدرس المدرسي.

ثم كبرت البنات، وتزوجن وأنجبن، وأصبحن يسلكن مع أبنائهن الطريق نفسه الذي سلكته الأم معهم. فقد قالت لي إحدى بناتي: يا أبي سبحان الله، أنا أفعل الآن مثلما كانت تفعل أمي تماماً، لأنني حُمِيت من أن أنجرف إلى هذه التقاليد والعادات السيئة بهذه الدروس التي كنت أنزعج منها أحياناً، بل وأشعر بالملل منها.

وهنا تكمن أهمية الحوار بين العائلة، والتوعية، إذ لا نمنع أولادنا بمجرّد إقفال التلفاز فقط، وإنما نتحاور معهم حول هذا الموضوع! نعم، لأن المنع لا يُجدي.

وقد سلكنا مع أولادنا سلوكاً عجيباً في شأن التلفاز. فقلنا لهم عندما بدأوا يدركون: إن علينا في هذه الحياة واجباً، أن نعمرها وننميها، ونحسن إلى أنفسنا وإلى خلق الله فيها. وقلنا ولا نزال نقول لأولادنا من حولنا: نحن أبناء الطبقة الوسطى، وإذا انهارت الطبقة الوسطى انهار المجتمع بأسره، فالمترفون في الطبقة العليا، والمعدمون في الطبقة الدنيا، لا يسعهم أن يقوموا بشأن الأمة. فالذين يقومون بشأن الأمة هم الذين يملكون القدرة على ذلك إذ يستمدون القوة للعمل العام، والعمل الاجتماعي والعمل الثقافي.

ونحن بذلك نكون قد رسّخنا هذا المفهوم في أنفسهم ترسيخاً هائلاً إلى أن أصبح هذا المفهوم والحمد لله كأنه شيء فطري وتلقائي في نفوسهم، ثم بعد ذلك، شرحنا لهم أنه ينبغي لكي تؤدي دورك أن تعرف ما يفيد وما يضرّ. فكان مما يضر أن يتفرغ الإنسان أو يعطي وقته كله لمشاهدة التلفاز.

فاتفقنا مع أولادنا: أن التلفاز لا يُفتح أثناء العام الدراسي إلا يومَي الخميس والجمعة في العطلة، ومضينا على هذه السُنَّة حتى تخرّج أصغر أولادنا عبد الرحمٰن وهو الآن طبيبُ أسنان .

وحتى بعد أن توفيت والدتهم ـ رحمها الله ـ كانوا لا يفتحون التلفاز أثناء العام الدراسي إلا يومَي الخميس والجمعة، أي في العطلة الأسبوعية.

أما شهر رمضان الذي هو عند المسلمين شهر العبادة والقرآن، فقد أصبح عند وسائل الإعلام شهر المسلسلات والأفلام، فكانت ـ رحمها الله ـ تختار من هذه المسلسلات والأفلام ما يناسب أن ينشأ عليه أولادنا من القِيَم.

مثلاً: في مرحلة من المراحل، كان يعرض عندنا في مصر مسلسل ياباني عن فتاة يابانية فقيرة، أصبحت عَلَماً من أعلام الصناعة اليابانية في ظل التغيير الاقتصادي في اليابان. فكانت أمهم تجلسهم حولها، ليشاهدوا هذا المسلسل، ويروا معاناة الفتاة، كيف عُذِبَت، وكيف تضايقت، وكيف تعبت، وكيف أصبحت فيما بعد شيئاً عظيماً نتيجة كفاحها ومثابرتها.

هذا الجانب، جانب الحوار والأخذ والعطاء كان ضرورياً في حياتنا، إلا أنه كان يكمِّله جانب آخر، ألا وهو إشعار كل من الأولاد والبنات بقيمته المتميزة، وهذا هو الطريق الثاني، رُزقت في أول حياتي بنتين، وكنا نسميهما نمرة واحد، ونمرة اثنتان. فكنا نقول لنمرة واحد: أنت جئت أولاً، أنت الرقم الذي ليس له ثان. ونقول لنمرة اثنتان: أنت المكمِّلة والمجمِّلة، لولاك لما كان هناك ثالث، ولا رابع، ولا خامس، فكنا ننشىء في نفسيهما الاعتزاز بهذه الطريقة، وبعد فترة أنجبنا باقي الأولاد الأُخر: أحمد ثم مريم، ثم عبد الرحمٰن.

فاخترعت لأبنائي أسماءً، فسميت أحمد: وحش البحار السبعة؛ لأنه يسبح ويعلم السباحة، فجاءت مريم وكان لا بد من اسم مناسب لها، خاصةً وأن أخاها وحش البحار السبعةُ فسميتها السمكة المضيئة، ولا زلت أناديها بهذا الاسم حتى الآن، فإذا أردت أن أدللها، قلت لها: أهلاً بسمكتي المضيئة. وأخذت أهديها حلق على شكل سمكةُ، قلم على شكل سمكة، خاتم على شكل سمكة، ممحاة على شكل سمكة. فاعتزت جداً بأنها السمكة المضيئة وعندها الآن مجموعة رائعة من الأغراض كلها على شكل سمكة!!

وجاء عبد الرحمٰن فكان أيضاً لا بد من تسمية قرينة تجعله ينضم للسمكة المضيئة ووحش البحار السبعة، فسميناه: الحوت الأزرق، وعلمناه أن الحوت الأزرق هذا نوع من الحيتان له لون كذا، وخصائص وأنه أضخم الكائنات الحية على الأرض كذا. . . إلخ. فنشأ كل منهم يشعر بأن له شخصية متميزة مستقلة. وكان إذا حدث بينهم ما يحدث دائماً بين الأولاد، تقول هذه: أنا نمرة واحد لا بد وأن تسمعوا كلامي. فيقول الآخر: وأنا الحوت الأزرق، إذا لم تسمعوا كلامي ابتلعتكم جميعاً، وهو ما زال غضاً صغيراً ابن خمس سنوات. فنشأ كل منهم وله شخصية، وقدرة على التصرف، وشعور بكيانه، وإحساس بنفسه.

فهذا الإحساس إذا نمّيته في الأبناء، ونمّيته في البنات،

خرجوا للحياة وهم يشعرون بأن لهم قيمة إضافية، غير قيمة أنه فلان ابن فلان.

وبلغ من شأن هذه التربية الاستقلالية، أن أولادي، وبناتي عندما كانوا في الجامعات كانوا لا يذكرون اسمهم الأخير، والكثير من أساتذتهم بحكم العمل هم من الأصدقاء، فلا يُذكَر اسمهم الأخير حتى إنه لا يُعرَف أنهم أبناء فلان، دون أن يثبتوا قدراتهم بأنفسهم.

وفي مناقشة رسالة الدكتوراه لابنتي فاطمة، قال لها أحد الأساتذة: حرام عليك، ست سنوات في الكلية، تحصلين على الليسانس والماجستير، وأنا لا أعرف أنك ابنة فلان! وهو صديق عزيز، وأخ كريم، وهو لم يعرف ابنتي إلا عندما ذهبت تناقش رسالة الدكتوراه، وكان قد امتحنها عدة مرات، . . . إلخ.

صورت هذا النوع من التربية للقراء الأعزاء لأن الدرس الذي استفدت منه، لا أقدره بمال الدنيا كلها، لأني وُفقت به عن غير قصدٍ مني بفضل الله ورحمته لأن أنمي لدى هؤلاء الأبناء والبنات القدرة على الاستقلال بأنفسهم، والقدرة على احترام ذواتهم. فإنك إذا علّمت ابنك احترام ذاته، وعلّمته البعد عن الصغائر، وترك الأشياء المهينة والحقيرة، وأن يحترم نفسه، وأن يكون نِدّاً لغيره، حتى ولو كان هذا النّد أكبر منه بألف مرة؛ فإنك تزرع فيه قوة الاعتراف بالخطأ.

أذكر أني ذات مرة أخطأت خطأ بيّناً في عمل مهم،

وكانت اللجنة مؤلفة من مسؤولين كبار من الدول العربية، فقال أحدهم: حصل كذا وحصل كذا منتقداً هذا الخطأ. فقمت وطلبت الكلمة، ولما أعطانيها رئيس الجلسة، قلت: يا سيدي، نحن نصيب كما يصيب الرجل، ونخطىء كما يخطىء الرجل، أخطأنا، ونسحب هذه الورقة، وسوف نعدّها في الموعد القادم على النحو المطلوب، فسكت وسكت الجميع. ولما خرجنا جاءني هو ـ أي رئيس الجلسة ـ وقال لي: من أين أتيت بهذه العبارة: نخطىء كما يخطىء الرجل، ونصيب كما يصيب الرجل؟ فقلت له: هذه الحقيقة فقال: أعرف أنها الحقيقة، لكن من أين جئت بها؟ ومشينا كلٌّ إلى حال سبيله ولا زلت أدرك بأن الجرأة على الاعتراف بالخطأ من أفضل الفضائل.

هذه هي التربية الاستقلالية التي فيها معرفة الذات، ومعرفة القدرة البشرية، وأن لا نفس بشرية معصومة إلا لدى الأنبياء. فلا معصوم إلا من عصمه الله، أما من عداهم فالكل يخطىء ويصيب. وهذا كله أنت من تغرسه في نفوس أبنائك، وتجعل منهم نساءً ورجالاً صالحين متميزين، وتشعرهم وأنت تعاملهم بهذه الطريقة بأنهم كلهم على قدر المساواة، وأنهم كلهم عندك سواء، وأنه لا تمييز بينهم لأن هذا أكبر أو هذا أصغر... أو هذا ولد وهذه بنت.

سألتني ابنتي سلوى مرة وهي في سن المراهقة: يا أبي، تمنعنا من أشياء، قلت لها: نعم؛ لأن الله منعها، فقالت: وإذا كبر أحمد وعبد الرحمٰن تمنعهما أيضاً؟ فقلت: نعم، قالت:

الحمد لله، فقلت لها: ما لك؟ قالت: صديقتي فلانة يمنعها أبوها من أشياء، بينما أخوها فهو كما يقال بالعامِّية: (متروك على حل شعره)، يفعل ما يشاء، فخشيت أن تكون مثل والد صديقتي. فقلت لها: لا، إنما هذا مسلك إنساني ينبغي أن يطبّق عليكم جميعاً.

فظلت تحدث بهذه القصة سنين طويلة؛ لأنها شعرت فيها بالمساواة بين البنين والبنات. وأنا قلتها من باب الصدق والحق، لأنني لا أسمح بالحرام لا لبناتي ولا لأبنائي.

فالآباء والأمهات يجب أن يراعوا هذه المعاني ويستحضروها، ويتصرّفوا على أساسها، حتى ينشأ الأبناء نشأةً سويةً ليس فيها التميز لمن لا يستحق التميز، ولا فيها ظلم لمن لا يجوز ظلمه.

ويترتب على المساواة الثواب والعقاب، أو المكافأة والحرمان من المكافأة، لأنك إن أنّبت بطريقة واحدة المخطىء والمصيب، ضاعت قيمة الخطأ وقيمة الصواب، وكذلك إذا عاقبت بطريقة واحدة المحسن والمسيء، كما قال الحجاج: «لآخذن المحسن منكم بالمسيء»، فهذه ليست طريقة تربوية، وإنما هي طريقة ديكتاتورية. والواجب أن يقال للمخطىء: أنك أخطأت وأن يرشد إلى خطئه لا أن يُتْرَك وذلك ليعرف أنه ارتكب خطأ، فإذا عاد عن خطئه وأصاب ينبغي مكافأته مكافأة غير مبالغ فيها أيضاً، حتى يوضع كل شيء في موضعه الصحيح.

الميل القلبي:

قد يميل القلب بعض الأحيان إلى ولد دون آخر، وهذا الميل القلبي هو ميل فطري لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه، وهذا الميل كما يقع بين الآباء وأولادهم، وقد يحصل أيضاً بين الزوجة والزوج، إن كان له أكثر من زوجة، فيحب واحدة أكثر من الأخرى، إلا أنه لا يجوز أن يؤدي هذا الحب لعدم العدل بينهن. كما لا يجوز أن يؤدي الميل القلبي إلى ولد من الأولاد إلى التمييز بينهم. فكيف يمكننا أن نتفادى هذا الأمر؟

يمكن تفادي هذا التمييز بأن تجعل هذا الميل في قلبك، أن تحرص على ألا تظهره في تصرفاتك أو في كلامك، ولا في عطائك ولا في منعك. زوجتي أماني تقول في هذا تعبيرٌ جميل، تقول: فلان يريح قلبي. وهذا ليس حباً زائداً، وإنما شعور بأنه يراعيها، ويكرمها، ويبرها، ولا يقصِّر في حقها، فتجد راحةً في الكلام معه والجلوس إليه.

لكنها لا ترفض الآخرين، ولا تبتعد عنهم، ولا تحرمهم من حقهم في مناقشتها والجلوس إليها ومراعاتها إياهم؛ ولا تحرمهم حبها وحنانها لأن هذا الحرمان هو الممنوع شرعاً.

لكن نقص أو زيادة الميل القلبي ليس بإرادتنا، ولا يحاسبنا الله عليه، إنما الذي نحاسَب عليه هو ما نملك التحكمَ فيه بإرادتنا، وهو العمل الظاهر، وهو الصلة التي تراها وتسمعها، أي الصلة المادية، أما الصلات القلبية والروحية فهذه

لا سيطرة للإنسان عليها، وهو غير مطالب بمنعها، ولكنه مطالبٌ جداً ألا ينساق وراءها، فيعطي هذا لأنه يحبه، ويحرم الآخرين، فهذا كله لا يجوز.

الأسرة المثالية

إن الأسرة المثالية غير موجودة في هذه الدنيا، كما أن الرجل المثالي غير موجود والمرأة المثالية غير موجودة. بل نحن نسدد ونقارب وندعو إخواننا إلى التسديد والمقاربة، أي: أن نفعل ما بوسعنا لتبرئة ذمتنا أمام الله، أما إذا صممنا على أن نكون مثاليين بمعنى أننا غير واقعيين، وبمعنى أننا نعيش في خيال الجمهورية الأفلاطونية فهذا غير ممكن.

قد يتسائل البعض: كيف يمكن أن نكون مثاليين؟ أنا لا أقصد من كلامي المثالية في الحياة، إذ لا يمكن لأحد من الناس أن يكون مثالياً في هذه الحياة ولعل جلّ ما أقصده من كلامي أن يفعل المرء كل ما بوسعه كي يصل إلى حد المثالية، كما يقول الرسول ﷺ: **«فإذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فدعوه»**[1].

وهذا بالفعل ما قصدت، أن نجتهد وأن نكون على هذا الرقي في التعامل بين الأسرة.

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 3244)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 2681)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 427).

التمييز الموروث:

لعل التمييز الموروث بين الصبي والفتاة تغرسه الأم أكثر من الأب، فيكون على الفتاة أن تُحضر كل ما يطلبه منها أخيها فقط لأنها فتاة. هذا هو الوضع السائد في كثير من الأُسر، أن تشعر البنت أن عليها دور الخدمة، والولد هو المخدوم.

الواجب في منع هذا التمييز يقع أولاً على الأمهات، ولكنه يقع بالقدر نفسه على الآباء، وصمت الأب على تصرف الأم هو أعظم، إذ لا يجوز للأب أن يبقى صامتاً، فعليه أن يكون القدوة في منزله.

الاعتماد على النفس:

كان الرسول ﷺ ينظف (يكنس) بيته ويخصف نعله، ويرقع ثيابه، حتى إذا نودي للصلاة خرج لا يلوي على شيء، فكان هذا خُلقه ﷺ، وهو أسوة وقدوة لكل مسلم ومسلمة. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: 21].

كنا في بيت أبي وأمي ـ رحمهما الله ـ أُسرة كبيرة، وكان بيتنا مضيافاً باستمرار، والضيوف ينامون عندنا طول الوقت، وكان منهم من يُساعد في الخدمة ومنهم من لا يساعد. وكان أبي إذا فرغ من طعامه يغسل الصحون بنفسه، وكل ما يجده أمامه من صحون أخرى، ووالدتي تحاول منعه ولكنه كان يستمر في عمله. فتعلمنا أنا وإخوتي هذا في منزلنا من والدنا، ونحن

جميعاً نساعد الآن زوجاتنا في بيوتنا. وقد تعلم أولادنا أيضاً ذلك منّا، وهم الآن يفعلوه في بيوتهم؛ لأن هذا خُلُق ينتقل بالتقليد والتجربة والممارسة.

فكان بعض أفراد عائلتنا يفعل ما ذكرته، والبعض الآخر يكلف البنات بكل الخدمات دون الذكور.

ولقد تنبهنا لذلك في تربية أولادنا، فكنا نساوي في العمل بين البنات والصبيان بما في ذلك العمل المنزلي، مثل تنظيف البيت أو تحضير الطعام وغيره.

فالفتاة محل للإكرام، وهي عندما تكبر تساعد من تلقاء نفسها وهذا طبيعي، وليس معنى ذلك أنها مجبرة على القيام بهذا العمل.

ويجب التمييز بين الفتيات والصبيان في حمل المسؤولية؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34].

لم يَقُل هنا الأزواج قوامون على الزوجات، إنما الرجال قوامون، ومعنى القوامة: هو الذي يكون قائم على الشيء بما يصلحه ويخدمه ويقوم عليه، ويؤدي إليه ما يحتاج إليه.

وأظن أن التمييز يكون في تحميل الشاب مسؤولياته التي يستطيع أن يقوم بها، مثل شراء الحاجيات من خارج المنزل، وأن يقوم بإصلاح ما أُفسد في المنزل من نجارة وكهرباء وإلى غير ذلك. والفتاة تتعلم أن تقوم بدورها فيما ينبغي لها أن تقوم

به، ليس لأنها أقل مكانة من الولد، وإنما لأن لهذا دور ولذاك دور، وكل منهما مكمل للآخر. ولعل ما أردنا توضيحه من كلامنا هنا أنه يجب أن يكون هناك تمايز أدوار وليس تمييزاً في تربية الشاب والفتاة.

تمايز الأدوار:

في الحقيقة، لكل من الشاب والفتاة عمل أو دور عليه أن يؤديه، وبذلك تقسم الأدوار، هذا له دور يؤديه وهذا له دور يؤديه، هذا عليه واجب وهذا عليه واجب.

إذا شعر الأولاد أن هناك قسمة عادلة بينهم أقبلوا عليها بروح طيبة تعاونية أخوية، وشعروا بالتعاون ولم يشعروا بالإهانة؛ لأنه إذا قالت الأم لابنتها: هذا أخوك عليكِ أن تخدميه شعرت البنت بالامتهان.

وغداً إذا تزوجت الفتاة وتعرضت للإهانة من زوجها، لن تستطيع أن تقول له: لا؛ لأنها قد تعودت على الإهانة في بيت أبيها. أما إذا نشأت وترعرعت على الكرامة والاحترام واعتادت على تأدية دور معين لها في الحياة مقابل بدور أخيها، فإنها ستقوم بالدور نفسه مع زوجها وستؤدي ما عليها، وتعرف كيف تحصل على حقوقها واحترام زوجها لها.

فالفتاة التي تُهان في بيت أبيها ستُهان أكثر في بيت زوجها، وهذه ضرورة من ضرورات التربية والتعليم للأبناء يجب

أن نلتفت إليها لأننا إذا أهملناها وهم صغار قصرنا في حقهم كباراً.

ونحن نظن أن الصغار لا ينتبهون إلى هذه الأشياء. الحقيقة أننا لا نعرف أن مثل هذه العادات تتراكم شيئاً فشيئاً، وتراكمها يؤدي إما إلى استقامة الشخصية بالطريقة التي تربّينا عليها أو إلى العُقَد النفسية عند اتباع طرق مغايرة لما تربينا عليه.

فلينظر كل أب وأم إلى ما يريداه في أولادهما هل يريدان شخصية مستقيمة مرنة ولطيفة ورقيقة حلوة يحبها الناس، أم شخصية معقدة منطوية تحتاج إلى طبيب نفسي ليعالجها كل يوم ويأخذ بيدها. من الطبيعي أن يقول الجميع: إننا نريد النتيجة الأولى، وعليهم أن يبذلوا جهداً كبيراً منذ بداية التربية ليصلوا إلى مبتغاهم.

الترابط الأسري

ولكن كيف يكون بإمكاننا أن ننشىء أبناءنا ونحمي أسرتنا من الغزو الثقافي والفكري والمجتمعي الآتي من الغرب كما ذكرنا سابقاً؟ وكيف يمكننا أن نربيهم بعيداً عن الأفكار الغربية السيئة والعادات البغيضة المحرمة؟!

العامل الأول: في تحقيق ما ذكرته هو: الترابط الأسري. وهذا ليس معنى الترابط أن تتدخل فيما لا يعنيك من الأمور الداخلية لإخوتك أو أقاربك، بل معناه أن تكون الأسرة كتلة

متراصة كالبنيان المرصوص. كما قال الرسول ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**[1].

هذا الترابط الذي يؤدي إلى التعاضد والتعاون أو إلى التداعي، يبدأ بعلاقة الأب بأسرته، أي علاقة الأب بزوجته وأولاده.

نعم، الترابط الأُسري هو الزوج والأولاد، والترابط العائلي يكون على نطاق العائلة الكبيرة التي تضم الأعمام والخالات والأخوال وأبناؤهم، إلا أن هذا الأمر يختلف في أيامنا هذه من بلد إلى آخر. أذكر حادثة حين كنت في طريقي من بيروت إلى القاهرة وفيما كنت أقرأ بعض الصحف المصرية، وصلت إلى صفحة الوفيات، فقرأت أن فلانة انتقلت إلى رحمة الله تعالى، وذُكر في النعي اسم زوجها وأبنائها ووالدها وأعمامها وأخوالها وأزواج خالاتها، وأبناء أعمامها وأخوالها. وهذا أمر مستغرب لا نجده في لبنان؛ لأنه عندما نقرأ في صفحة الوفيات في صحف لبنان أو في ورقة التعزية عند وفاة أي شخص يكتب اسمه وأسماء الأشخاص الأكثر قرابة فقط.

حينها شعرت بهذا الترابط العائلي الذي لا زال موجوداً في

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 6011)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6529)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 4/ 270).

مصر. إن هذا الترابط العائلي ما زال موجوداً في مصر بهذه الصورة حتى في صفحة الوفيات، كما هو موجودٌ في المناسبات السعيدة. فمثلاً لا يُقام حفل عرس إلا ويدعى إليه جميع أفراد العائلة حتى ولو كانوا يعيشون في أماكن بعيدة تفصلهم آلالاف الكيلومترات عن بعضهم البعض حتى يشعروا بالترابط الأسري.

ولهذا الترابط الأُسري جانب تربوي مهم؛ لأن الابن إذا شعر أن عمه أو خاله كأبيه وأن خالته مثل أمه، شعر أن لديه بدائل، وهو غير محصور في الإطار الضيق للأسرة... الأسرة الصغيرة كما يسمونها في الغرب. ففي الغرب لا يستطيعون العيش ضمن ترابط أسري ولا نجد عندهم أبداً هذا الترابط القوي.

وأحياناً يقع الأبناء في مشكلة لا يكفي أن يؤخذ فيها رأي الأب والأم، فإذا كانت العائلة الكبيرة مترابطة يلجأ الولد أو البنت إلى العم أو الخالة ويجد عندهم النصيحة الطيبة الناضجة المفيدة. وأردت من كلامي أن أبين الترابط داخل الأسرة الصغيرة، أي الترابط التربوي، الترابط الذي ينقل القدوة والأسوة الحسنة ويحمي الأبناء في صغرهم وكبرهم.

وكما قلت سابقاً: في بعض الأسر عندما يدخل الأب إلى منزله يسأل زوجته: هل أكل الأولاد وهل أتموا دروسهم وأدّوا واجباتهم؟ وهنا ينتهي دوره بالنسبة إليه. فمثل هذا الأب ضيّع ما عليه من واجبه الحقيقي وفقد دوره الأُسري في الحياة ودوره الأساسي بين أفراد أسرته.

إن الدور الحقيقي والأسري للأب هو أن يكون له صلة خاصة بكل ولد وفتاة، وصلة خاصة بجميع أفراد بيته وعائلته، ولقد تعلمت من والدي ومن أساتذتي أن هناك دور يومي للأسرة. إن الدور اليومي للأسرة هو أن يكون للأسرة وجبة طعام يومية مجتمعة، إما وجبة الإفطار أو العشاء؛ لأن تلك الأوقات تكون ملائمة لاجتماع الأسرة، فيجلس الأب والأم والأولاد معاً على مائدة الطعام. وأن يكون هناك وجبة أسبوعية، أي في يوم الإجازة وكذلك في أيام الأعياد والمناسبات الدينية.

وكانت فرصة اللقاء مع أسرتي سواء على الطعام أو في السيارة ضروريةً لتعليمهم آداب المائدة والكرم والعلاقة بالآخرين، وعدم النظر إلى ما في أيدي الآخرين والاكتفاء بما أنعم الله فيه علينا.

فكنت أُحدثهم عن عملي، وكانت والدتهم أيضاً تحدثهم عن عملها، وهم يتحدثون عن دراستهم وعن مدرّسيهم وأصدقائهم.

وكذلك الوقت الذي كنت أقضيه معهم خلال توصيلهم إلى مدارسهم، ثم العودة بهم إلى البيت كنا نقص فيه على بعضنا القصص أو نقرأ آيات من القرآن أو نتحدث في السيرة النبوية، أو في السُنّة أو في مشاكل العائلة، كما كنا نتحدث أيضاً في مواضيع الجغرافيا والتاريخ. وكانت هذه الأوقات بالنسبة إليّ

هي أمتع الأوقات وهي الأكثر أثراً وأبقى في نفس الأولاد حتى الآن.

وفي يوم الجمعة، كان يذهب الأولاد معي إلى الصلاة في المسجد، وكان بالنسبة إليهم يوماً مقدساً لا يتخلفون عنه.

وكنا في العيد نصلي سوية في المنزل رجالاً ونساءً، وكانت هذه الصلاة فرصة لتعليم آداب الأعياد، والرحمة للفقير، وآداب صلة الرحم.

هذا ما قصدته بالترابط الأسري الذي يُشعر الأبناء والبنات أنهم أجزاء من كل هذا المجتمع، وأن في هذا الكل مرجعاً يستطيعون أن يتكلموا معه بكل ما يعترضهم من مشاكل أو مواقف تحتاج إلى رأي. وكان الأولاد يحضرون أصدقاءهم كي أحلّ لهم مشاكلهم فقد كانوا ينقلون هذه الصورة الأسرية الحسنة إلى أصدقائهم في الخارج، فكان من الطبيعي أن يحتاج هؤلاء الأصدقاء في لحظة ما إلى نصيحة منّا. هذا النوع من الترابط إذا أقامه المرء داخل منزله انتشر في المجتمع، وإذا انعدم في البيت انعدم في المجتمع.

الترابط الأكبر والأعم:

وهذا الترابط هو ترابط الجد والجدات والأخوال والأعمام، وكذلك ترابط أصدقاء العائلة.

بهذا تكون قد أوجدت مجتمعاً سوياً يكمل بعضه بعضاً؛ لأن الخال والخالة أو الجد والجدة يقومون بدور رائع في التربية، وهو إما دورٌ مكملٌ أو دورٌ نقيضٌ يبيّن لك خطأك إذا أنت أخطأت. وأنت بحاجة إلى هذا النوع لكي تُثبت ابنك أو ابنتك على الصواب؛ لأنه يرى ما يراه ويقول: الحمد لله ليس لدينا هذا النوع من السلوك أو العكس، ما هو الذي يفعله الأب والأم.

عندئذٍ تكتمل صورة الأسرة المثالية، هذه الصورة التي لها الأثر الكبير في تطور المجتمع ونموه وتحضره.

ولكن ثمن هذا الترابط قد يكون باهظاً جداً في ظل الحياة السريعة التي نعيشها هذه الأيام، وهذه المتطلبات المرهقة للعيش الكريم. فكيف يمكن تطبيق هذه اليوميات من حيث الترابط الأسري والوالدين يعملان وكلاهما يذهب لكسب العيش ويقضي معظم وقته خارج المنزل؟!

عمل الوالدين خارج المنزل

إن غالبية الأسر تعيش وتسعى لكسب الرزق من أجل متطلبات الحياة اليومية الصعبة. فالوالدان يعملان من أجل عيش كريم والعودة إلى تربية الأبناء والاهتمام بشؤونهم في الداخل.

والواقع أن عمل الوالدين خارج المنزل مشكلة بحد ذاتها فهو لا يُبْقِي من الوقت إلا القليل ليقضيانه في المنزل، وبذلك ينعدم الترابط الأسري الذي كنت أدعو إليه من قبل، وتظل هذه المشكلة قائمة نظراً للحاجة الملحة التي تحتم على الوالدين العمل خارج المنزل لكسب عيشهم.

وفي الحقيقة هذه المشكلة قائمة بسبب التطلّع إلى شراء الكماليات والرفاهيات والحاجيات غير الضرورية. ولو عرفت الأم كيف تستثمر وقتها لتربية أولادها وآثرت أن تنفق وقتها في ذلك لأدركت أن هذا أهم من قضاء الوقت في العمل خارج المنزل من أجل جني المال الذي تنفق أكثره على ملبسها ومظهرها.

تقسيم العمل:

فلو أدرك الناس هذا، وقسّموا العمل كما كان مقسماً في

أيام آبائنا وفي أيام معظم جيلنا نحن، بين البيت الذي هو مملكة المرأة ومكان سيادتها، وبين تربية وتنشئة الأولاد على الخُلُق الحسن والقِيَم الحميدة والسلوك الحسن، وبين العمل المضني والمتعب، وما يستطيع الرجل القيام به لوحده بما يعود على الأسرة بدَخْل لا تحتاج فيه الوصول إلى مستوى الفاقة والحاجة والفقر. لو قسم العمل على هذا النحو لكان أكثر بركة للأُسرة من العمل الذي يكون خارج المنزل.

وألاحظ أن المرأة العاملة تحتاج إلى امرأة عاملة بديلة، فإما أن تأتي بخادمة أو أمها أو أم زوجها، أو إحدى الفتيات غير المتزوجات من الأسرة لتقيم فترة في المنزل أثناء غيابها، وهذا وإن كان فيه نفع أحياناً إلا أن ضرره أكبر.

والضرر يكمن في أنك لا تضمن نوع وأخلاقية وسلوك وعقلية وفكر من أتيت به إلى بيتك ليقوم مقام الأم في البيت، وينشىء الأولاد النشأة التي أنشأتهم عليها، وعندها لن تعرف ماذا يحب الأولاد وماذا يكرهون من تصرفات الشخص الذي أحضرته لهم.

فمن الممكن أن يقوم هذا الشخص البديل بتصرفات سيئة تجاه الأولاد، ويعمل بعدها على تهديدهم إذا أخبروا آباءهم وأمهاتهم بهذه التصرفات، وقد لا يحتاج إلى تهديد الأولاد فهم لا يدركون الخطأ من الصواب ولا يظنون ظن السوء بمن وثق به أهلهم.

ولا تضمن ما يحدثه هذا الشخص من فساد في الأسرة وخاصة مع الأولاد، فمن الممكن أن يجلس ويتابع إحدى المحطات الفضائية على التلفزيون ويشاهد برنامجاً غير أخلاقي فيشاهده الأولاد معه، ثم يفسد طبائعهم من خلال هذه البرامج وتكون النتيجة وبالاً على الأسرة.

الأم البديلة:

هذه المرأة البديلة هي امرأة نحن أخذنا وقتها وقدمنا لها مقابل لوقتها وخدماتها المال والملبس، وعلى الرغم من ذلك فهي لا تستطيع أن تحل محل الأم الحقيقية، ولا حتى أن تعطي العُشر مما تعطيه الأم لأولادها ولزوجها.

ويحدث هنا للأم أنها تركت مملكة الأسرة لتعمل في أي عمل من أي نوع كان؛ لأنها لا تريد أن يكون الرجل في البيت هو رئيسها وهو الذي يصدر الأوامر؛ لأنه إذا كان هو الذي يعمل وينفق فله الحق أن يقول نعم ولا، تعمل وتنفق مثله ويكون لها القول نفسه، مع أنها تعمل مع رئيسها ويكون رئيساً عليها ويكون الآمر والناهي، فهي ترفض الأمر والنهي في شأن أولادها وأسرتها وتربيتها التي تربيها وتنشئها، وتقبله في شأنها الخاص لأن زوجها لا يشعرها بقيمة عملها وبتقديره لها، ولكن في العمل تحصل هي على مقابل مادي يشعرها بعائد تعبها وببعض التقدير!

فاختلال هذه المعادلة الأُسرية هو نتيجة التوسع في عمل

المرأة دون الحاجة إليه، وأنا لست ضد عمل المرأة غير المتزوجة أو المرأة التي ليس لديها أولاد، أو المرأة التي كبُر أولادها ولم يعودوا بحاجة إليها، فكل هذا يجب أن يتحول إلى طاقة منتجة في المجتمع ـ، لكنني ضد عمل المرأة الذي تنهدم الأسرة من أجله، وضد عمل المرأة الذي يحرمها من حقها في أن ترعى أولادها كما تحب أن تربيهم وتنشئهم. وضد عمل المرأة الذي تقضي فيه طول النهار مع الرجال، وضد عمل الرجل الذي يقضي فيه طول النهار مع النساء، فتنقطع العلاقة الطيبة الرابطة بين الزوج والزوجة. وضد عمل المرأة الذي يؤدي إلى شعور الأولاد أن أمهم غير متفرغة لهم وغير مهتمة بشؤونهم، وأن الخادمة هي التي تقوم بدور الأم في كل شيء. هذا هو الذي يفسد الرابطة الأسرية التي ذكرتها.

والأمر الآخر هو الاهتمام بالأمور الشخصية، ولا نقصد هنا الأكل أو الملبس؛ بل الاهتمام بأمور دراستهم وعلاقتهم مع أصدقائهم، وكذلك سؤالهم عن أحوالهم وأين يقضون إجازاتهم.

فانقطاع هذه الصلة كلها يفسد العلاقة الترابطية في الأسرة. فمن المهم جداً أن يقوم الأب أو الأم بالاتصال بمدرسة أولادهم، إذ يوجد في كل مدرسة مجلس للآباء يعقد في مدة معينة يحددها مدير المدرسة للالتقاء بأولياء أمور الطلاب والطالبات حتى يناقشوا أوضاع أولادهم الدراسية والأخلاقية والنفسية، وحل المشاكل التي تواجههم.

من المهم جداً أن يتابع الوالد والوالدة هذه المجالس، كذلك حضور حفلات التخرج التي تقام في المدرسة حتى يَشعر الولد والفتاة أنهم جزء مهم في الحياة التعليمية، وكذلك يَشعر المُدرس أن هذا البيت مهتم بهذا الابن أو هذه الابنة، وتشعُر الأم أنها جزء من الحياة العلمية لأبنائها.

هذا كله يُحدث نوعاً من الامتزاج بين الآباء والأبناء وبين الصغار والكبار وينشىء الترابط الأُسري النافع. وما أجمله عندما يتحول إلى صداقة بين الآباء والأبناء عندما يكبر الأبناء.

الصداقة مع الأبناء:

والواجب في هذه الصداقة وإنشائها يقع أولاً على الكبار، أي: على الأم والأب؛ لأن الأولاد ينظرون إلى الكبار وكأنهم على رأس الهرم، وهم يطمحون إلى الوصول إلى أعلاه أي بالوصول إلى هؤلاء الكبار.

أحياناً لا يفهم الأولاد شيئاً مما يدور حولهم من أحداث أو مواضيع يسمعونها أو يشاهدونها؛ فهي بالنسبة إليهم عالم مغلق، والذي يفتح هذا العالم المغلق هم الأهل. فالصداقة لا تقوم فقط بين الأم وبناتها أو بين الأب وأولاده الذكور؛ بل أيضاً بين الأم وأولادها والأب وبناته. وهذه الصداقة قد تكون هي الأجمل؛ لأن هذا النوع من الصداقة ينشىء عشرات الأنواع من التعويضات النفسية والعاطفية التي تجعل البنات والشباب أي

الصبيان في حالة رضا وطمأنينة وسكينة نفسية تنشئهم نشأة سليمة وقوية وصحيحة.

الأب الذي يسعى إلى صداقة ابنه سيكون هو الرابح من هذه الصداقة وسيكون ابنه هو المستفيد. والاستفادة تكون بالمناقشة والنصيحة الصريحة والواضحة، بالتحدث عن كل أحوالهم وبتبادل الآراء لمعرفة الصواب من الخطأ، والخير من الشر.

لذلك على الأب أن يُشعر أولاده أنه في يوم من الأيام كان في هذا العمر وهذه السن، وأنه مر بالمشاكل والظروف نفسها والأمور التي يمر أولاده بها. وعليه أن يشعرهم بأنه ليس الوالد فقط بالنسبة إليهم؛ بل هو أيضاً صديقهم وأخوهم الأكبر ومعلمهم، فهذا الأمر يعزز الثقة بينه وبينهم ويجعلهم يرجعون إليه بمشاكلهم وبكل عمل يقومون به حتى لو كان سيئاً ليساعدهم على حله، وهذا ما ينشىء الترابط القوي والأساس المتين لبناء الأسرة الصحيحة ووضعها على المسار الصحيح.

فهذه الأسس يجب وضعها وغرسها منذ الطفولة الأولى للأولاد، فالنظرة الحنونة واللمسة المُخففة للألم هي من أسس هذا البنيان التي تعزز دور الصداقة بين الأب وابنه. وأنا أرى أن هذه الأمور تجري معاً ولا تتعارض، فالنصيحة والتربية والصداقة، كل هذه الصفات يكمل بعضها بعضاً وتصب في مكان واحد.

الصداقة تبدأ من اللحظة الأولى لمولد الطفل، وقد ذكرت كيف وجهت نصيحة لقاضٍ بينت له فيها كيف يعلم ابنه الرضيع وكيف يعامله، وكيف استجاب الطفل بعد مرتين أو ثلاث من النظرة والتأمل لما يقوله الأب، وهذا ينشىء صداقة غريبة بين الآباء والأبناء.

وكما قلت في إحدى مقالاتي القديمة: إن النظرة تفيد في الصداقة وكذلك اللمسة الحانية المخففة للألم أيضاً تفيد في الصداقة. وإن التربية والتربيت على الكتف والدعاء للابن عندما يذهب إلى الامتحان، كل هذه الكلمات تنشىء في نفسه شعوراً بالارتياح والطمأنينة إلى هذه الصداقة وشعوراً بالرغبة في استمرارها.

أعرف أولاداً يسألون أهلهم ماذا يحتاجون قبل أن يخرجوا من المنزل، وهذا يشعرهم بأنهم جزء مهم في العائلة وفي المجتمع أيضاً، وخاصة عندما تطلب منهم شيئاً ويحضروه يشعرون بأهميتهم أكثر وترى الفرحة في أعينهم.

فمثلاً عند عودة الأب إلى منزله نرى كيف تسرع ابنته إليه لتسأله عن تحضير الطعام له أو تحضير ملابسه، فهذه اللمسة من البنت هي التي تجعل الصداقة قائمة بينها وبين والدها، وكذلك الأمر بالنسبة للشاب.

وهذه اللمسة تساوي الدنيا وما فيها بالنسبة للأب. وهي أيضاً تُشعره بعد عمل مضنٍ خارج المنزل أنه عائد إلى واحته، وأن هناك من ينتظره ويشعره بأهميته الكبيرة بالنسبة لكل أفراد

عائلته وأنهم بحاجة إليه. وهذا التلاقي لا يصنعه يوم أو يومان؛ بل عمل على مدار سنين طويلة وحتى على مدار العمر كله.

ويبقى الأب والأم مع أولادهم على هذه الصلة مدى الحياة، وحتى عندما يكبرون ويتزوجون يبقى آباؤهم وأمهاتهم أصدقاء لهم.

وهذا ينشىء توالي التأسيس لصداقات ذات صلات حميمة بين الآباء والأبناء، وتوالي التأسيس للترابط الأسري الذي يجعل المجتمع كله مترابطاً ومحباً.

تنظيم اللقاء الأسري:

قد تحكم الظروف على بعض الآباء بألا يروا أولادهم لمدة ثلاثة أيام مثلاً، وعندما يعود الأب يجد أولاده نياماً، وعندما يصحون يكون هو نائماً وأحياناً يكون خارج البلد.

فإذا كان الوالد مسافراً فهو معذور، والمعذور ليس عليه شيء، فقد وضع الله عنه في السفر نصف الصلاة، ومن باب أولى يضع عنه الواجبات الأخرى، أما إذا كان الأب يعيش في مدينته ومع أولاده فإن التقصير يقع كله عليه، إذ لا يوجد عمل يحول بينه وبين أولاده.

فإذا كنت تصحو متأخراً عليك أن تقلّل من ساعات نومك حتى تصحو مع أولادك كي تكون معهم قبل ذهابهم إلى المدرسة، وتتناول طعام الإفطار معهم أيضاً كي يشعروا بأهميتهم

بالنسبة إليك، ولكي تكون على معرفة بأحوالهم وأمورهم ودراستهم ومشاكلهم.

وإن لم تستطع أن تصحو باكراً فاجعل لقاءك معهم على مائدة العشاء، نظِّم حياتك واجعل لهم الوقت الكافي، وبهذا تكون قد عوّدت نفسك على ذلك وهم تعودوا عليه وعلى وجودك في حياتهم.

هذا التنظيم ضروري ومن لا يفعله فهو مقصر، إذ لا يوجد عمل في الدنيا يأخذ أربعاً وعشرين ساعة، وكلنا سنموت ونترك وراءنا أعمالاً جساماً سينجزها غيرنا ومن يأتي بعدنا. أما إذا متنا وكنا مقصرين في حق أبنائنا فذلك لن يعوضه أبداً أي أحد في هذه الدنيا.

وأنا لم أسمعه من أبي؛ بل رأيته وعايشته في منزل أهلي عندما كان والدي يوقظنا عند صلاة الفجر، وكان يتناول طعام الإفطار معنا ويبدأ بالتحدث إلينا عن أمورنا ودروسنا وكل أمور حياتنا قبل ذهابنا إلى المدرسة.

وكنت أستغرب لماذا يختار النّاس وقت الطعام حتى يتحدثوا إلى أولادهم، وكانوا يقولون: متى نفعل ذلك ونحن نقضي أكثر الأوقات في العمل؟ فلم أجد وقتاً مناسباً أفضل منه.

وأنا فعلت ذلك مع أولادي وهم صغار، والآن أصبحوا كباراً وتزوجوا وأصبح عندهم أولاد وهم يقيمون معي في المبنى نفسه، لذلك لا أخرج من منزلي قبل أن أمر عليهم وأسألهم عن

أحوالهم، وهم أيضاً لا يخرجون من بيوتهم قبل أن يمرّوا عليّ ليسألوني عن صحتي وأحوالي وإن كنت في حاجة إلى شيء، ويطمئن أحدنا على الآخر. ونحن عادة نسهر قليلاً مع بعضنا البعض، ولا يمر يوم إلا ونرى فيه الأولاد ونجلس معهم.

ولقد مررنا بذلك ونحن شباب مثلهم، وكانت لنا أعمالنا وكانت كثيرة جداً وعلينا أعباء، ولكني تعلمت من أبي أن أقطع من وقتي ووقت راحتي؛ لأن راحتي الحقيقية أن أقضيها مع الأولاد.

وقد مَنّ الله عليّ أن أوصلهم يومياً إلى مدارسهم، وقد استمرّ ذلك لمدة عشر سنوات تقريباً، وكانت مرحلة رائعة. واستمر هذا الوضع إلى أن كبروا وإلى أن ترك آخرهم المدرسة، وكان هذا الوقت مهماً بالنسبة للأولاد.

وبهذا لا يكون هناك حجة ولا توجد أي حجة لأي أب أن يقول: أنا مشغول جداً ولا أستطيع أن أعطي وقتي للأولاد، فهذا لا يجوز ما دام يقيم في البلد نفسه وصحته جيدة، وقادراً على رؤية أولاده. ولا بد أن يرى أولاده لأن هذا حقهم عليه وسيُسأل عنه يوم القيامة.

أوقات الفراغ

يصرُّ بعض الشباب المتزوجين بعد الزواج على تمضية أوقات فراغه مع أصدقائه بعيداً عن زوجته وأولاده وأسرته.

والمسلم ليس عنده وقت فراغ، فيومه كله مشغول. وفقهاؤنا إذا أرادوا أن يذمّوا شخصاً يقولون عنه: «إنه من أهل إضاعة الأوقات» ويقولون عنه أيضاً: «إنه من أهل البطالة»؛ لأنه لا يفعل شيئاً في أوقات كثيرة من أجل مجتمعه أو دينه ودنياه يعود عليه بالنفع. لذلك فليس عند المسلم وقت فراغ هذا من ناحية، أما من ناحية ثانية فإن لأسرة الزوج عليه حقوق لو أداها لما بقي فراغ!!

الصداقة بين الرجل وزوجته:

إن كان الزوج في عمله فهو يسعى لتأمين الطعام والشراب والملبس وكل ما تحتاج إليه أسرته، وإن كان في وقت فراغه، أي: خارج العمل ولا عمل لديه، فمن حق أسرته عليه أن يكون معها، وأن يُنشىء صداقة بنّاءة، ويتقرب إلى زوجته ويقربها إليه بهذه العلاقة الطيبة.

فالمرأة تحتاج إلى الرجل كما يحتاج الرجل إلى المرأة،

وهذا الاحتياج ليس احتياجاً مادياً فقط، بل هو احتياج معنوي، وهو أهم من الاحتياج المادي.

وكما تحدثنا سابقاً عن الصداقة بين الآباء والأبناء، يجب أن لا ننسى الصداقة بين الأزواج والزوجات، فإن أقرب صديق إلى الرجل السويّ الطيب العادل هو زوجته، وأقرب صديق إلى المرأة السويّة الطيبة هو زوجها.

وأقرب الناس إليك وأحسن أصدقائك هو زوجك، وهو الذي ينصحك؛ لأنه يحرص عليك.

فإذا كنت على صواب قوّاك، وإذا كنت على خطإ نصحك؛ لأنه لا يحب لك أن تخطىء، ولأن خطأك عائد عليه، وهو صديقك الذي يَصدُقُك، إذ لا يمكن أن يغشك؛ لأن غشه لك عائد عليه هو. وإنشاء هذه الصداقة بين الرجل والمرأة أمر ممتع للمرأة وممتع للرجل أيضاً.

وأنا والحمد لله أنعم الله عليَّ بصداقة زَوْجَتَيَّ، فإذا عدت إلى المنزل ووجدت زوجتي مشغولة بعمل من أعمال المنزل المهمة لديها، أشعر أنني فقدت شيئاً مهماً؛ لأنني فقدت اللحظات الأولى التي أفضي إليها فيها بما حدث معي في ذلك اليوم.

وفي اللحظة الأولى من لقائنا اليومي أسمع منها تعليقاً على ما أُحدثها به منذ وصولي إلى البيت، ومن ثم نناقش بعض المسائل على مائدة الغداء أو العشاء. إلا أن هذه اللحظات التي

تبدو فيها هذه الصداقة الودودة، الصداقة الصادقة الحقيقية لا يجوز للرجل أن يفقدها.

وقد لاحظت في حالة الشباب الذين يتزوجون حديثاً أن الشاب لا يحب أن يغير من نفسه شيئاً بعد الزواج، بل يظل على علاقاته السابقة مع أصدقائه، ويظل يمارس هواياته القديمة مثل لعب كرة القدم أو الذهاب إلى المطاعم، أو إلى الحفلات الليلية ولا يعود إلى منزله حتى منتصف الليل أو حتى الفجر أحياناً، في الوقت الذي يكون فيه كل من زوجته وأفراد أسرته قد ناموا، وتكون زوجته ملّت من انتظاره بعدما أمضت يوماً مرهقاً من عملها في المنزل وفي رعاية الأطفال.

وإذا عاد إلى منزله إما أن يوقظها من أجل تحضير الطعام له، وإما أن يتركها نائمة إن لم يكن بحاجة إلى شيء. وبذلك يشعرها أنه غير محتاج إليها، كما يشعرها بانعدام قيمتها، وأنه مكتفٍ بحياته الخارجية وأنه مستغنٍ عنها، مما يجعلها تكره حياتها ولا تجد واقعاً داخلياً للبقاء والاستمرار معه. كما أنه بسهره المتكرر خارج المنزل مع أصدقائه السابقين يفقدها ثقتها بنفسها؛ لأنها ستشعر أنها لا تستحق أن يبقى ويسهر معها، وإلا فلماذا يتركها ويسهر مع أصدقائه خارج المنزل؟ وهذا يؤثر فيها تأثيراً نفسياً سيئاً جداً.

وأعرف شباباً في بلدنا مصر وفي مدينتنا القاهرة، يخرجون كل يوم خميس مع أصدقائهم الذين كانوا يعرفونهم قبل الزواج، ويبقون معهم طول الليل ولا يعودون إلى منازلهم إلا صباح

الجمعة، ثم ينامون حتى العصر أو المغرب، وتضيع عليهم صلاة الجمعة الواجبة على كل مسلم.

وعندما يستيقظون يمنحون لأسرتهم أو لزوجاتهم ساعة من النزهة أو زيارة لأحد الأقارب، ثم يعودون وهم يشعرون أنهم أرضوا ضميرهم؛ لأنهم أمضوا يوم الجمعة كله في المنزل مع عائلاتهم.

وهذا من أعظم الفساد؛ لأن الزوج لم يفعل شيئاً مفيداً أو صواباً، بل أشعر زوجته بالإهانة وعدم الحاجة إليها والاستغناء عنها، وأشعر أولاده أنه لا قيمة لهم في حياته، وإلا لكان قضى ذلك اليوم ـ الذي هو يوم الإجازة للجميع ـ معهم في البيت أو في مكان آخر.

العائلة والأسرة تاتي اولاً:

أنا لا أقول للناس: اقطعوا صِلاتكم مع أصدقائكم بعد الزواج، بل أقول: ليحدد كل زوج وقتاً قليلاً يقضيه مع بعض أصدقائه أو أحدهم، لتكن ساعة مثلاً في الأسبوع في أحد النوادي أو في منزل العائلة، وفي الوقت الذي لا يكون ضرورياً. وليكن اللقاء بين أسرة الزوج وأسرة صديقه إذا كان بينهما تآلف وتفاهم وصداقة.

فعائلتك وزوجتك وأولادك، والصداقة المنزلية، وتوطيد الصلة بامرأتك والإحسان إليها بهذه العلاقة المستمرة المستدامة أولى ألف مرة من الإحسان إلى نفسك في الاستمرار بالصداقة

مع أصدقائك، كما أنها تعود عليك بالفائدة عند الكبر. فإذا كان بر الأبناء لأهلهم في كبرهم رد فعل لبر آبائهم لهم عندما كانوا صغاراً، فكذلك صلة الزوجة بزوجها وحرصها عليه. فإن لم يحرص الزوج على حق زوجته في صداقته وبرها وهو بعد شاب قوي غير محتاج لها، لن تبره زوجته عندما يكبر وستهمله لأنها على مر السنين قد تضررت من إهماله لها ولم تعد لديها طاقة تحسن بها إليه أو لتهتم بأمره. وكما نقول في مصر «كل أمر وفعل هو سَلَفٌ ودين».

ومن الأحاديث التي وردت أثناء الفتن، عندما يكثر الهرج والقتل في الناس، قول الرسول ﷺ: **«فليسعك بيتك»**[1].

ومعنى الحديث أن لا تشارك في الفتن المقصود منها وقوع الفوضى بين الناس والقتل. إلا أننا نحن وللأسف الشديد نتعرض اليوم لفتن مسلكية وفتن أخلاقية وثقافية، تكثر كلما خرج الإنسان من بيته.

وهنا يصح هذا الحديث: **«فليسعك بيتك»**، في نصح الأزواج والزوجات أن يكونوا في صدد تكوين الأسرة السعيدة الطيبة أكثر من أن يكونوا في صدد الدخول والخروج والمتعة الشخصية ولقاء الأصدقاء.

فالنبيّ ﷺ كان يمضي الوقت في بيته ويشارك أفراد أسرته في أعمالهم، وليس هناك أعلى من هذه المشاركة، ولا مواساة

---

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 2406).

للنساء أكثر من هذه المواساة في حياتهنّ البيتية، ولا شيء يقوي أواصر الصداقة بين الزوجين أكثر من هذه المشاركة.

وإذا كنت تقضي معظم أوقاتك خارج المنزل، فمن أين تأتي المشاركة ومن أين تنشأ هذه الصداقة؟ فعلى الناس أن يسعوا إلى بيوتهم أي أن يكونوا عاملين على تربية هذه المبادىء وتوطيدها وتنميتها وتأكيدها. فإن مثل هذه العلاقات يستفيد منها الرجل والمرأة لا بل كل أفراد الأسرة.

رجحان العقل:

إذا كان الأب والأم في وادٍ والأبناء في وادٍ آخر، فإنّ المسؤولية وتقريب الفروقات في الاهتمامات الثقافية والاجتماعية تقع على عاتق الآباء والأمهات معاً؛ لأن رجحان العقل ليس وقفاً على الرجال أو على النساء، فقد يكون عقل الرجل أرجح أو قد يكون عقل المرأة أرجح، إلا أن خيرهما هو من يبدأ بإعادة الصلة إلى مجراها الطبيعي، وأحسنهما من ينصح ويؤكد على النصح.

وأفضل الطرفين الذي يقوم بهذا الإصلاح بالطريقة اللينة والطريقة الحسنة وبالرفق والحنو والمودة. فهناك الكثير من الرجال يحاولون الإصلاح في بيوتهم لكنهم يخفقون في ذلك لأنهم يعالجون الأمر بطريقة خاطئة فيفسدون هذا الإصلاح، وطريقتهم هذه تكون بالعنف أو الغضب واستعمال أسلوب الأمر والنهي.

دور الزوجة:

نجد من النساء من يعالجن الأمور بالبكاء أو العصبية الزائدة أو الشكوى إلى أحد الجيران، أو أحد الأقارب المقربين مثل والدها أو والدتها أو والد زوجها أو والدة زوجها، ويؤدي ذلك إلى الفضيحة بدلاً من أن يؤدي إلى السكينة والهدوء.

هذا الأمر يجب أن يعالج بالهدوء والرفق وبنَفَس طويل، ويجب أن يعالج بالإصرار وأن لا يُسْمَحَ لأحد الزوجين أن يفرط بحق زوجه عليه، ولا بحق أولاده عليه، ويفعل هذا مرة بعد مرة وأسبوعاً بعد أسبوع بكل الوسائل الممكنة شرط أن يصاحبه الرفق والحنو.

فإذا كان الرجل هو الذي يترك بيته ويهمل أسرته وينصرف إلى حياته الخاصة وأصدقائه، فعلى زوجته أن لا تشعره بتقصيره عن طريق الصراخ والعتاب واللوم الكثير؛ لأنّ هذا ينفره من البيت أكثر وأكثر. بل يجب أن تشعره أنهم بحاجة إليه وأنهم يسعدون بوجوده معهم. فإذا جاء إلى البيت وكان الأولاد نائمين فلتوقظهم كي يتناولوا الطعام أو يسهروا مع والدهم ولو لساعة أو أقل.

وعند خروجه عليها أن تبادله الحديث اللطيف متمنية عليه أن لا يتأخر كثيراً هذا المساء، وأن يأتي باكراً ليتناول العشاء مع الأولاد، ويسهر معهم لأنهم بحاجة إليه، فهذا يشعره بأنه محل

تقدير واحتياج ورغبة، ولا يشعره أنه مقصر مما يؤدي إلى انهيار البيت وتفكك الأسرة.

الحكمة والموعظة الحسنة:

إن الموازنة بين حق البيت وبين الوسيلة المثلى للحصول عليه تكون بالرفق واللين والحكمة كما قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

أي: ادعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن. وذُكرت الدعوة هنا في سبيل الله بالحكمة والموعظة، فما بالك بالأب والزوجة والأولاد؟ فهؤلاء هم أولى الناس باللين وخفض الجناح والرقة والمحبة. واكتساب المحبة لا يحصل بالطرد والترهيب؛ ولا بالعنف أو الغضب، بل بالكلمة الحسنة والابتسامة. فأنا أدعو كلاً من الزوجين إلى القيام بدوره على هذا النحو.

القرآن الكريم والسنة النبوية:

لا تزاد في بيت المسلم الطمأنينة عندما تقام به الصلاة، وخاصة صلاة الجماعة، وعندما يتحلق الآباء والأبناء حول قراءة القرآن، إضافة إلى أشياء أخرى يمكن فعلها في أوقات من النهار ويمكن استثمارها أفضل استثمار.

هذا معنى في غاية الأهمية وهو المعنى الذي تبنى عليه البيوت الصالحة المسلمة؛ أن يتصل البيت أولاً بكتاب الله تعالى، لذلك ما زلت أنصح الآباء الذين لم يتعلموا قراءة القرآن قبل الزواج أن يسارعوا بتعلّمه وتعليمه بعد الزواج؛ لأنهم سيحتاجون إلى تعليم أولادهم القراءة الصحيحة للقرآن، وسيحتاجون أيضاً إلى الجلوس مع أبنائهم وزوجاتهم لتلاوة كتاب الله ولو لدقائق كل يوم، وأن يعلموا أولادهم كيف يختمون القرآن ويسمعونه من أنفسهم.

وهذا كله لا يكون إلا إذا كان الأب محسناً لقراءة كتاب الله، لأن الأب الذي يحسن قراءة القرآن يحسن تعليمها لأبنائه، وإذا أحسن تعليمها لأولاده ظل هذا الكتاب متوارثاً. أما إذا قصّر في حق نفسه في شأن القرآن الكريم فهو حتماً سيكون مقصراً في حق أولاده.

أما الجلسة الثقافية للأسرة فهي مسألة غاية في الأهمية، فالسيرة النبوية مَعِين لا ينضب لتعليمهم وتفقيههم في دينهم وتربيتهم وتثقيفهم في الإسلام وفي الحياة العامة. لأن سيرة الرسول ﷺ هي مرآة للبشرية جميعها وهي المثل الأعلى للبشرية كلها.

كتب الشعراء العرب:

ثم «إن شعر ديوان العرب» هو أحد المصادر الثقافية

المهمة التي يجب أن تحتوي عليه مكتبة البيت، بالإضافة إلى مجموعة من كتب الشعراء العرب الكبار أمثال: المتنبي وأحمد شوقي.... إلخ، على أن تكون لدى الآباء والأمهات فرصة لقراءة الشعر لأولادهم ومناقشته معهم.

ولا نستغرب هذا لأن البيت الذي لا يعرف المتنبي وأحمد شوقي ـ وغيرهم من شعراء العرب المبدعين ـ لا يعرف تذوق الشعر العربي.

فيجب أن يكون هناك محتوى ثقافي متنوع في المنزل، فإذا تنوع هذا المحتوى أعطيت لكل نفسٍ ما تحب، وكلٌ ميسّر إلى ما خُلقَ له.

ونحن كنا قد خصصنا سهرة في الأسبوع لقراءة السيرة النبوية وأخرى للشعر العربي، وقد كان هذا الأمر من أولى تجاربنا في تربية أولادنا، فقد كنا ـ ولا زلنا حتى الآن وكل يوم ـ نقرأ القرآن صباحاً لفترة محددة، بحيث يقرأ كل فرد منا آيات إلى أن تتم قراءة ربع من القرآن، وذلك قبل خروجنا إلى أعمالنا وذهاب أولادنا إلى مدارسهم.

ولقد كان يوم الجمعة هو يوم عطلتنا وإجازتنا في بلادنا. وكان يوم الخميس بالنسبة لبعض الناس مخصص لقضاء تلك السهرة في مشاهدة حفلة غنائية أو سهرة مع أحد الأهل أو الأصدقاء، أما نحن فقد كنا نمضي تلك الليلة أو السهرة في قراءة مجموعة قصص كتبها حسن العشماوي (والد زوجتي الأولى).

وكان حسن العشماوي قد كتب هذه القصص أيام هروبه من الحكومة المصرية لمدة ثلاث سنوات في الصعيد عام 1954 ـ 1957م، حيث سافر بعدها إلى بلد آخر خارج مصر، ولم يقبض عليه حتى توفي سنة 1972م. في هذه المرحلة من حياته كتب عدة قصص منها خمسة عشرة قصة تحت اسم «سوق الخميس» وقد وضع فيها قِيَماً رفيعة، وقصصاً جميلة وأغاني من تأليفه من الشعر الشعبي العامي كتبها لكي تقرأها زوجته لأولاده في غربته. فقرأت معهم تلك القصص، وكذلك قصص السيرة النبوية.

وأصبحت أقرأ هذه القصص ليس لأولادي فقط؛ بل لأصدقائهم أيضاً، فقد كانوا يحضرون ويجلسون لسماع تلك القصص وهم في سن السابعة والثامنة. ولقد ظل ذلك الأسلوب التربوي وظلت تلك القصص راسخة حتى الآن في عقولهم وهم يحفظونها مني، حتى باللفظ الذي كنت أحدثهم به منذ تلك السنوات؛ لأنهم استمروا في حضور تلك الجلسات لمدة ثلاث سنوات كاملة. وسوف نتوسع في الكلام عن هذه التجربة لأهميتها وندرتها في زمننا الحالي.

السهرة الأسبوعية والسيرة النبوية

إن تجربة السيرة النبوية مع الأولاد بدأت مع ابنتَيّ الكبيرتين فاطمة وسلوى.

كنا في ذلك الوقت نقيم في مدينة الرياض بالسعودية، وكانت فاطمة في سن الحادية عشرة وسلوى في سن التاسعة، أي كانت الأولى في السنة الخامسة الابتدائية والثانية في السنة الثالثة الابتدائية، وكان يرافقهما في الجلسات ابن وابنة صديق لي، وكان ينضم إلينا عدد قليل من أبناء الجيران وبعض الأصدقاء. وكانت هذه الجلسة تعقد كل خميس من كل أسبوع؛ لأن اليوم التالي يكون يوم الجمعة وهو يوم الإجازة الأسبوعية في ذلك البلد.

بدأت معهم أولاً ملخص هذه السيرة النبوية، استخلصته لهم من كتب السيرة التي كانت ولا زالت موجودة في مكتبتي. وكان هذا الملخص بالنسبة إليهم مهماً جداً؛ لأنهم كانوا لا يعرفون إلا القليل عن سيرة رسول الله ﷺ وعن أمه آمنة وعن عمه أبي طالب، فبدأت معهم منذ البداية، أي منذ مولد الرسول ﷺ إلى وفاته، باختصار يتناسب مع أعمارهم. ووعدتهم

أنهم إن استمعوا معي هذا العام للسيرة النبوية المختصرة سوف أقرأ لهم العام المقبل من كتاب كبير.

فكانوا ينصتون ويستمعون مندهشين لهذه السيرة، وكانوا يسألونني أسئلة تدهشني أحياناً لعمقها، كما كانوا يدهشونني من وصولهم للب المعنى الذي أردته أن يصل إلى عقولهم بعبارات سهلة تناسب أعمارهم.

وفي العام التالي قرأت لهم كتاب: فقه السيرة للشيخ الغزالي رحمه الله؛ وبلُغَة الشيخ الغزالي الراقية وما يتبعه من بيت شعر أو من آية كريمة، أو نقل من كتاب قديم أو نص نبوي راقٍ. وكانوا يقرأون معي من الكتاب، وكنت أشرحه فقرة فقرة، أو أشرح آية أو بيت شعر أو الكلمة الصعبة، فكانوا في غاية الاستمتاع.

وبعد مرور عام قلت لهم: استمعنا إلى السيرة النبوية مرتين: مرة من عندي ومرة من الشيخ الغزالي، أريد أن أنقلكم إلى عالم آخر تستمعون فيه إلى السيرة بطريقة تلغرافية، أي تسمعون رؤوس المواضيع فقط، وأنتم تذكرونني بها وبما قلنا وأنا أقول لكم ما غاب عنّا.

وكانت هذه السنة الثالثة من سنوات قراءة السيرة النبوية وقرأنا فيها كتاب «جوامع السيَر» لابن حزم الظواهري وهو كتاب صغير جداً، كان بمثابة عناوين للسيرة النبوية. قرأت لهم مثلاً غزوة أُحُد وكيف وقعت وفي أي يوم ومن اشترك فيها، وكم كان عددهم ومن انتصر فيها؛ فكانوا يقولون: شارك فيها كذا من

المهاجرين والأنصار وكذا من الأوس والخزرج، وانتصر المسلمون لولا أن تخلف بعضهم وترك الأماكن التي كانوا عليها.

وكنت أحكي القصة بطريقة تلغرافية جداً، أي: مختصرة، فكنت أقول الجملة أو الجملتين، وهم يتذكرون ما سمعوه مني في السنتين الماضيتين؛ فكانوا يتذكرون أشياء وينسون أشياء أخرى فأكمل أنا.

ثم أقرأ على مسامعهم من كتاب موسع اسمه: «الروض الأنف في شرح حديث السنة النبوية» لابن هشام، وهو كتاب كتبه الإمام السهيلي. وهكذا استعنت في الشرح بكتاب «جوامع السير» لابن حزم، وكتاب «الروض الأنف» للسهيلي. هذه الدروس بقيت في نفوس هؤلاء الأولاد حتى الآن، وقد أصحبوا في عمر الثلاثين الآن وقد تزوجوا وأنجبوا الأولاد، وهم يقولون لي اليوم كلما التقينا نحن لا ننسى السيرة التي سمعناها.

مرت السنين وعدنا إلى مصر، وبعد أن توفيت أم الأولاد، كان أولادي الأصغر سناً أحمد ومريم وعبد الرحمٰن لم ينالوا في صغرهم هذا القدر الذي ناله الأولاد الكبار من السيرة النبوية.

فأعدت حديث السيرة النبوية في البيت للكبار والصغار وللجيران، وأصدقاء الأولاد، وكان من بين هؤلاء الضيوف ولد مسيحي يحضر معنا معظم قراءتنا.

وقد قرأنا في هذه المدة كتاب: «إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع» هذا الكتاب للمؤرخ المشهور المقريزي، وقد جمع فيه السيرة بأسلوب جميل. وكان يأتي بالذي صح عنده أولاً بالخبر الأصح، ومن ثم يأتي بالأخبار الأقل صحة مثل: قيل وقال وحكي، وهذا ما نسميه بصيغ التمريض وتعني: صِيَغ ما يأتي بعدها مضعفاً من الحديث.

وسألني ابني أحمد يوماً: لماذا يأتي هذا المؤلف بكلام من هنا وهناك، ثم يقول كلاماً وبعدها يقول غيره؟ فهذا غريب في التأليف.

وكان أحمد يدرس في مجال العلوم وفي كلية الصيدلة، وهذا طبيعي؛ لأنه لا يقبل إلا الحقائق والمعادلات. قلت له: ألم تلاحظ أنني ذكرت لكم أنه يأتي بالصيغة والرواية المقبولة عنده بصيغة الجزم، ويقول: حدث كذا، ويأتي بالرواية بصيغة التضعيف التي تعرف؟ قال لي: ولماذا يأتي بهذا وذاك أي من عدة مصادر؟ فقلت: ليعلمك أن المسألة ليست رأياً واحداً ولا قولاً واحداً، وإنما فيها عدة آراء وعدة أقوال وروايات، وينبغي عليك النقد والتثبُت.

وأنا لا أنسى شكل عينيه وأنا أشرح له لماذا أتى المقريزي بروايات متباينة في الموضع الواحد. كان ينظر إليّ ويقول: كأنه يريد أن يعلّم القارىء كيف يتثبت ويتحرّى؟ فأجبته: نعم هذا ما قصده. ثم هو ثبتت عنده الرواية الأولى، وهو يدرك أنه قد

يكون مخطئاً في شخص من الرواة أو قد يكون في الرواية الثانية ما هو أثبت من الرواية الأولى، أو قد يكون الاسم ملتبساً عليه، فمن الأمانة أن يوكل ما ورد في الموضوع كله.

وبعد قراءة كتاب: «إمتاع الأسماع» قرأنا كتاب: «الألف المختارة من صحيح البخاري» للأستاذ عبد السلام هارون، وهو يحتوي على ألف حديث مشروح ومُؤلف هو من أوثق كتب الحديث في شرح صحيح البخاري.

وقرأنا أيضاً قدراً كبيراً من كتاب: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية، وهو من أحسن كتب التفسير التي رأيتها.

تعلم الأولاد هذا لمدة سنين، ومضى هذا الدرس في البيت مدة طويلة جداً حتى سنة 2000، وفي تلك السنة نقلناه إلى جمعية مصر للثقافة والحوار بصورة أخرى.

وعندما أنشئت جمعية مصر للثقافة والحوار، نقلنا إليها هذا الكتاب والدرس المنزلي وسميناه: «منتدى الثقافة الإسلامية»، ونحن ما زلنا مستمرين فيه، ويحضره جمهور واسع وعدد أكبر من الناس وقد انتهينا الآن فيه إلى درس أصول الفقه.

وهذه الدروس عادت بالفائدة على أسرتنا، وهذه التربية الأسرية أفادتنا جميعاً في المنزل، أولادي وزوجتي وأنا شخصياً. فاستفدنا منها استفادة كبيرة لا يمكن إحصاؤها من التعارف والتآلف وعمق الثقافة واستذكار ما غاب عنا.

المنهاج التربوي:

هذه التجربة تعتبر تجربة نادرة، ونأمل أن يكون في وسع كل فرد أن يحققها في أسرته. إلا أن هذا يحتاج بداية إلى الاتفاق على منهاج تربوي بين الزوج والزوجة، ومن ثَم إلى مستوى من الثقافة والإدراك والفهم، ربما لا يتوفر عند كثيرين.

وفي الحقيقة إن كل أب وأم يستطيع أن يلفت انتباه أولاده إلى ما هو الأنفع والأجدى. والمسألة تحتاج فقط إلى حسن العرض والقدرة على التشويق، وهذه قدرة تُكتسب وليست موهبة فطرية.

وهي تُكتسب بقراءة الكتب النافعة، والسنن النبوية، وبقراءة الكتب الجميلة النافعة، والأحاديث النبوية الصحيحة التي هي أبلغ كلام بعد كتاب الله (القرآن الكريم).

فإذا اكتسبها الأب أو الأم أو هما معاً، وكانا متفقين على طريقة التربية حصل المطلوب، فمثلاً: إذا لم تحضر الأم الجلسات، فإن ذلك سوف يؤدي إلى انهيار المجلس، وإذا اختلفا وأخذ أحدهما يناقش الآخر بما يقوله، فهذا خطأ فادح يؤدي إلى فشل المجلس، وفساد التربية. لذا يجب عليهما الاتفاق على طريقة التربية الصحيحة، واستحضار المعاني الراقية والثقافة الإسلامية العربية، والإجماع على نقلها بأسلوب شيق.

وحدث ذات يوم أن تأخّر أحد الأولاد ـ الذين كانوا يحضرون معنا جلسات التربية والثقافة ـ عن حضور الدرس، فلم

يسمع ما تكلمنا به، وعندما انتهت الجلسة وخرجوا جميعاً كلاً إلى عمله أو منزله، جاء إليّ وسألني عما فاته وقال: أرجو أن تشرح لي ما فاتني لأنني تأخرت. فأحسست أنه مهتم كثيراً بأن يعرف ما فاته، فأعدت عليه ما فاته من الأحاديث وغيرها.

فمن واجب الأب أن يدرب نفسه ـ وهذا ليس صعباً ـ، وأن يكسب من المعلومات ما يستطيع، وأن ينقلها إلى أبنائه، وهذا الاكتساب ليس مستحيلاً، بل إن القعود هو الخطر والبقاء حيث نحن هو الضرر.

والاتفاق على المنهج التربوي بداية، وحسن اختيار الزوجة هو وضوح رؤية الهدف من الزواج وهو الهدف الأساسي الذي يقوم عليه الزواج الموفق الذي أسلفنا الحديث عنه. لأن الاختيار يبدأ قبل أن تنجب وقبل أن تقرر كيف تربي، وقبل كل ما تحدثنا عنه، وهذا الاختيار يؤدي إلى إحسان ذلك كله.

فإذا وفقك الله إلى حسن الاختيار، وكان هذا الاختيار مناسباً لما تريد أن تحققه في حياتك من أهداف، نجحت الرحلة كاملة. وإذا ابتليت بغير ذلك، فالله أعلم بما تستطيع أن تفعل وما لا تستطيع أن تفعل. وأنا أسأل الله لكل الشباب والفتيات حُسن الاختيار في الأزواج والزوجات لكي تنشأ الأسرة الصالحة إن شاء الله.

اللغة العربية الفصحى:

موقع اللغة العربية في الأسرة وتنشئة الأولاد على حبها أمرٌ

في غاية الأهمية، وما أحوجنا إلى أن تكون هذه اللغة في ثقافتنا وفي شخصيتنا العربية الإسلامية. لقد كنت أشعر أنا وزوجتي - أم أولادي - أن اللسان العربي يواجه مخاطر جمة. فقد كانت زوجتي تحب اللغة العربية، وكانت تُحسن قراءة الشعر وترتيل القرآن الكريم، فكان بيننا هذا الاهتمام المشترك في حب اللغة.

أما زوجتي آمال العشماوي فهي ابنة الكاتب والشاعر والمفكر الإسلامي الكبير والمحامي القدير حسن العشماوي، والذي كان والده محمد العشماوي باشا أحد واضعي قانون المرافعات المصري.

وكان والدها - وهو أحد أساتذتي - وكيل وزارة المعارف لأكثر من عشرين مرة وهو الذي «مصّر» التعليم، فنشأت في هذا البيت.

وهذا كله ساعدني على أن ينشأ أولادي قادرين على التكلم باللغة العربية الفصحى، بل هم من المحترمين لهذه اللغة احتراماً عظيماً، ويحسنون الاستماع إليها، ويفرقون بين المتكلم الذي يحسن التكلم باللغة العربية وبين المتكلم الضعيف الذي لا يستطيع أن يقيّم بلسانه جملة واحدة.

فإذا استمعوا إلى الأول رأيتهم يصغون إليه، أما إذا استمعوا إلى الثاني كانوا يضحكون منه وعليه. وكنا ولا نزال نقول لأولادنا: إن اللسان العربي هو المعبر عن وجودنا، وإن هويتنا لا تتحدد إلا بألسنتنا.

فإذا كان المتحدث أمامك إنكليزي الجنسية فهو: إما أن يكون من ويلز أو من أسكتلندا، فتعرفه من لكنته. وتعرف العربي بلغته، فإذا لم تستطع أن تُقيّم لسانك العربي فكيف سيعرف الناس أنك عربي؟ فنحن بذلك أنشأنا فيهم هذا الفخر بلسانهم العربي فأصبحوا يفتخرون بالتحدث باللغة العربية.

وفي البيت إذا تكلم على الهاتف أي إنسان من الأصدقاء من أي بلد عربي خوطب بلسان عربي مبين، أما إذا كان المتكلم أجنبي خوطب باللغة الإنكليزية الحسنة، وإذا كان المتكلم مصري خوطب باللهجة المصرية العادية نفسها، والأولاد يُحسنون كل هذه الطرق.

وابنتي مريم هي مهندسة معمارية ولم تدرس العربية إلا في المدارس، ولكنها تُحسن الإملاء، وتساعدني أحياناً في تصحيح بعض الكلمات. وفي إحدى المرات ردت على أحد المتصلين بي وكلّمته باللغة العربية الفصحى، فاستغرب طريقة ردها وسألني عن كيفية تنشئة الأولاد على حب اللغة العربية الفصحى ومدى أهمية هذا الأمر وانعكاسه على مجتمعنا.

إحسان اللسان العربي ضروري في كل بيت، فإذا استطاع الآباء والأمهات أن يكرّسوه في بيوتهم استقامت الألسن واستقامت الفِطر. لأن اللسان انعكاس للفطرة، والفطرة العربية السليمة يبينها ويظهرها اللسان العربي المستقيم.

والفطرة المعوجّة يظهرها اللسان المعوجّ الذي لا يستطيع أن يكوّن جملة عربية واحدة صحيحة، ولا بكلمة واحدة تعجب

السامع ويُطرب إليها إذا سمعها ووجدها في وضعها الصحيح.

والحمد لله لقد علمتُ أولادي هذا الإحسان **أولاً**: من القرآن الكريم، **وثانياً**: من الإصرار المستمر ـ لمن يحسن العربية منهم ـ على القراءة في الكتب العربية القديمة في الدروس التي ذكرتها.

إلى أن بدأت ظاهرة الكلمات المنبوذة تصل إلى آذاننا عبر شاشات التلفزة، وهي ليست سيئة، ولكن أردنا أن ننفرهم منها وقلنا لهم: إن هذه الكلمات قبيحة لها معانٍ سيئة لا يجوز للإنسان المحترم أن يتكلم بها.

فمثلاً: ظهرت عندنا في مصر كلمة «طناش» وهي تعني: فَوّت، أي لا تلق بالاً، فإذا استخدم أحد الأبناء هذه الكلمة أمامنا كنا نقول له: لا تتحدث بهذه الكلمة، وهل يوجد شخص محترم يقولها؟

وبعد مدة معينة سألني أحد أبنائي عن معنى هذه الكلمة بالضبط فهي لا تعتبر كلمة فيها قلة أدب، فقلت له: أجل هي لا تعتبر كلمة فيها قلة أدب.

بعد سنة عاد وسألني ابني عبد الرحمٰن ـ وكان طالباً جامعياً ـ عن وجه القبح فيها وما قلة الأدب فيها، فقلت له: معناها: فوّت، أي أن كلامه كلام فارغ وأنك تهزأ به، وأنك لا تُقيم له وزناً، فهذا هو معناها وليس كما تفهمونها أنتم الشباب.

والتربية حزم ورقّة في الوقت نفسه، ولين في غير ضعف،

وشدة في غير عنف، وبغير هذه المعادلة لا يكون هناك تربية. وأنت محتاج للاستمرار على الاثنين، لين بغير ضعف وشدة في غير عنف، بالإضافة إلى عنصر أساسي جداً في التربية هو احترامك لابنك ولابنتك، لأن الاحترام هو الذي يشعره بشخصيته وبضرورة أن يكون محترماً في ذاته، وهو من أهم الضروريات في تربية الأبناء.

المعادلة التربوية

قلنا إن المعادلة التربوية لين من غير ضعف، وشدة من غير عنف.

والتدليل ضرورة من ضرورات الحياة، ونتيجة من نتائج الفطرة السليمة عند الآباء والأمهات. لأن الطفل منذ بداية حياته يحتاج إلى قدر كبير من العواطف تعطى له عن طريق المداعبة والتدليل والملاعبة، وتقبيله واحتضانه إذا أصابه مكروه، ليخفف عنه الذي أصابه وهذا كله من التدليل المحمود.

وينشأ هذا الاحتياج مع الطفل منذ ولادته ومنذ طفولته الأولى ويستمر معه؛ لأن هذا التدليل هو أكثر ما يحتاج إليه الابن أو الابنة، فهو يمنحه الشعور بالطمأنينة، ومعنى التدليل عند الأبناء أن أهلهم يقلقون عليهم ويحرصون عليهم، وهذا كله يدخل في باب التدليل.

وكان الرسول ﷺ يُقبّل أحفاده الحسن والحسين، وقد رآه رجلٌ من المسلمين حديثي عهد بالإسلام فقال له: يا رسول الله، أتقبلون أولادكم! والله إن لي عشرة من الأولاد ما قبّلت

أحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: «وأَملِكُ إِنْ كان الله نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ»[1].

فتدليل الأبناء من الرحمة التي يضعها الله في قلوب عباده.

وفي حديث صحيح، فيما كان رسول الله ﷺ وهو على المنبر يخطب يوم الجمعة، فإذا بالحسن والحسين يدخلان إلى المسجد ويعثران في ثوبين طويلين ألبستهما إياهما أمهما فاطمة ، فنزل رسول الله ﷺ مِن على منبره وحملهما على يديه، وصعد بحفيديه إلى المنبر ليكمل خطبته بعد أن قال لأصحابه: « صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾ [التغابن: 15] رأيت هذين فلم أصبر»[2].

هذا النوع من العناية بالطفل يدخل في باب التدليل المطلوب الذي يجعل الطفل في حالة استقرار نفسي ضرورية لنشأته.

لكن الإهمال والضرر يبدآن عند المبالغة في التدليل، وعندما يكبر الطفل ويبقى مدللاً، ولا يراعى الفارق بين المرحلة الأولى ومرحلة التوجيه التي يجب أن يميز فيها بين الصواب

---

(1) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 5981)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 3665)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 6/ 56).

(2) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 1109)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3774)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 3600)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 1412).

والخطأ وبين ما يجب أن يفعله أو لا يفعله، أي إلى مرحلة التوجيه بالأمر أو النهي.

وعندما أقول التوجيه بالأمر والنهي لا أعني الشدة والقسوة، ولا أعني العنف الذي لا مسوّغ له ولا مبرر له، ولكن هناك أشياء يجب أن يفعلها وأشياء يجب أن لا يفعلها.

وإذا لم يراعَ هذا الأمر منذ بداية إدراك الطفل لهذه الأمور، فإنه من الصعب أن نغرس عنده الشعور بالمسؤولية بعد ذلك. وكثير من الآباء والأمهات يقولون: لم يَعُد هناك وقت أو فائدة، لقد تعود ما عودناه عليه! هذا قول خاطىء فباستطاعتك أن تصلح اعوجاجه في أية نقطة وفي أية مرحلة من مراحل الحياة كانت، وباستطاعتك أن تبدأ من النقطة الأولى، وباستطاعتك إصلاح ما فاتك إصلاحه في الزمن الأول. ولكن المهم أن يبدأ القائم على التربية مع من يقوم على شؤونه بتعويده على ما يجب فعله وما لا يجب فعله.

فإذا عودته مثلاً أن يرتب ملابسه في مكانها الصحيح، وأن ينظف المكان الذي جلس فيه والأواني التي أكل فيها، فإنك ستربي فيه خُلق التنظيم وخُلُق الطاعة. وهما خلقان مهمان في الحياة؛ لأنك لا تستطيع أن تعيش في فوضى، وعليك أن تطيع من عليك إطاعته من رئيسك في العمل، أو مدرسك في المدرسة، أو شرطي المرور في الشارع. . . .إلخ.

فأطفالُ الكثيرِ من أُسرنا يشعرون أنهم يتفضلون على

الأسرة بذلك ومنهم من يقول لأهله: ألم أرتب كتبي وملابسي؟ وهو يشعر أنه يفعل ذلك للأب أو للأم، ناسياً أنه يفعل ذلك من أجل نفسه؛ لأنه يجب أن يضع كل شيء في موضعه وأن يحترم البيت الذي يعيش فيه.

وهناك من الآباء والأمهات من يسارع إلى التنظيف والترتيب، وولده لا يزال جالساً على المائدة، فمثلاً يقوم الوالد بتحضير الفواكه وإحضار الماء لأولاده بينما أولاده يجلسون ينظرون إليه، وهو بذلك سعيد، إلا أن هذا الحال ـ إن استمرّ ـ ليس إلا دليلاً على البلاهة، ولا يمكن اعتباره مصدراً للسعادة، بل هو دليل على عدم القدرة على التمييز بين ما يجب أن يراعى فيه الابن ويدلل به، وبين التربية والتنشئة الصالحة.

فالتربية والتنشئة الصالحة تكون بأن يساعد الولد أبويه في شأن بيتهما وعملهما. والرسول ﷺ كان يقوم في شأن أهله بنفسه، فكيف لا نربي أولادنا على ذلك؟ كيف لا نعلمهم أن هناك حدوداً لا يجوز أن يُتساهل فيها ويسكت عنها؟ وهناك أمور لا يمكن تجاوزها أو السكوت عنها أو التساهل فيها لأن ذلك قد يؤدي إلى أن يخرج إلى الدنيا إنسان أناني لا ينظر إلّا إلى نفسه ولا يبحث إلّا عن ذاته، ويحب نفسه ويرى أنه دائماً على صواب والآخرين على خطأ.

وأود التنبيه إلى مسألة في تربية الصغار وهي: أنه إذا عَثَر الطفل في مشيته الأولى وسقط أرضاً يرى أمه تقول له: إن هذه الأرض سيئة فاضربها، أو إذا اصطدم بكرسي تقول له: اضرب

هذا الكرسي، وهذا خطأ لأن ذلك يشعره أنه لم يخطئ، بل كل شيء حوله هو من يخطىء.

أما إذا قيل له أن عليه الانتباه في مشيته، وعليه أن ينتبه من الكرسي الذي أمامه ويأخذ حذره ففي المرة القادمة لن يسقط ولن يتعثر. وهذا المنهج ينشئ شاباً وفتاة صالحَين، بعكس المنهج الآخر الذي ينشئ شاباً وفتاة غير صالحين، ومدللين وفاسدين ولا يرَيا إلا نفسيْهما.

التدليل المذموم:

والتدليل المذموم هو تلبية كل الطلبات التي يطلبها الولد من أبويه. فالواجب على الآباء أن يربوا أولادهم على نوع من الاكتفاء بالقليل، والتمتع بالمعقول الذي لا يتجاوز قدرة الآباء على الإنفاق إنفاقاً بسيطاً حلالاً، ومما هو من كسبهم لا من الديْن، بحيث يضطرون إلى دفعه لاحقاً إلى البنك أو إلى غيره.

ومن التدليل المذموم كذلك تلبية نفقات الأولاد المبالغ فيها كإعطائهم كل ما يحتاجونه بحيث يظنون أن الأب قادرٌ على تلبية كل طلباتهم.

فإذا تجاوزوا بطلباتهم المعقول لم يَعد الأب قادراً على أن يقول: أنا لا أستطيع وأنا لا أملك؛ لأنه لم يعلّمهم من قبل أن هناك حدوداً لطلباتهم.

والآباء العقلاء يقولون: إن هناك حدوداً لكل شيء، ويقولون بصراحة لأبنائهم ما هي حدود طاقاتهم، وأنهم لا

يستطيعون أن يؤمنوا لهم كل ما يطلبونه، وأنهم سيحملونهم فوق طاقتهم واستطاعتهم.

وهذا يذكرني بالقصة العربية القديمة، قصة رجل مرّ به بائع جِمال، وكان معه ولده فقال له: أريد أن أشتري جملاً، فسأل الوالد البائع: كم ثمن الجمل؟ فقال له البائع: هو بدينار. فقال لولده: نحن لا نستطيع أن نشتريه لأنه غالٍ، ولم يشتر الجمل.

وبعد مرور شهرين مرّ رجل آخر يبيع الجمال، فسأله الوالد: كم ثمنه؟ قال البائع: عشرة دنانير، فاشترى منه جملين واحد للولد وآخر لأخيه، فتعجب الولد من ذلك وقال لأبيه: منذ شهرين كان الجمل بدينار ولم تشتره، أما الآن وقد أصبح بعشرة تشتري اثنين؟ فقال له والده: نعم، منذ شهرين لم يكن معي إلا ديناراً واحداً فلم أستطع أن أشتريه وإذا اشتريته سوف نصبح مفلسين، أما الآن وقد أصبح معي مئة دينار فأستطيع أن أشتري اثنان ويبقى ثمانون ديناراً أخرى.

فالأب هو الذي يضع الشيء في موضعه الصحيح فيعلّم ابنه أنه لا يستطيع فعل إلا ما يقدر على فعله. والأم ينبغي أن تساعد في ذلك وتوضح للأولاد أن طاقة أبيهم المالية محدودة.

عندئذٍ تنشأ في الأولاد خصلتان مهمتان، الأولى: خصلة أو عادة احترام الحلال؛ لأن الأب الذي يأتي بالمال من الحلال لا من الحرام ماله محدود. والخصلة أو العادة الثانية هي: أن يضعوا المال في موضعه الصحيح؛ لأن المال عصب الحياة،

فإذا أنفقناه يميناً وشمالاً في غير موضعه كنا مسرفين، والله ينهى عن الإسراف، والله لا يحب المسرفين.

ومرة بعد مرة تتربى نفس الطفل على المحافظة على المال، وأن المال الذي كُسب بتعب وحلال ينبغي أن ينفق في شيء ذي بال وحلال وله قيمته.

أعرف امرأة فاضلة وعاملة عندها ابنتين عاملتين أيضاً، كانت إحداهما تطلب منها أن تحضر لها نوعاً من الخبز الخاص بالحِمية، وإذا تأخرت الأم في عملها ولم تحضر الخبز الذي طلبته منها تخاصم الفتاة أمها ثلاثة أيام! مع العلم أن بائع ذلك الخبز قريب جداً من منزلهم، وباستطاعة الفتاة إحضاره بنفسها، لكنها تعودت أن تدللها والدتها ذلك الدلال المفسد.

وتشكو لي هذه المرأة أنها كلما أرادت الذهاب إلى مناسبة عائلية ترفض البنتان الذهاب معها، وتتركانها تذهب وحيدة. أما في يوم الإجازة فكانتا تقضيانه خارج المنزل مع صديقاتهما، أو في الترفيه، وتتركان والدتهما لتقوم بكل أعمال المنزل وحدها.

من أين جاء هذا السلوك السيىء لدى البنتين؟ جاء من إفساد المرأة لابنتيها بالتدليل أول الأمر. ولو أنها وضعت لهما الحدود منذ الطفولة، وأظهرت لهما أن عليهما واجباً وأن قدراتها محدودة، وأنهما لا تستطيعان أن تتخطّيا الحدود التي رسمتها لهما، لما بلغا من سلوكهما ما تعاني هي منه الآن.

أحد أصدقائي القدماء يعيش في أمريكا منذ أكثر من عشرين سنة، وعندما جاء إلى القاهرة مرة، مكث عشرين يوماً ولم يذهب لزيارة أبيه الذي تجاوز التسعين عاماً، وهو رجل مقعد لا يستطيع التحرك. بل أقام في مكان آخر، أي غير المكان الذي يسكن فيه والده. وعلمت من صديق آخر أنه تحدث مع والده هاتفياً فقط.

فكل الذي استطاع أن يفعله هذا الابن من البِرّ هو أن يتحدث مع والده هاتفياً فقط، بعد غياب عشرين عاماً في بلاد الغربة، وبعد عشرين يوماً من عودته إلى بلده. فكيف لم يرق قلبه لزيارة أبيه منذ وصوله!

ولما ناقشت ذلك مع صديقي الذي أخبرني بهذه الواقعة قال لي: هل تذكر أنه عندما كان هذا الولد صغيراً مع إخوته الأربعة كان هو الأكثر حظاً والأكثر نصيباً من التدليل من أبويه؟ فدفع الثمن والده من هذا التدليل في كبره، وكانت النتيجة أنه لم يزره حتى ولو مرة في العشرين يوماً.

لذلك أنصح الآباء والأمهات أن لا يسرفوا في التدليل فلا يتجاوزوا به الحدّ ولا يمنعوه كلياً؛ لأننا سندخل هنا في العنف الذي هو غير مطلوب. من هنا يجب أن يكون الميزان عادلاً وأن تكون الكفتان متعادلتين.

التدليل المعتدل:

والحمد لله لقد نال أولادي قسطاً من التدليل الجيد، فمثلاً

عندما كان يخطىء أحدهم وأريد أن أحاسبه على خطئه، لم أكن أوجّه له كلاماً مؤذياً يؤذي مشاعره، بل كنت أقول له: يا رجل، هل هناك رجل يفعل كذا وكذا؟ فكنت أرى الخجل في عينيه والندم على فعلته. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الفتاة، إذ كنت أقول لها: أنت ابنة فلانة وابنة فلان، هل ابنة فلان تعمل كذا وهل تقول كذا؟ وإذا عرفت صديقاتك أنك تفعلين ذلك هل ترين أنهن سعداء بذلك؟ فتشعر أن تلك هي أكبر عقوبة تقع عليها.

ثم إنهم كانوا يحسنون، وكنا عند الإحسان نقدم للمحسن منهم جائزة لا يُغَالَى فيها، تجعله يشعر أنه تميّز بها عن إخوته لأنه أحسن في هذا الموضع. وفي أغلب الأوقات كانت الجائزة كتاب أو قصة، فمن يحب القصص نحضر له قصة، ومن يحب العلم نحضر له كتاباً في العلم، ومن كان يحب الرسم نحضر له دفتراً وأقلاماً للرسم.

وأذكر أننا اشترينا يوماً معملاً كيميائياً بسيطاً لأحد الأولاد، وفيه مواد كيميائية حقيقية، ومعه كتاب مرفق بهذا المعمل، وكنا قد انتقلنا إلى منزل جديد، وكان هذا الولد فَرِحٌ بمعمله وبدأ عمله فيه، وفجأة انفجر شيء في هذا المعمل وبدأت تلك المواد تسيل على السجادة، فاتسخت واجتمعت العائلة على صوت الانفجار وقد أصابنا الأسى فقلت له: ماذا فعلت؟ فقالت لي أمه: إن إناء الدواء انفجر، ثم قالت لي: عليه أن ينظف هذه الأشياء بنفسه وعليه أن يعرف كيف يستعمل معمله بالممارسة.

وفعلاً بعد يومين نظف المعمل ونظف السجادة، وتعلّم كيف سيستعمل أواني معمله في المرة القادمة. وكانت مكافأته أن اشتريت له معملاً أكبر؛ لأنه تعلم استخدام هذا المعمل بطريقة جيدة.

والنوع الثاني من التدليل مهم جداً وهو الصحبة. فكانت والدتهم تقول لهم: اليوم كنتم ممتازين، وغداً ستخرجون مع والدكم لتتناولوا الغداء في الحديقة. ثم نخرج جميعاً لنتناول الطعام وكنا نحكي القصص والشعر أثناء الطعام. لقد نالوا هذا النوع من الرفق الذي لا أسميه تدليلاً مفسداً ولا أسميه عنفاً. الحقيقة أن العنف ربما استعمل في بيتنا مرة أو مرتين في تربية الأولاد الخمسة، في حوادث يمكن أن تستعمل فيها الشدة وقد كانت حوادث لحظية وقليلة، والحمد لله لم يعد إليها من فعلها، وهكذا استمرت السفينة في خير والحمد لله.

وبذلك نختم أن التربية لين بغير ضعف وشدة بغير عنف، هذه المعادلة إذا اختلت تركت آثاراً سلبية وإذا استقامت أنتجت شاباً وفتاةً متوازنين.

عبادة الله ﷻ

هناك قِيَم يجب الحرص على أن ينشأ عليها أبناؤنا خصوصاً أن هذه القِيَم والمفاهيم تُحارب، ويحاولون إلغاءها من قاموسنا الأُسري. فعنصر الغزو الثقافي والفكري والتربوي هو المهيمن على مشاعرنا دائماً.

وهناك محاولة دؤوبة مستمرة لخلعنا من قِيَمنا الثقافية والتربوية والخُلقية، وهناك تقصير من جانب الكثير منا في الاستمساك بهذه القِيَم واستعادتها واستحضارها، وأنا أبدأ في مسألة القِيَم دائماً بقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6].

فأنا مأمور وكل مسلم مأمور أن يمنع أهله ونفسه من دخول النار، والرسول ﷺ ضرب لنفسه وللمؤمنين مثلاً للناس وقال: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادبُ والفراشُ يقعْنَ فيها، وهو يذبُّهنّ عنها، وأنا آخذٌ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلّتون من يديّ**»[1].

فمهمة المسلم الذي يرى نفسه من ورثة الأنبياء ـ وكل مسلم أُوتي علماً، أوتي حظاً من وراثة النبوة ـ مهمته الأصلية

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 5917)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 3/ 392).

هي أن يُبعد نفسه وأهله عن النار. ولكن كيف يتم ذلك في المجال التربوي الذي تحدثنا عنه؟

يتم ذلك باستحضار القِيَم القرآنية والنبوية في التربية، وهذه القِيَم كثيرة لا تُحصى.

وأول شيء أراه أن القرآن الكريم ربى الإنسان على التوحيد، وربى المسلم على أن يكون الله تبارك وتعالى هو القوة الوحيدة التي يلجأ إليها ويخاف منها ويطلب منها أيضاً.

وهذا ما عَبّر عنه كتاب ابن تيمية في رسالته الجميلة، «رسالة العبودية» فقال: «كلما ازداد المرء عبودية لله كلما ازداد عِزة وحرية عمن سواه، كلما ازداد المرء شعوراً أن هذا الإله الواحد، هو ربه الوحيد وليس له رباً غيره، كلما ازداد قوة في مواجهة أعدائه ومن يعتدي عليه وعلى حقوقه في هذه الحياة».

والقرآن الكريم يقول للناس: إنهم ليسوا عباداً إلا لله تعالى وحده: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: 163].

فإذا أراد المسلم أن يكون عبداً لله تعالى، فإنه يستمد من هاتين الصفتين الربانيتين العظيمتين: الرحمٰن والرحيم، فيكون هو الرحيم، وهي صفات دائمة له، ويستمد من هاتين الصفتين خلقه وسلوكه في بيته ومع أولاده ومع زوجته.

وينهانا الله ﷻ أيضاً في القرآن الكريم عن الإشراك به،

فيقول في كتابه العزيز: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 19].

البراءة من الشرك:

والبراءة من الشرك تعني عدم اللجوء إلى ذوي الحَول والقوة، وتعني: التخلص من الخوف من ذَوي الجاه والسلطان، وتعني الإحساس أن كرامة الإنسان مستمدة من إيمانه.

فإن استمد الإنسان كرامته من إيمانه اطمأن قلبه إلى أن الله معه وأن القدرة الإلٰهية تقف إلى جانبه وأنّ قدرته جلّ وعلا تعينه، وأن طاقاته البشرية المحدودة وراءها قدرة ربّانية وقوة ربانية لا حدود لها، ولا يستطيع أحد أن يغلبها؛ لأنه من يكن الله معه لا تستطيع الدنيا كلها أن تقف في مواجهته.

التوحيد وانعكاسه على التربية:

التوحيد الخالص هو الوقاية الدائمة والعلاج الناجح من جميع أدوات القهر والطغيان. وهو الذي ينشىء الشاب أو الفتاة كل منهما حريصاً على حريته في المجالات كافةً، فلا يقبل أن يظلمه أحد، أو أن يطغى عليه أحد، أو أن يهينه أحد؛ لأنه يرى نفسه عبداً لله وحده، ولا يقبل مذلةً إلا لله وحده في السجود والركوع.

فهو مثلاً لا يقبل أن يسيىء إليه رئيسه في العمل، أو مُدرسه في المدرسة، أو أن يطغى عليه حاكم.

أما ما عدا ذلك فكل الناس عنده سواء، وهو يستطيع أن يناقشهم وأن يوقفهم عند حدهم، وأن يتحمل ما ينزل عليه من عقاب؛ لأنه بهذا العقاب يكبر في نفسه وفي نظره إلى ذاته ويشعر بعبوديته لله تعالى.

وفي أيامنا هذه نرى مبدأ القوة هو السائد. انظر إلى المدرسة فهناك من يحاول أن يقهر الطلاب، وانظر إلى الإنسان في عمله فهناك أيضاً من يحاول أن يقهره، وانظر إلى المواطن العربي في أي بلد عربي، تراه مقهوراً قهراً لا ينتهي منذ خروجه من منزله إلى حين عودته إليه ليلاً.

فكيف يتخلص الناس من هذا الشعور بالظلم والقهر وهذه التبعات التي تصيب بالإحباط؟ هذه الحياة المليئة بالتعب والقهر والاستعباد والغضب واللعنة، لا يمكن للمرء أن يتخلص منها إلا في حالة شعوره بالتوحيد الحقيقي وشعوره بالعبودية الخالصة الحقة لله تعالى.

وأنت حين تربي الأولاد على عبودية الله وعلى التوحيد الخالص، تبث فيهم الشعور بالحرية في مواجهة الحاكم الظالم، وتبث فيهم الشعور بالاستقلال عن الطاغية الذي يحاول أن يستعبدهم بغير وجه حق. وهذا أول أثر تحدثه التربية الإيمانية في النفس الإنسانية، وهو أثر يبقى مع الأيام ولا يزول؛ لأنك إذا غرسته في الصغر فهو كالنقش على الحجر لا يذهب مع توالي الليالي ومرور الأيام.

هذه أول قيمة ينبغي أن يُرَبَّى عليها الإنسان من القِيَم القرآنية وهي من القيم الأساسية في التربية، وعلى الأب أو الأم أن يكونا القدوة من خلال تطبيقهما العملي لهذه القيمة، فعندما يرى الولد أن والده مستقل بآرائه وبقراراته لا يخشى في الله لومة لائم، يكتسب هذه الاستقلالية ويتحقق عنده معنى التوحيد لله تعالى.

عندما وقعت الحرب العالمية الثانية ما بين 1939 ـ 1944م كانت بريطانيا قد احتلت بلدنا مصر. وفي سنة 1942 وصل الألمان إلى حدود مصر وكانوا على وشك الدخول إلى منطقة العلمين فيها، وكان أبي يعمل مديراً في فرع من فروع وزارة المواصلات كما نسميها الآن ـ وهي مصلحة التلفونات كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت ـ، وكان المدير العام لمدينة الإسكندرية كلها ضابط في الجيش البريطاني.

وفي أحد الأيام ذهب أبي إلى عمله فوجد الضابط ـ على غير عادته ـ قد وصل قبله إلى المصلحة وأرسل بطلبه مع سكرتيره، وعندما دخل والدي إلى مكتبه وسأله عن السبب في طلبه، طلب منه الضابط الجلوس وقدّم إليه القهوة، وأخذ يحاوره ويناقشه ويسأله قائلاً: إن الألمان على وشك الدخول إلى الإسكندرية فإلى أين ستأخذ أسرتك وأنت تعلم أنهم يعتدون على الأطفال والنساء، وهم قساة وغلاظ وأذاقوكم ذل الاستعمار، فقال له والدي: لن آخذهم إلى أي مكان؛ لأن الألمان محتلون وأنتم كذلك محتلون، ولو استطعنا مقاومتكم

لقاومناكم وأخرجناكم من بلادنا، وكذلك الألمان إن استطعنا أن نقاومهم فسنفعل معهم الأمر نفسه.

وفي هذا الوقت كان الضابط يتناول قهوته أيضاً فسقطت على الأوراق التي أمامه عندما سمع كلمة المقاومة من والدي. فهذه الكلمة ألقت الرعب في قلب الضابط الإنكليزي بمجرد سماعها فقط فعمل على طرد والدي من مكتبه. وكان والدي موظفاً صغيراً، ولم يمنعه ذلك وهو بحاجة - بل وبأشد الحاجة - إلى تلك الوظيفة، وكان الإنكليز محتلين ولو طُرِد لبقي دون وظيفة فكيف سيكسب رزقه؟

قلنا لوالدي: كيف فعلت ذلك وأنت تعرف أن هذا الرجل ظالمٌ وقاسٍ، ومن الممكن أن يقوم بطردك من الوظيفة وهي حياتك؟ فقال والدي: عندما بدأ يتكلم تنبأت بما سوف ينتهي إليه حديثه عن الألمان ففكرت في نفسي وقلت: ماذا أجيب هذا الطاغية المحتل، هل أُجامله أو أنافقه؟ أو أقول له الحقيقة؟ فقررت أن أقول له الحقيقة متكلاً على الله سبحانه، وعندما قلت له ذلك رأيت في عينيه الضعف، فارتجفت يده وسقطت القهوة منها.

قال لي شيخنا الجليل الشيخ محمد الغزالي رحمه الله - وكم استفدت من صحبته على مدى ثلاثين عاماً - أنه كان مرة في لقاء جمعه بحاكم دولة عربية كبرى. وأثناء الحديث تفوه هذا الأخير بكلام لم يعجب الشيخ فرد عليه رداً قاسياً وشديداً، وعندما سألته: كيف فعلت ذلك يا مولانا أمام الناس وأمام

شخص مثله وأمام العلماء؟ قال لي: والله لقد تصورته أمامي فأراً ميتاً وما كنت أشعر أنه زعيم ورئيس فهو لا يملك القيادة ولا القدرة.

من أين استحضر أبي هذه القوة؟ ومن أين استحضر هذا الشيخ هذه القوة؟ استحضرها من شدة الإيمان بالله تعالى، ومن عمق الإحساس بكلمة: الله أكبر. هذه الكلمة التي نقولها في صلواتنا في الليل والنهار ونحن لا نعرف كيف نترجمها، هذه المواقف الكثيرة وأمثالها التي لا تحصى هي ترجمة لعبارة: الله أكبر.

وعندما كان أخونا العزيز العلامة الدكتور أحمد العسال أستاذاً في إحدى الجامعات العربية، أرسلت الدولة التي كان يعمل فيها طائرة مجانية إلى دولة مجاورة مليئة بمشجعي كرة القدم، وخسر فريقهم المباراة فأحدثوا شغباً ـ وكانت فتنة بين الدولتين ـ وعادوا إلى بلدهم.

وفي أول محاضرة ألقاها الدكتور بعد هذه الحادثة تحدث عن الإسراف في العالم الإسلامي، وعن سوء الأخلاق في المباراة الرياضية التي هي منافسة شريفة فكيف تتحول إلى معارك؟ وكذلك إفساد المال العام للمسلمين، وانتقد هذا الوضع بشدة فاسْتُدعي من قِبل الدولة وإحدى الوزارات، وقابل رئيسها وكان من الأسرة الحاكمة، فقال له: نحن نأخذ عليك وأنت رجل عالم أنك تنتقد الدولة علناً وأمام طلابك الجامعيين، فقال له الدكتور أحمد العسال: نحن أطباء الناس، قديماً قال الشاعر:

يا معشر القُرّاء يا ملح البلد   من يصلح الملح إذا الملح فَسد

فنحن لا نستطيع أن نوجه طلابنا بغير الدواء الناجع لأمراضهم. وكنت أظن أنك ستلومني إذا لم أفعل هذا، أما أن تلومني لأنني فعلت ذلك فهذا أمر عجيب منك. فقال له: أنا لا ألومك لكنني أردت أن أعرف ما وجه النصيحة التي ستوجهها إلينا وكيف نفعل في المرات القادمة.

لقد انقلبت الآية فوراً وانقلبت المقابلة، وأصبح اللقاء لقاءً ودياً، وعاش الدكتور عشرين عاماً في ذلك البلد معززاً ومكرماً مرموقاً؛ لأنهم عرفوا أنه لا يخاف إلا الله ﷻ.

هذا الشعور لا يغرس إلا بغرس الإيمان في نفس الطفل، وبعد ذلك تأتي القِيَم الأخرى الكثيرة التي يربى عليها الإنسان، مثل قيمة الصدق.

آفة الكذب:

القرآن الكريم يربي الإنسان على الصدق في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

والكذب آفة من الآفات الكبرى في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، فمن أين جاءت؟

جاءت من عدم غرس قيمة الصدق في نفوس الصغار، وقد سُئل رسول الله ﷺ: هل يكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم»،

وهل يكون المؤمن بخيلاً؟ قال: **«نعم»**، وهل يكون المؤمن كذاباً؟ قال: **«لا، المؤمن لا يكون كذاباً»**(1).

وهذا يعني: أن الكذب يخدش إيمانه وينقص من قيمته ويقلل من قدره؛ لأنه لا يمكنه أن يلقى الله بهذا الكذب: يقول الحديث الآخر أيضاً: **«إن الصدق يهدي إلى البِرّ، وإن البرّ يهدي إلى الجنة، وإنّ الرجل ليصدق حتى يكون صدّيقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»**(2).

وهناك حديث ثالث أيضاً: **«لا يزال المؤمن يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، ولا يزال المؤمن يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً»**(3).

وفي الآية الكريمة قال الله تعالى: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: 60]. أي: تسودّ وجوههم يوم القيامة؛ لأنهم كذبوا على الله فكيف إذا كذبوا على الناس؟

وقديماً حُكِيَ عن الإمام البخاري، أنه ذهب يوماً إلى رجل لينقل عنه حديثاً فوجده ينادي الماشية التي يرعاها للدخول إلى حظيرتها وطرف ثوبه مرفوع كما لو أن فيه حَبّ، وعندما

---

(1) أخرجه الإمام **مالك** في «الموطأ» (الحديث: 1913).

(2) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 6094)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6580) و(الحديث: 6581)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 1/ 384).

(3) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 6582).

نظر إلى ثوبه لم يجد فيه شيئاً، فعاد أدراجه ولم يكتب عنه أي حديث، فناداه الرجل وقال له: ماذا تريد ومن أنت؟ قال له: أنا محمد بن إسماعيل ـ أي البخاري ـ وجئت أسألك عن حديث كذا وكذا، فقال له الرجل: ولماذا رأيتك قد عدت! فهو عندي وهو عن فلان... وبدأ يذكره له. فقال له الشيخ: لا حاجة لي به منك، قال الرجل: كيف وقد جئت من أجله؟ قال الشيخ: لقد رأيتك تكذب على خلق الله، فمن يضمن لي أن لا تكذب على الله؟

هذه الرواية تدلُّك على أن الروح التي سيطرت على المسلمين منعتهم من الكذب، وأنشأتهم على الصدق، وربتهم أن الكذاب لا يؤتمن على شيء.

ولو أن الآباء ربوا أبناءهم على الصدق وترك الكذب وعلّموهم أن الكذب مهلكة والصدق منجاة كما جاء في الأثر، كان المجتمع المسلم والأسرة المسلمة على النحو الذي نحب، ومثل ذلك تربيتهم على جميع القِيَم القرآنية والنبوية التي تربى عليها الناس في زمن النبوة، مثل: الأمانة، القناعة، الاستقامة، الرحمة، التقوى، الإيثار، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9].

هذه القِيَم تنشىء أسرةً صالحةً وإن تُرِكت حتماً ستنشأ أسرةً فاسدة.

وهذه القِيَم ليست مادة نظرية نُعلمها لأولادنا، إنما هي

خُلق مكتسب وممارسة وقدوة، هي قِيَم واقعية تُعلَّم بالأُسوة والقدوة أضعاف ما تُعلم بالكلام النظري.

مساعدة المحتاجين:

أذكر وأنا صغير أن الزكاة كانت توزع على الفقراء والمحتاجين في الأيام التي تسبق عيد الفطر.

وكان والدي يوزع علينا المال أو الملابس أو الطعام أنا وإخوتي، وكان على كل واحد منا أن يذهب إلى المكان المخصص له ليوزع ما عنده من أموال أو غيرها. وكنا نذهب بالملابس مثلاً إلى أسرة أو أسرتين.

وكل يوم جمعة كنا نأخذ الطعام بأنفسنا إلى المسجد لنقدمه إلى الفقراء ونوزعه بأنفسنا، وكم كنا نشعر بالسعادة والفخر عند عودتنا وقد أفرغنا محتوى أواني الطعام كلها، ولأننا قدمنا شيئاً لهؤلاء.

أذكر يوماً وأنا صغير بعد خروجنا أنا ووالدي من المسجد كان في جيبي قرشين، فرأيت رجلاً محتاجاً فأعطيته القرشين اللذين كانا معي، فسألني والدي: هل معك غيرهما؟ قلت له: لا أعطيته كل ما أملك، وعندما عدنا إلى المنزل ناداني أبي إلى غرفته وأعطاني ريالاً كاملاً وكان في ذلك الوقت يعادل عشرون قرشاً. فقال لي: أنت أنفقت قرشين، فأعطاك الله مقابلها عشرين قرشاً، أي: أعطاك عشرة أمثالها، وقد غرس هذا في نفسي أنني إذا أنفقت لا أُضيّع مالي بل أُنميه وأُباركه كما يقول الله تعالى:

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [البقرة: 276]. فأنا لم أعلم معنى الآية ولم أفهمه إلا بعد أن مررت بهذه الحادثة التي حدثت معي.

كما أذكر في هذا السياق قول ابنتي لي: ألا تذكر ونحن صغار عندما كنا ننفق نفقة تعطينا ضعفها، وإذا قمنا بادّخار مبلغ من المال تعطينا مثله! فتذكرت ذلك فعلاً، فعندما كانوا صغاراً كنت إذا أنفق الواحد منهم نفقة في سبيل الله أعطيه ضعفها، أي: إذا أنفق خمسة أعطيه عشرة، وإذا كان يدخر مبلغاً أعطيه مثله.

ثم عادت وسألتني: لماذا كنت تفرق بين الصدقة والادّخار فتعطينا ضعف الصدقة وتعطينا مثله في الادخار؟ فتذكرت درس أبي وقلت لها: لأن أبي كان يصنع معي ذلك وأنا صغير السن.

هذه التربية بالقدوة هي التي تَغْرِس المعاني القرآنية والنبوية في نفس الصغير دون الشعور بأنك تُعلمه وإنما كأنه يُسقى منك، كأنه أرض خصبة تُسقى بالماء فتنبت الزرع ويخرج الثمر. أما الكلام النظري إما أن ينفع وإما أن لا ينفع.

وهذا ما يغيب عن أذهان الكثيرين من الناس للأسف ظناً منهم أن الأولاد ما زالوا صغاراً ولا يفقهون شيئاً.

نهي النفس عن الهوى

بعد أن تحدثنا عن معنى التوحيد والعبودية لله وحده، وما يعكس في شخصية المسلم من قوة واستقلال رأي، وبعد أن تحدثنا عن قِيَم أخرى كثيرة، مثل: الصدق والقناعة والمشاركة وحب الخير للآخرين وما إلى هنالك، سنتحدث عن نهي النفس عن الهوى، وعدم اتباعه ـ وهذا أمر يكون بالقدوة كما في سالف القِيَم التي تحدثنا عنها ـ وكيف يمكن للأب أن يترجم هذا المعنى ويغرسه في نفوس أولاده.

فنهي النفس عن الهوى قيمة قرآنية عظيمة وَرَدَ ذكرها في القرآن الكريم أكثر من مرة، يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: 40، 41].

وكذلك يقول لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [صّ: 26]، ويقول أيضاً في كتابه العزيز: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: 71]. أي لفسد الخَلْق أيضاً، فاتباع الهوى هو إفساد الخلق وهو البداية التي يبدأ بها الانحراف عن فطرة الله وسنته.

والإمام ابن القيم له كتاب هو «تحفة المودود فى أحكام

المولود» يتحدث فيه عن تربية الأولاد وتنشئتهم منذ الميلاد إلى نهاية الحياة، ويقول في هذا الكتاب: وصية الله للآباء على أولادهم سابقة على وصية الله لأولادهم على آبائهم؛ لأن الله يقول للآباء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: 31].

ومعنى ذلك أن من أهمل تعليم أبنائه فقد اتبع هواه؛ لأن الهوى هو أن لا تتعب نفسك ولا ترهقها ولا تأخذ من وقتك لأجل متعتك وراحتك وكسب عيشك، فهذا كله من اتباع الهوى.

ويقول ابن القيم الجوزية: «فإن فعلت ذلك اتبعت أهواءك وقصّرت في حق أولادك وأهملتهم؛ لأنك متبع هواك وبذلك فأنت تفسد أولادك». وهذا الجانب جوهري وأساسي في علاقتنا بأولادنا، وهو أن لا نتبع أهواءنا ونتركهم مُهملين ونخلد إلى الراحة دون أن نربيهم أو نعلمهم.

وكذلك لا نتركهم يتبعون أهواءهم، فالطفل هواه أن يلعب طول الوقت، والشاب هواه أن يستمتع بوقته مع أقرانه، بل إن هواه أحياناً يجعله لا يُقبل على واجباته الدينية؛ لأن هناك مباراة لكرة القدم أو تمثيلية، فهو يريد أن يعبث هنا وهناك.

وترى الآباء هنا نوعين، نوع يقول: إنه لا زال صغيراً وغداً يكبر ويتعلم، فأنا أُصلي وعندما يشاهدني أصلي سوف يصلي! والنوع الثاني يلحّ على الصلاة فيقف هو ولا يبدأ بالصلاة حتى يرى جميع أولاده توضؤوا وأَتَوا ليصلوا معه.

أعرف صديقاً ـ وهو نابغة في طب العظام ـ كان له ثلاثة أولاد، عندما كان يقوم بمناداتهم لإقامة الصلاة معه، كان منهم من يستجيب لندائه بسرعة والآخر بكل بطء، أما الأخير فكان لا يأتي إلا عندما يكونون في الركعة الثانية.

وكان هذا الأب الصبور ـ عند صلاة الفجر ـ يمشي ذهاباً وإياباً في المنزل وهو يدعو أولاده إلى الصلاة، فيسرع الأول كعادته ويتأخر الآخران، فيضيق صدر الولد الأول ويُصِرُّ على الصلاة ولكن الوالد يُصِرُّ بأن ينتظر إخوته، حتى زوجته كانت تستعد مثلهم للصلاة فيصلي الأب بهم إماماً.

وعندما انتقل إلى بلد عربي في دول الخليج وسكن مجاوراً للمسجد، كان يأخذ أولاده مباشرة ويدخل بهم إلى المسجد، وكان يحضر معه الماء البارد ليشربوا هم وغيرهم من المصلين في المسجد قبل الصلاة أو بعدها، وهكذا تعلموا خدمة رواد المسجد، والقيام بأعمال الخير بالأجر والثواب.

وكان لا ينزل إلى المسجد إلا إذا كان أولاده جميعهم معه، وإذا صلى في المنزل صلاة المغرب مثلاً يقول لهم: لنعوض ما فاتنا من الجماعة الماضية ونذهب مبكرين إلى صلاة العشاء، وهذا كان على غير هوى الأولاد جميعهم بما في ذلك الطائع؛ لأن طاعته كانت أن يصلي فقط لا أن يذهب ويعتكف في المسجد ويقرأ القرآن مثلاً، فهو لا زال شاباً يافعاً وهذا كان فوق طاقته، ولكن اقتداءه بأبيه الذي يحبّه سهّل عليه ذلك.

وكانت النتيجة أن أصبح الأولاد الثلاثة لا يتركون فريضة ولا يقصرون في عمل خير ولا يقعدون عن تقديم معروف، وكانوا يسألون والدتهم عن أي محتاج ليقدموا له معروفاً. من أين جاء ذلك السلوك الطيب؟ جاء من نهي النفس عن الهوى.

يظن الفريق الأول من الأهل أن ترك الأولاد على هواهم رحمة ورفق، فأنا أعرف رجلاً عندما كان يريد أن يوقظ أولاده للصلاة فجراً كانت زوجته تقول له: دعهم نائمين فالوقت لا زال مبكراً، وكان الأب حريصاً ومصراً على أن يوقظ الأولاد للصلاة فجراً.

أما الأم فكانت تصلي الفجر أيضاً لكنها كانت تشفق على أولادها، إلا أن هذه الشفقة في غير محلها وفي غير موضعها فهي تؤدي إلى اتباع الهوى، فهوى الولد أن يظل نائماً فيكون دافئاً في الشتاء وكسولاً في الصيف. فأنت تخرجه من دفئه وكسله ليقوم بفرض ربه في موعده، فإذا كان الأب قدوة في ذلك، ورأى أولاده نهي أبيهم نفسه عن الهوى نهياً عملياً، وتابعوه في ذلك، وهذه قيمة تركز في النفس في الصغر ولا تكتسب في الكبر إلا بصعوبة شديدة، وهنا أهمية التربية وأهمية النهي عن الهوى منذ الطفولة.

وقد أعطانا الرسول ﷺ مهلة كافية لكي يعتاد المسلم على إقامة الصلاة ومن خلالها يعتاد على كل الطاعات منذ الصغر: **«مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع»**[1].

---

(1) أخرجه أبو داود في (الحديث: 495).

فخلال هذه السنوات الثلاث لا يمكنه إلا أن يعتاد المواظبة على الصلاة. **أولاً**: لأن الأمر بالصلاة لسبع سنوات معناه أن الطفل يبدأ التمييز، أي: مرحلة التمييز الحقيقية، فلا يجوز أن تتركه بلا أمر ونهي. وأول ما يجب أن يؤمر به هو الصلاة، وهو أول عمل يُسأل عنه يوم القيامة، فيقول الرسول ﷺ: **«الصلاة، الصلاة، فإن صلحت صلح عمله وإن فسدت كان سائر عمله كذلك»**[1].

ولكي تُعوّده على هذه الصلاة وتحببه فيها وترغبه إليها، تبدأ معه منذ الصغر، وسن السابعة هو سن التمييز الذي يجب عنده البدء في تعويد الأبناء على الصلاة، ويمكن أن يبدأ الترغيب قبل ذلك. فإن رأيت ولدك بدأ يميز في سن الرابعة مُره بالصلاة، وإذا رأيته يميز في سن الخامسة مُره بالصلاة حتى يصل إلى سن السابعة وهو أقصى سن يجب أن تأمره فيه.

بل إن من المحبوب في التعليم والتربية في الصلاة أن تجعله يقف إلى جانبك ليتعلم الركوع والسجود، حتى ولو كان لا يميز ولا يقف كما تفعل أنت ولا يعرف السجود والركوع.

والأمر الثاني: أن العشر سنوات التي مضت هي بلا عنف، مروا أولادكم من السابعة إلى العاشرة، ثم من بعد

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 413)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 464).

العاشرة اضربوهم عليها إذا تركوها أو قصروا في أدائها.

أي أن هناك عشر سنوات دون أن يكون من حق الأب أن يعنّفَ ابنه في أعظم أمر من أمور الدين وأهم فرائضه، وهو الصلاة. فهذا منهج يذكرنا بما ذكرناه في الصفحات السابقة عن الرفق في التربية، وعن اللين من غير ضعف والشدة بغير عنف.

هذه هي الشدة بغير عنف، أقم الصلاة لكن بلا ضرب، بلا قسوة، بلا شدة، صلِّ كما كان يفعل الطبيب مع أولاده.

هذا كله تعويد ضروري على الصلاة، وهو يمنع العنف قبل أن يكون الطفل قد بلغ سن العاشرة؛ لأنك تكون قد أمرته ثلاث سنوات، أي: كل سنة ثلاثمئة وخمسة وستون يوماً وفي كل يوم خمس مرات، ففي ثلاث سنوات تكون قد أمرته بالصلاة أكثر من خمسة آلاف مرة.

بالله عليك أي عاقل حتى لو كان طفلاً يؤمر بشيءٍ لـ (خمسة آلاف) مرة لا يتعود عليه، هذا إلا إذا كان به خلل معين!!

قوّم هذا الخلل بعد سن العاشرة ببعض الشدة، وبهذه الطريقة نكون قد نهينا النفس عن الهوى في الصلاة، كما أمرنا بها هذا الحديث النبوي الشريف.

والمعول عليه هو إصرار الآباء على الأمر بالصلاة، ومن خلالها الأمر بكل الطاعات والقِيَم والفضائل التي يجب أن ننشىء أولادنا عليها.

أسلوب الأمر بالصلاة:

ينحى البعض منحاً عنيفاً في أمر أولاده بالصلاة وبالسؤال عن أدائها فيسأله: هل صليت المغرب؟ ينهر ويزجر في وجهه.

وهذا الأسلوب في الأمر بالصلاة ممنوع؛ لأنه يؤدي إلى الكذب. ونحن لا نقبل أن يكذب علينا أولادنا في أي أمرٍ، فكيف إذا كان الكذب في موضوع الصلاة!!

فكثيراً ما يقع الفتيان والفتيات في هذه الخطيئة فتقول له: هل صليت؟ فيقول لك: نعم، وهو لم يصلِّ، وأحياناً يصلي دون وضوء؛ لأنه يريد أن يتخلص من غضب أبيه وشدته، وهذا يفسد ولا يصلح.

الرفق بالأمر في الصلاة مطلوب ليس قبل سن العاشرة فقط، بل أيضاً بعد العاشرة؛ والضرب الذي ذكره الحديث ليس بالعصا والضرب المبرح، إنما الضرب الذي يشعره بالغضب أو يشعره بعدم الرضا أو الاستياء كأن يمسه بأطراف أصابعه أو يقرص أذنه قرصة كبيرة.

أذكر أن أحد أولادي تخلّف مرة عن أداء الصلاة، فأمسكت بأذنه وقلت له: يا أخي صلِّ، وبدأ يقول لي: (أي، أي)، ولم أكن أؤلمه وعندما لاحظت أنه يصطنع ذلك بدأت أشد عليه أكثر فأكثر، فعندما تألم حقيقة تركته، فقال لي: أنا آسف يا أبي. لماذا شعر بالخطأ وجاء معتذراً؟ قال ذلك لأنني في بادىء الأمر لم أقسُ عليه كثيراً، وكان يُظهر لي أنه متألم

وعندما شددت عليه أكثر بدأ يصرخ من الألم فعرفت أنه متألم فعلاً فتركته، وعرف هنا الفرق بين التدليل والمداعبة والإيلام.

وكنت عند عودتي إلى المنزل من المسجد أول ما أسألهم عنه هو: هل صليتم؟ فإذا وجدت واحداً منهم لم يصلِّ كنت أضربه ضربة البلحة، وهذه كانت في تقاليدنا التربوية ـ، والبلحة: هو أن تجمع يدك كلها وتضربه بهذا الجزء من الأصابع وكأنك ألقيت عليه بلحة من النخل ـ فكنت أفعل ذلك به حتى يقوم إلى الصلاة، لذا فاعلم عزيزي القارىء أنك إذا مارست العنف في تربية أولادك فإنهم قطعاً سيتخلصون من أسلوبك العنيف وذلك بالكذب عليك.

أذكر أنني حين كنت في سن الثانية عشرة وبينما كنت عائداً إلى المنزل، وكاد وقت العصر ينتهي، ولم أكن قد قمت بأداء الصلاة صادفت والدي حينها فسألني إذا قمت بالصلاة فأجبته بلا، عندها اكتفى بأن يتلو عليَّ قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء: 137].

ولم أنتظر حتى يكمل فأسرعت بالدخول إلى المنزل، وتوضأت للصلاة وصليت وأنا أبكي خوفاً من أن أكون من الذين آمنوا ثم كفروا.

وبعد عودة والدي إلى المنزل ذهبت إليه وسألته: لماذا ذكرت لي آية تُخيف وتُرعب، فقال لي بشدة: نعم؛ لأن الذين

يتركون الصلاة يدخلون مع الكفار إلى النار؛ لأن الكفار لا يصلون.

ثم كبرت وتعلمت، وعلّمني أيضاً أن تَرْكَ الصلاة جحوداً وإهمالاً غيرُ تركها نسياناً أو تقصيراً، وأن الذي يحاسب على الصلاة يحاسب حساباً عسيراً. لكنني لم أنس هذا الدرس القاسي الذي تعلمته منه ومن الآية التي ذكرها لي، فأنا لم أدعه يكمل الآية لأنني خفت على نفسي.

فأنا أرى أن التربية بهذه الطريقة، الطريقة التي فيها سماحة وفيها شدة، وفيها لين وفيها عنف في الوقت نفسه من دون قسوة هي التربية الصالحة.

تربية فيها قوة وليس قسوة، هذا المزج بين أساليب التربية في مسألة الصلاة أمر ضروري جداً؛ لأنك لا تستطيع أن تُخرج من الإنسان أحسن ما فيه إلا إذا عاملته بأحسن ما عندك، ولا تستطيع أن تُخرج منه أحسن ما فطره الله عليه إلا إذا عاملته بأحسن ما فطرك الله عليه.

أعرف امرأة حافظة للقرآن وصالحة حدثتني ذات مرة أنها وإلى أن أنجبت ابنتها الثالثة كانت لا تواظب على الصلاة، وهي ابنة بيت متدين وعميق الإيمان وفيه علم موروث وصلاح وثقافة إسلامية، فتعجبت جداً وسألتها: لماذا تأخر بك الانتظام في الصلاة إلى هذه السن؟

قالت: كانت أمي تقسو عليّ جداً وأنا صغيرة في أمر

الصلاة فكنت أصلي أمامها وإذا غابت لا أصلي، وبقيت معي هذه العادة ولا يعرف بها أحد. وقد كانت تصرخ في وجهي كثيراً فأتذكر وجهها وهذا ما جعلني لا أنتظم في الصلاة إلى هذه السن، وأنا الآن في الثلاثين من العمر.

مسألة التربية فيما يتعلق بالعبادة من الصلاة والصوم وغير ذلك مسألة مهمة جداً، وإذا أهملنا فيها حصدنا حصاداً مراً بدلاً من أن نجني ثمرة ناضجة في النهاية.

وبما أن فاقد الشيء لا يعطيه، كما هو معروف، فإن عدم انتظامنا في أمر ما يورث هذا الخلل وهذه الفوضى في أمر الصلاة والانتظام على العبادات والطاعات ومنها الحجاب للمرأة المسلمة. فكيف يمكن أن تنشأ فتياتنا على الالتزام بهذه الفريضة، وكيف يمكن للأم أن تكون قدوة بفعلها وقولها بممارسة هذه الفريضة؟

فريضة الحجاب:

الحجاب فريضة على المرأة المسلمة إذا بلغت مبلغ النساء والمقصود في الحقيقة أن عليها أن تغطي شعرها وجسدها ما عدا وجهها وكفيها، وهذا الأمر ليس موضع خلاف وهو منصوص عليه في القرآن الكريم حيث يقول الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: 31].

والخمار هو غطاء الرأس وكان أمراً مُسلماً به، وهو أن تضرب به على فتحة القميص حتى لا يبدي ما تحته من جسدها.

فالحجاب أمر ثابت في الدين ولا محل للجدال فيه، والذي يقتضيه الحال هو بيان كيف نعاملهن في أمر الحجاب. هل نعاملهن بالأمر والزجر والقسوة، أم نعاملهن بالترغيب والإقناع والقدوة؟

أنا عندي ثلاث بنات نشأن في بيت فيه أم محجبة، والبيئة المحيطة بنا معظم النساء فيها محجبات وملتزمات بالحجاب الشرعي، وتعلمت بناتي منذ صغرهن الصلاة والصوم وأحكام النساء وأن على المرأة أن تغطي جسدها وشعرها إذا بلغت مبلغ النساء إلا الوجه والكفين.

وعندما وصلت أولى بناتي إلى هذه المرحلة حصل بيني وبين زوجتي نقاش وخلاف: هل علينا أن نأمرها بالحجاب أو نتركها لتختار هي ذلك عندما تطمئن إليه؟

ولأمر ما بدأت زوجتي تأمرها بالحجاب وتشدد عليها، فارتدته ـ أي غطاء الرأس ـ ؛ لأنها كانت تلبس الثياب المحتشمة عادة وكانت المشكلة في غطاء الرأس.

وفي أحد الأيام عندما عدت من خارج البلاد كانت عائلتي تقوم بزيارة أحد الأقارب، فذهبت إليهم ورأيت ابنتي مكشوفة الرأس فلم أُعلق على الأمر، مما أدهش الموجودين، وفي

طريقنا إلى المنزل سألتني ابنتي: إنك لم تعلق يا والدي على نَزْعِيَ الحجاب، قلت لها: هذا شأنك، وأنت تعرفين أن الحجاب مفروض عليك، وأنت فعلته مختارة. قالت: لا، أنا فعلته لأن أمي أمرتني به، قلت: فعلته لأن أمك أمرتك به، وهل أمرتك بالمعروف أم بالمنكر؟ قالت: بل بالمعروف. قلت: الآن وقد تركت فعل المعروف فسيضيع عليك هذا الثواب إلا إذا عدت مرة أخرى إلى فعله. قالت: أنا لا أريد أن أكون محجبة الآن. قلت: كما تُريدين، وسأتولى أنا الكلام مع والدتك في الأمر.

وبعد أن عدنا إلى المنزل تكلمت مع والدتها وبدأنا نبحث عن طريقة أخرى باللين حتى نرى إلى أين ستمضي هذه الفتاة؛ لأنه لدينا ابنتان غيرها وستكبران وسنواجه معهما مثل هذا الموقف.

ولم تمضِ سوى أسابيع قليلة حتى رأيناها ترتدي زياً لغطاء الرأس مختلفاً عن السابق الذي كانت والدتها أعطتها إياه.

فسألتها: لماذا عدت ووضعت غطاء الرأس ثانية؟ فقالت: لأن غطاء الرأس الذي أعطتني إياه والدتي كان لا يناسب سني وهذا يناسبني أكثر، قلت: خيراً، ارتدي ما ترينه مناسباً لك.

وبعد مدة طويلة علمت منها السبب في ذلك، وهو أن الأهل والأصدقاء كانوا يقولون لها: لماذا ترتدين أغطية للرأس خاصة بكبار السن، وهي لا تناسب عمرك ولا جيلك؟ فدخل

في روعها أن هذا لا يناسبها بل يناسب كبار السن، فأقلعت مدة من الزمن ثم عادت واختارت الحجاب الذي يناسبها، وهي لا زالت حتى الآن محجبة والحمد لله.

أما ابنتي الثانية فعند عودتي من السفر كانت لا تزال في المدرسة الثانوية.

وفي أحد الأيام بينما كنت آخذهم إلى المدرسة جلست إلى جانبي وهي مرتدية الحجاب الشرعي، ـ فعندما سافرت لم تكن مرتدية الحجاب بعد ـ، وقالت: أبي ألم تلاحظ شيئاً عليّ؟ قلت: لا لم ألاحظ شيئاً. قالت: ألم تلاحظ أنني ارتديت الحجاب؟ قلت: نعم، لاحظت، لكن هذا فريضة من الفرائض، فأنت إذا صليت أقول لك الحمد لله أنك صليت، وإذا صمت رمضان أقول لك الحمد لله أنك صمت، فاحتضنتني وقالت لي: أشكرك لأنك سمحت لنا أن نختار بأنفسنا كل شيء.

وبقيت محجبة حتى اليوم وهي الآن زوجة وأم.

وفعلنا الشيء نفسه مع الثالثة، وهذه المرة بالاتفاق مع والدتها، فقد ارتدت الحجاب منذ صغرها ومن نفسها وهي الآن أصبحت مهندسة.

فأنت إذا ربيت أولادك بهذه الطريقة بأسلوب الأسوة والقدوة، ربيت بالأخذ والعطاء وربيت بالإقناع دون أن تجعل القضية قضية الساعة وقضية الليل والنهار ستصل إلى غايتك المنشودة.

أنا أعرف آباء لا يأكلون مع بناتهم وهن مكشوفات الرأس! فمتى ستنصحها؟ ومتى ستُسمعها الكلام الطيب، ومتى ستجعلها تلجأ إليك بدلاً من أن تلجأ إلى رجل غريب؟ ما الذي يجعل الفتاة تلجأ إلى رجل غريب وإلى شاب غريب، وإلى رجل في سن أبيها؟ السبب أن الأب لا يعطيها من وقته ولا يعطيها من حنانه وعاطفته. فتجنباً لهذه المآسي كلها يجب على الآباء أن يسلكوا سلوكاً ليناً، هيناً، رقيقاً، مقنعاً، حاسماً في الوقت نفسه حتى تستقيم أمور البيت.

الأمر بالتقوى

كنا قد تحدثنا عن مسألة التربية على القِيَم، ومنها تطرقنا إلى مسألتي الصلاة والحجاب في الإسلام، وأنا أود أن أرُد الأمر كله إلى أصل من أصول الإسلام ألا وهو الأمر بالتقوى. وتكاد لا تخلو صفحة من صفحات القرآن الكريم عن الكلام عن التقوى. وقديماً قيل: إن التقوى هي كلمة الأفعال كلها وسبب الامتناعات جميعها وثمرة الطاعات بغير تخصيص ولا استثناء.

فالتقوى سبب ونتيجة في الوقت نفسه، ما هي التقوى؟ هي أن لا يراك الله تعالى حيث نهاك، وأن لا يفتقدك حيث أمرك، وألا يرى منك ما يكره، وأن يرى منك ما يحب. فإذا جمعنا هذه المعاني وجعلناها عموداً فقرياً وسلسلة تنظم الأوامر والنواهي الإسلامية التي يربي عليها الآباءُ الأبناءَ، لسهل عليهم أن يطيعوا وصَعب عليهم أن يعصوا.

ولنأخذ مثلاً موضوع الحجاب وتميز الفتيات به عن البنين كما ذكرنا سابقاً. فهناك بعض الذين يعارضون أن يُلزموا المرأة المسلمة بالحجاب ويشيعون أن البنات مأمورات به والصبيان لا، فهذا يعني أن الدين الإسلامي يميز بين المرأة والرجل في الدين الإسلامي. وحقيقة الأمر أن التكوين الجسماني للفتاة غير

التكوين الجسماني للفتى، وأن مواطن الجمال والتطلع إليها في الفتاة غير مواطن التطلع إلى الفتى.

وأن حماية المرأة من أن تأكلها الأعين والتطلع إليها من قِبَل النفوس الخبيثة، كل هذا اقتضى منها أن تتخذ لنفسها مظهراً يدل على تقواها، يقول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: 59].

وهو أن تلبس المرأة الملابس الواسعة الفضفاضة التي لا تشف فتكشف ما تحتها، وأن تستر جسمها وشعرها إلا وجهها وكفيها، وذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين.

يقول بعض المفسرين إن ارتداء الحجاب كان زياً خاصاً بالحرائر، وإن الإماء لسن على أخلاق، وأنهن فاسدات، إلا أن هذا ليس قولاً صحيحاً، فالحجاب فرض على كل النساء المسلمات والمؤمنات.

والآن ليس لدينا إماء، وهذه المسلمة العفيفة الشريفة يجب أن تتخذ مظهراً يُبعد عنها تطلع نفوس السوء وأعين السوء، هذا المظهر هو ذاك اللباس المحتشم، ونحن نستطيع المقارنة بين الفتيات اللواتي يرتدين الحجاب وبين الفتيات السافرات، فإلى من ينظر الناس في الشارع؟ ينظر الناس إلى التي تعري جسدها ويلحقونها بأبصارهم ويمعنون النظر إليها. وترى المرأة المسلمة المحتشمة، المسلمة المستترة بملبسها لا ينظر إليها أحد، وحتى وإن نظر إليها يجد من يمنعه من ذلك ليشير إليها: ألا ترى أنها محتشمة؟

فهذا الحجاب حماية للمرأة ليس فقط من الوحوش التي تكون في الشوارع أي: الشباب المستهترين، بل من الشيطان الذي يجري في ابن آدم مجرى الدم في العروق، فيجعله يتطلع إلى ما حرم الله التطلع إليه ويرغبه في ما لا يجوز له أن يرغب فيه، ويسهل ذلك له إذا ما وجد من المرأة ما يشبه الدعوة في ملبسها أو مظهرها.

وسيلة الإقناع بارتداء الحجاب:

في هذا الزمن الذي تنتشر فيه ثقافة العري، ـ هذا إن صح أن نسميها ثقافة ـ، نرى أن الأب يزجر ابنته على أشياء قليلة الأهمية، أشياء أقل خطورة مما هي عليه حال ابنته من العري. ولإقناع بناتنا بالحجاب والتستر ينبغي أولاً أن يُقنعهنّ الآباء والأمهات بأن لنا هوية يجدر بنا أن نحافظ عليها، وستر المرأة هو جزء من هذه الهوية، فالمرأة في المجتمع المسلم تستر جسدها عن عيون الناظرين، ولا تسمح أن يتعرى جسدها كما نرى في الشوارع وبعض وسائل الإعلام، وكما هو حاصل في أغاني الفيديو كليب وغيرها.... التي تفسد القديسين إذا نظروا إليها فكيف بالناس العاديين!

فالإقناع بالحجاب ليس معناه الإقناع بالأمر الشرعي فقط؛ بل إقناع بأن لنا صفة ثقافية تميزنا عن الآخرين وتحافظ على هويتنا. وأريد من الآباء والأمهات والذين يجادلون في هذا ولا يقتنعون به أن ينظروا إلى الريف الإسلامي والعربي.

في ريفنا العربي المسلمة والمسيحية واليهودية واليزيدية والمجوسية والصابئة، كلهن محجبات.. لماذا؟ لأن هذه هي ثقافتنا العربية، ثقافة المنطقة التي نعيش وننتمي إليها، ومنها خرج الإسلام فزادها شرفاً على الناس.

هذه الثقافة تقضي بستر المرأة، وهذه الثقافة ترى في عري المرأة شيئاً قبيحاً، وهذه الثقافة ترى أن العري سوء أدب وسوء خُلق، حتى وإن كانت المرأة لا تدين بالدين الإسلامي.

لأن كل الأديان تأمر بالستر، وإلا فكيف ترتدي الراهبات زيهن الذي نعرفه؟ هل تخرجن عاريات أم تخرجن مستترات من رؤوسهن إلى أقدامهن؟ لماذا يرتدين هذا الزي؟ لأن دينهن كما كل الأديان يأمرهن بالستر، ولا يسمح لهن بالتعري.

فالمتعري أو المتعرية التي تسمح لنفسها أو الذي يسمح لابنته بالتعري يخرج عن أمر من أمور الدين. فإذا كانت مسلمة فهي خرجت عن أمر في دين الإسلام وفرضه. ومن هنا يبدأ دور الآباء ويبدأ الإقناع بأن ترك الحجاب هو ليس مخالف للدين فقط، بل للهوية العربية، وليس لدين الإسلام فقط، بل للأديان كافة، وليس للثقافة الإسلامية فقط، بل لثقافتنا العربية.

هل يجب أن يموت أي إنسان مجهول الهوية إن كان لبناني أو مصري أو سوري أو فرنسي، أم ترى كل إنسان يجب أن يتمسك بهويته ويعرف من أين جاء وأين أصله؟ هذا التمسك من أين جاء؟ جاء من التمسك بالمظهر والجوهر اللَّذَيْن تتكون

منهما ثقافتنا العربية الإسلامية. وواجب الآباء أن يبدأوا من هنا لا بالزجر ولا بالتفريط، أي افعلي ما شئتِ ولكن ضمن الحدود الأخلاقية.

والمثل الذي ذكرته في البداية بأن الوالد الذي ينهى ابنته ويلومها؛ لأنها فعلت شيئاً تافهاً إذا قورن بعري جسدها أو الملابس التي تصف جسمها وصفاً تاماً كما لو أنها عارية، هذا الأب مقصر أعظم التقصير في الأصل والواجب الذي ينبغي عليه، فهو يترك هذا الأصل ويتمسك ببعض التفاهات، وبناتنا أنفسهن لا يدركن أن لهذه الزينة دلالات في الثقافة الغربية.

وسأحكي لأخواتنا الفتيات ولإخواننا الشباب الكرام قصة واقعية حدثت في إحدى السفارات العربية، وهي حدثت لابنة أحد السفراء العرب في بريطانيا.

كانت هذه الفتاة قد وضعت سلسلة ذهبية في كعب أحد قدميها وهو ما نسميه في ثقافتنا العربية «بالخلخال» وكما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: 31].

والبنات في الغرب يلبسن إما سلسلة واحدة أو اثنتين، ولكل واحدة من هذه الأشياء دلالتها. فلبست ابنة السفير العربي في حفل أقامته السفارة، سلسلة في إحدى قدميها وكانت بهذا تقلّد البنات في ذلك البلد. وحضر من بين المدعوين إلى الحفل رجل ضيف يعمل في وزارة الخارجية البريطانية، وأخذ يتحدث

إلى تلك الفتاة، ثم طلب منها أن تخرج معه إلى مكان ما. فبدأت الفتاة تصرخ وبدأ الضيوف ووالدها يهرعون إليها فقالت لهم: إن هذا الرجل يدعونني إلى كذا وكذا.

ثم رُفِعَت المسألة إلى التحقيق في وزارة الخارجية، وعندما تم التحقيق معه وسألوه: كيف فعلت ذلك وكيف تجرؤ وتطلب من ابنة السفير بأن تخرج معك وهؤلاء عرب ولهم تقاليدهم الخاصة؟

فقال: أنا رأيتها تلبس تلك السلسلة في رجلها بالصورة كذا وكذا، وهذا يعني في بلدنا أنه كذا وكذا، فذهل المحققون، واستدعوا والدها وشرحوا له الأمر، وقالوا: إن ابنتك دعته إلى هذا بلبس السلسلة بهذه الطريقة، فكاد الرجل يموت خجلاً؛ ولم يستطع أن يستمر في منصبه، وطلب نقله إلى بلده الأصلي، وقطع مدة بقائه في تلك السفارة لأنه لم يعد يستطيع أن يواجه المجتمع هناك من جراء هذه الحادثة ومن ذلك الموقف المزريّ الذي وضعته فيه ابنته بتقليدها الأعمى.

فاتقوا الله بما تضعه الفتيات، وما تضعنه من زينة في الأنف والشفاه والبطن، وتمشين عاريات البطون، ولتعلمن أن لكل واحدة من هذه الزينة دلالة قد تتهم فيها وهي تقلد ولا تدري، وهذا من أخطر الأمور التي تقع فيها الفتيات والشباب مع آبائهم وأمهاتهم.

وهناك أيضاً بعض الرجال الذين يتخذون لشعورهم ألواناً

وأشكالاً مختلفة، وكذلك للحاهم (اللحية) أشكالاً، فيجب الاحتراس من هذا كله. إذ أن لكلٍّ من هذه الأشكال دلالته التي لا نعلمها لأنها عادات غربية ودخيلة على ثقافتنا العربية.

فهذا الذي يفعله الرجال والنساء مما يغيرون به خلق الله ولا يتوافق مع تعاليم قرآننا ولا سنتنا النبوية، فكله منهي عنه شرعاً، وهم لتلك الأشكال والعادات يرتكبون منكراً شرعياً ويعرضون أنفسهم للأذى من الناس وهم لا يستحقونه.

مفاسد التلفاز:

كيف يمكن لنا أن نتصور حال الأسرة التي ينفرد كل فرد فيها بجهاز تلفاز خاص به ويرى ويفعل ويشاهد كل ما يحلو له؟

إن من أعظم المفاسد التي دخلت علينا: جهاز التلفاز والإنترنت، لأنهما جهازين أصمين إذا وجهتهما إلى الخير رأيت منهما الخير، وإذا وجهتهما إلى الشر رأيت منهما الشر.

فالتلفاز منع **الحوار** بين أفراد الأسرة، فهم جميعاً يتسمّرون أمام شاشاته، كل واحد يرى ما يعرضه ويفكر فيه بطريقته، ويذهب به إلى أفكار شتى حسب مخيلته وثقافته، ولا تتناقش الأسرة ولا تتشارك في الكلام ولا تتواصل إذا صح التعبير.

وبعد الانتهاء من مشاهدة التلفاز تجدهم لا يتكلمون، وإذا تكلموا يتكلمون إما لمدة خمسة دقائق أو أكثر بقليل وبعدها يذهب كل منهم إلى شؤونه الخاصة، فتذهب الأم إلى عملها

المنزلي، ويذهب الأولاد إلى دراستهم. . . . . فبوجود هذا التلفاز انفرط عقد الأسرة المتواصلة.

في حين أنه باستطاعتك تحويل التلفاز إلى طريقة للتواصل بين أفراد الأسرة كما فعلتُ أنا وزوجتي، فقد كانت زوجتي كل يوم خميس أو في الإجازة الصيفية، تُجْلس أبناءنا وتناقشهم في كل ما يشاهدونه، وما هو رأيهم ونقدهم. . . .إلخ، ـ وهم الآن يفعلون ذلك مع أولادهم بتلقائية وعفوية ـ وبهذا أنشأت جيلاً عاقلاً وواعياً. وكانت ـ رحمها الله ـ تسمع الأغاني والموسيقى مع أبنائنا وبناتنا، وكانت تسمح للبنات بسماعها وهي تعلمهم الحياكة أو وهي تعد معهن ملابسهن ليلة العيد، وكانت تبدي رأيها في آراء المغني فتقول: أحب هذا الأداء أو لا أحبه. ولنا ابنة هي الآن أستاذة جامعية لا تنسى أنها علمتها أن تقول: أحب صوت هذا المغني، ولا تقول: أحب المغني نفسه.

أما إذا تركت الأولاد وحدهم ليشاهدوا التمثيليات دون تربية أو توعية بالرسائل المباشرة وبتبيين الصواب والخطأ فيما يشاهدونه أمامهم، فأنت تنشىء جيلاً لا عقلية له، وأذهاناً لا رابطة تجمعها، وقلوباً شتى متفرقة، بدلاً من أن تكوّنَ أسرة مترابطة متواصلة.

الشيء نفسه مع الإنترنت، أي الشبكة الدولية للمعلومات، فأنت ترى عليها كل ما تريده من العلم النافع إذا أردت، وترى

عليها كل ما يريده الفاسدون من الفساد والانحراف الخلقي والديني والفكري وما إلى ذلك.

وإذا تركت للأولاد لكل منهم وصلة إنترنت من وصلة التلفون المنزلي أو من التلفون المحمول معه، فأنت لن تعرف ما يفعله كل منهم، وأنت تفتح الأبواب للخير كما تفتحها للشر، والشر أسرع إلى نفوس الناس؛ لأن الشر يستجيب للهوى ويستجيب للرغبات الحسية والمتع القريبة، وعندئذٍ يكون الوقوع فيه سهلاً.

هذا الداء فكيف نَصِفُ الدواء؟ يكمن الدواء بأن يكون في البيت تلفاز واحد يجتمع على مشاهدته جميع أفراد العائلة، أو بوجود أحد الكبار مع الصغار، وأن يكون ما يعرض محور نقاش، على ألا تكون كل لحظة لحظة نقاش، فتفسد عليهم المشاهدة، إذ يمكن تدوين كل ما يراد مناقشته معهم في الذهن أو على ورقة.

أذكر عندما شاهدت إحدى التمثيليات الدينية على التلفاز، قال الممثل: إن الإمام مالك كان يقف على باب المسجد الأموي في دمشق ويقول للناس: هل من طالب فقه فأعلمه الفقه، وهل من طالب نحو أعلمه النحو؟ وخشيت أن أنسى ذلك فدونته على ورقة أمامي. وعندما انتهت التمثيلية قلت للأولاد: إن هذا المؤلف جاهل؛ لأن الإمام مالك لم يخرج من المدينة أصلاً إلا للحج، وبعد أن عاد من الحج بقي في المدينة حتى مات، ولم يذهب إلى دمشق أبداً.

ثم إن الإمام مالك لم يقف يوماً على باب مسجد ليدعو الناس؛ بل كان الناس يذهبون ويتحملون مشاق السفر في سبيل الوصول إليه، وكانوا يأتونه من بلاد الأندلس ومصر وأفريقيا ليعلمهم الإسلام في مسجد الرسول ﷺ، ثم في بيته بعد أن كبُر. وكذلك بعد أن كبر سنه كانوا يقفون ويبيتون على بابه لعدة أيام حتى يقابلهم إن لم تسمح له صحته ولم تساعده على الخروج بانتظام.

وكان إذا سُئل عن مسألة لا يعرف جوابها يقول: لا أدري. وفي إحدى المرات سئل عن أربعين مسألة فأجاب عنها، إلا المسألة السادسة والثلاثين قال: لا أدري. فقال له السائل: أأرجع إلى الناس وأقول لهم: لا أدري وقد أرسلوني إليك من بلد كذا وكذا... فقال له الإمام مالك: نعم، قل لهم: سألت مالك وقال لي: لا أدري.

ولم يكن هو الذي يعرض علمه على الناس، كما لم يكن عالم نحو أو عالم لغة أصلاً، بل كان فقيهاً محدثاً. ثم قلت لهم: هذه التمثيلية كلها هراء لا أنصح بمشاهدتها.

وفي اليوم التالي كنت قد نسيت ما حدث؛ لأنني لم أهتم بالموضوع، وعندما عدت أنا والأولاد من المسجد بعد أن صلينا العشاء والتراويح قال أحدهم: لنكمل التمثيلية، فقالت له أخته: لا نريد أن نكمل مشاهدتها، اتفقنا أن لا نراها، ووالدنا ليس معنا لأنهم جهلة فكيف سنعرف الصواب من الخطأ؟ وكما ترى

تغير موقف الأولاد من مجرد ملاحظة أبديتها لهم، ومرّ رمضان ولم يشاهدوا منها شيئاً.

فأنا أدعو الآباء والأمهات أن يفعلوا كما فعلت، وأن يجلسوا ويراقبوا وينبهوا إلى الخطأ العلمي والأخلاقي واللغوي والتاريخي، فينشأ عند الأولاد ملكة النقد والرغبة في رؤية الصواب والإعراض عن رؤية الخطأ والقدرة والمعرفة اللازمين للتميز بينهما.

كما أدعوهم إلى فعل ذلك أيضاً بالنسبة إلى الإنترنت بحيث يكون لديهم وصلة واحدة على جهاز كومبيوتر واحد يستخدمه الأولاد جميعاً بالتوالي.

وأنبّه على مراقبة ذلك الولد مرة في الليل ومرة في النهار لمعرفة ما يشاهده، وكذلك مراقبته وهو جالس أمام شاشة الكمبيوتر لمعرفة ما يفعل ومشاركته في ذلك، فإذا كان يهتم بالأمور العلمية أرجو مساعدته وتعليمه كيفية الحصول عليها، وبذلك نطمئن عليه.

أما إذا وجدت أحدهم يسمع الأغاني فقل له: أسمعني ما تسمع؛ فإذا وجدت الأغنية تافهة وكلماتها سيئة وجِّهه إلى الأغاني الأفضل والأنسب والأجمل بلطف ورفق، وإن هذه الأغنية سيئة، أو قل له: لماذا لا تستمع إلى موسيقى بيتهوفن أو موزارت أو باخ أو غيرها؟

وبذلك أنت هنا تلفت انتباهه إلى الحسن، وتصرفه عن

القبيح، وتشعره أنك تراقبه ولو لم تكن معه في الغرفة نفسها وتشعره أيضاً أنك صديقه وأنكما تعيشان في دنيا واحدة.

هذا النوع من العلاقة بين الآباء والأبناء يؤدي في النهاية إلى استقامة الأبناء، ولو وقعوا في خطأ فهم يقعون فيه وهم يعلمون أنه خطأ، ويكونون دائماً على حذر وبينة أن لا يتكرر ثانية أو أن لا يظهر. وهذا فضيلة عظمى أن يشعر المذنب أنه مخطىء؛ لأن العبد إذا أذنب وتاب وأذنب وتاب اطلع الله عليه وقال: **«أذنب عبدي فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»**[1].

هذا التفضيل الرباني بالمغفرة للعبد جاء نتيجة شعوره أنه كلما أذنب واستغفر الله تعالى غفر الله له، فإن أنشأنا أبناءنا على هذه القيمة أنشأناهم على خير كثير إن شاء الله.

إنهم سيخطئون ولا بد أن نستوعب هذه الأخطاء، ولطالما يحتاج الأولاد إلى هذا الحنو وهذا الاستيعاب؛ لأنهم في هذا السن أحوج ما يكونون إلى من يوجههم ويرشدهم، وعنيت بذلك: سن المراهقة.

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 7507)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6919).

سن المراهقة

في أحد الأيام سألتْ فتاة أمها: لماذا تمّ تسمية المراهقة بهذا الاسم؟ هل لأنها ترهق الأهل، أي سميت بذلك لأننا نرهقكم فيها كثيراً بمشاكلنا؟ فضحكت الأم وقالت: ربّما، لم لا؟.. هذا الشعور الذي نشأ عند الفتاة الصالحة وهو أنها أرهقت أمها بأن تقول لها: اخرجي ولا تخرجي، افعلي ولا تفعلي، وكلما قالت لها شيئاً ناقشتها وعارضتها فشعرت أنها أرهقت أمها من أمرها عسراً، لذلك سألتها هذا السؤال.

طبعاً الأمر ليس كذلك؛ فالمراهقة مِنْ: راهق البلوغ أي ناهز البلوغ وقارَبَه وصار رجلاً وأوشك أن يكون ناضجاً وكذلك بالنسبة للفتاة.

هذه الدعابة تدلُّك على الشعور الإنساني الفطري، والطبيعي أن هذه المرحلة مرحلة متاعب، وهي مرحلة متاعب يمّر بها المراهق والمراهقة نفسهما، فيشعران بالتغيير الجسماني في التركيب والقدرة، ويشعران بتغير نظرة الناس إليهما، يشعران بتغير في القوة الجسدية والعنفوان الذي يصيبهما في بداية الشباب.

يشعر المراهق بالتغير بما يُقال له: افعل هذا ولا تفعل ذلك. والمراهقون كانوا قبل المراهقة يلعبون مع الفتيات، ولما

كبروا قيل لهم: لا يجوز أن تلعبوا مع الفتيات، وبالعكس قيل للفتيات: لا تلعبن مع الأولاد، البنات في جانب والأولاد في جانب آخر، أنتن أصبحتن فتيات كبيرات وهم أصبحوا رجالاً كباراً.

هذا الفصل بين الأولاد والبنات يقع فجأة دون تمهيد؛ لأننا لم نحسن الإعداد له مبكراً بلفت النظر إلى اختلاف الجنسين ووقع التغيرات الجسمانية والهرمونية.

ومعظم مشاكل المراهقة تأتي من هذه الزاوية، وهناك مشاكل أخرى في العلاقة مع الأصدقاء، وتأتي مسألة الدراسة وقضاء الأوقات مع الأصدقاء أكثر من قبل، وعندها يشعر المراهق أنه لم يَعُد يحتاج إلى حارس؛ لأنه قادر على أن يذهب ويعود إلى المدرسة أو إلى النادي، أو إلى أي مكان آخر وحده فلم يعد بحاجة إلى من يأخذ بيده كما كان وهو صغير.

وتبدأ السلطات تتعارض في البيت بين الآباء والأبناء، الآباء لهم نظام يريدون أن يطبقونه، والأولاد لهم تمرد فطري فلا يريدون أن يسمعوا شيئاً ولا يريدون أن يطيعوا آبائهم.

وقد نقع أحياناً في أخطاء لا نقصدها، فإذا لم نستطيع أن نستدركها فستعود علينا وعلى أبنائنا وبناتنا بأفدح الأضرار. وهذا ما حدث معي، ففي يوم من الأيام وصلتني رسالة بالبريد إلى مكان عملي، فتحت الرسالة فوجدتها مرسلة من أحد أولادي، وجاء بها: إنك أصدرت أوامر (والكلام موجه إليّ طبعاً) منها أن أكون في البيت الساعة كذا أو أن أفعل كذا، أو أن أدرس

بالطريقة كذا، هذا ليس عدلاً منك؛ لأنك لم تصدر هذه الأوامر إلى الجميع، ولم تلتفت إلى ما تفعله أخواتي الأكبر مني سناً من مخالفات لأوامرك التي تنهاني عن فعلها، لماذا تخصني بهذه الأوامر ولا تخص بها من هو أكبر مني؟

وكان في صف الإعدادية؛ وقد كتب في آخر الرسالة ملحوظة قال فيها: يا أبي، هذه الأمور أريد أن نتناقش فيها وحدنا، لا تسألني عنها أمام أمي وإخوتي، وأريد أن أحدثك بها وجهاً لوجه.

قرأت الرسالة عدة مرات وبدأت أتصور أنه من المؤكد أنه على خلاف مع أحد من إخوته.

وعند عودتي إلى المنزل مساءً طلبت منه أن نجلس في غرفة المكتب وحدنا للتحدث بالأمر وسألته: ما الذي جعلك تُرسل لي هذه الرسالة؟ هل أنت غاضب من شيء؟ وما الذي جعلك تفعل بهذا؟ قال: إن أختي لا تعطيني القلم، وإذا أردت أن أذهب لشراء مجلة تنهرني والدتي؛ لأنها لم تأذن لي من قبل، وأخي يرفض أن يصور لي أوراقي الدراسية.. وغيرها.

وكانت كلها أموراً أراها تافهة بالنسبة لي. قلت: لكني لم أتحدث معك في أي أمر من هذه الأمور. قال: صحيح، ولكنك تحدثت معي عن أخطاء أفعلها، وأنت لا تتحدث معهم عن أخطاء يفعلونها هم.

قلت: ربما تحدثت معهم ولكنك لم تنتبه ولم تسمع،

قال: إذن لماذا تحدثت معي أمامهم ولم تتحدث معهم أمامي؟ فأحرجني وأشعرني أنني أخطأت في حقه وأنقصت من قدره، وأني فعلت ذلك دون شعور ولم أقصد بذلك شيئاً.

فانتهزت فترة العشاء وكانت والدته ـ رحمها الله ـ موجودة معنا فقلت لها: إن لهذا البيت نظام، وعلى كلٍ منا أن يحترم هذا النظام، وذكرت كل ما ذكره لي دون أن أسمِّيه، كما كان يفعل رسول الله ﷺ، حين كان يصعد إلى المنبر ويقول: **«ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»**[1]. ولم يكن هناك أقوام بل شخص واحد والناس يعرفونه ويعرفون ماذا فعل، ولم يكن ليسميه على المنبر ـ وعدت وقلت لهم: إن بعضكم يميز نفسه عن الآخرين بسبب سِنه وليس هذا سبباً للتمييز بل هذا خطأ، بعضكم يستصغر من هو أصغر منه وهذا خطأ، بل ينبغي أن يستكبرهم لكي يكبروا. ثم قصصت معهم بعض القصص وانتهت السهرة على خير.

وبعد عدة سنوات وبعد أن كبر هذا الولد وتخرج من الجامعة، حضر لزيارتي أحد الأصدقاء ليسألني عن كيفية تربية أولاده فذكرت له هذه الواقعة، وكان الولد جالساً فخجل من نفسه وقال لي: ألا زلت تذكر ذلك؟ فقلت: نعم، ولا زلت أحتفظ بالرسالة حتى الآن، وأقرؤها من حين إلى آخر لتذكرني أن الإنسان ليس معصوماً عن الخطأ، وأننا مهما بذلنا من الجهد علينا أن نستمع إلى نصيحة أولادنا.

---

(1) ذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (الحديث: 7/ 542).

وذات مرة مررنا بظروف صعبة من ظروف حياتنا وكنت أنا وزوجتي نعرف هذا الظرف ونتابعه، أنا المتعرض له أساساً والأم تشاركني تبعاته ومسؤولياته، فلاحظتْ ذلك إحدى بناتي، فكتبت رسالة، وسلمتني إياها بيدي تقول فيها: أنا ألاحظ أن البيت فيه مشكلة كما لو أنه أصابه شرخ، فما الذي حدث فيه، ومتى ستتدخل لإنقاذنا، وكيف تتركنا بهذه الطريقة وأنت الأب الذي يعرف الأصول؟

أعطتني درساً عما يجب عليّ أن أفعله في هذه المحنة. في ذلك الوقت كنت غارقاً في المحنة التي أعيشها ويعيش فيها أحد أصدقائي غرقاً تاماً، وقد أهملت البيت لأن زوجتي كانت هي المهتمة بأموره نيابة عني.

أدركَت البنت أنني لا أعطي البيت الوقت الذي اعتدتُ أن أعطيه إياه، ولا أعطي الأولاد الوقت الذي اعتادوا عليه فكتبت لي هذه الرسالة. ولا زلت حتى الآن أحتفظ بهذه الرسالة، وهذه التوجيهات من المراهقين هي أهم ألف مرة من توجيهاتنا إليهم. لذا أريد أن ألفت انتباه الآباء إلى أن المراهق ليس كماً مهملاً ولا شخصاً ضعيفاً ولا إنساناً تافهاً، بل هو شخص ذو عقل وذكاء حاد. كان الإمام عمر بن الخطاب ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الفتيان يستشيرهم ـ أي المراهقين ـ يبتغي حدة عقولهم.

فللمراهق عقل حاد فاستفيدوا منه في البيوت وعلّموه أن

يتحمل المسؤولية، وأشركوه في إدارة المنزل كلما استطعتم ذلك، وبذلك تخرجون من فترة المراهقة بفوائد بدلاً من أن تخرجوا منها بكوارث لا قدّر الله.

سن البلوغ:

كيف يمكن للأهل أن يتعاملوا مع التغيير الذي يحدث في حياة الفتى عندما يبلغ مبلغ الرجال، والفتاة عندما تبلغ مبلغ النساء، ومن هو المخوّل إرشادهم ونصحهم وتعليمهم بما سيكون عليه حالهم مستقبلاً؟

هل نتركهم للعلوم التي يتلقونها في المدرسة أم للخرافات التي يحدّثهم بها أصدقاء السوء ـ وأنا لا أسميهم أصدقاء بل معشر السوء ـ؟ فكيف يمكن للأهل أن يواجهوا هذه المرحلة؟

في هذه المرحلة يجب تقسيم الواجبات بين الأهل القسمة العادلة: فالأم مسؤولة عن غرس المعاني القويمة والسلوك الواجب في الفتيات في سن المراهقة لينشأن نشأة سليمة تتفق مع الفطرة، والأب مسؤول عن غرس هذه المعاني وصور السلوك في الأولاد ليتحقق الهدف نفسه فيهم.

لأن البنت في سن المراهقة تحتاج إلى من يرشدها إلى أشياء شخصية جداً لا يمكن أن يكلّم بها الأب، مثل العناية بنفسها وبجسدها ونظافتها وبكل الذي يصدر ويبدو منها للناس، سواء أكان ذلك داخل البيت أم خارجه، وكذلك الستر والحشمة والتعامل الراقي والأسلوب الذي لا يجعل لأحد من الآخرين

مطمعاً فيها، وترك التدلل إذا كانت تعودت أن تتدلل في طفولتها على الأقارب والأصدقاء؛ وهذا لا يجوز ـ في سن المراهقة ـ لأنها لم تعد صغيرة وقد أصبحت كبيرة بلغت مبلغ النساء، وهذا كله من مهام الأم إذ ينبغي أن تُكلِّم فيه ابنتها بنفسها ويكون الكلام بوضوح شديد بحيث لا تخفي شيئاً عنها.

والقرآن الكريم علمنا ذلك، وأطفالنا يقرؤونه منذ الصغر في الكتاب العزيز: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 222]. فيجب أن يعرفوا ما معنى ذلك عندما يقرأونه ويعرفوا معنى الأذى فيه، وأنه أمر مستقذر فهو يدعو إلى الرفق بالمرأة وعدم تسبب الأذى لها. فالمنع من تلك العلاقة في أثناء المحيض قرين رفع الصلاة والصوم عنها. وهو رفق جميل بالنساء في جوانبه كلها.

وعندما تبتلى البنات بالدورة الشهرية لأول مرة تقع بعض الحوادث بحيث يظن بعضهن أنهن أصبن بمرض عضال؛ لأنهن لم يجدن من يرشدهن إلى ذلك من قبل. وهذا الإرشاد هو من واجب الأمهات، أما إذا كانت الأم قد ماتت أو كان من غير المتاح لها تعليمها لابنتها لأي سبب كان، فليعمل الأب على ذلك كأن يطلب من إحدى قريبات الفتاة مثل العمة أو الخالة أو أي كبيرة في الأسرة أن تشرح هذا الأمر لها. وعلينا أن نحسن انتقاء التعابير والمصطلحات التي نستخدمها خلال الحديث عن مفهوم الطهارة. وهذه المسألة مهمة جداً لأن الكلام العربي

متسع اتساعاً لا نهاية له، وبإمكاننا أن نعبر عن كل معنى بكلمة جميلة أو كلمة قبيحة.

والله تبارك وتعالى عندما تكلم عن العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة قال: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: 43]، فلم يستعمل لفظاً آخر، والألفاظ الأخرى كثيرة اختار القرآن الكريم منها أكثرها رقة: لامستم.. مجرد الملامسة. وهذه الرقة البالغة عبّر بها عن حالة الجماع وهي أقصى ما تصل إليه العلاقة بين الرجل وزوجته.

ولما عبر عن المحيض قال: هو أذىً، أي حال يقتضي رحمتهن من العلاقة الحميمة مع أزواجهن.

ومسألتا الصلاة والطهارة هما مسألتان مهمتان جداً، فأنت لا تستطيع أن تقرب الصلاة إلا إذا اغتسلت، والاغتسال له شروط يجب تعلمها.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الشاب فهو في هذه السن يصاب أيضاً بأعراض تجعله عُرضة لأن يفعل أفعالاً لم يكن ليفعلها وهو صغير.

فهو يحتاج إلى الغُسل إذا احتلم في الليل وهذا ينبغي أن يبيّن له؛ لأننا لا نضمن أن يكون على عِلم به وأنه يعرف ذلك، فقد يذهب ويصلي وهو على جنابة، أو قد لا يدري كيفية سنن الغسل من الجنابة.

وكذلك مسألة الشعر الزائد في الجسم الذي ينمو تحت

الإبط والمواضع الأخرى والذي ينبغي إزالته شرعاً، إذ أن نظافة هذه المواضع سُنة، وهي من خصال الفطرة، وهذا الأمر ينبغي أن ينبه إليه كلٌّ من الفتى والفتاة؛ لأن استكمال هذه النظافة، وهذه الطهارة هو من أجل الصيام والصلاة ومن أجل التعامل مع الناس.

فالأولاد يجب أن يتعلموا في البيت ـ لا في المدرسة ـ أن عليهم أن يحافظوا على مظاهرهم حسنة وروائحهم طيبة، لأن الإنسان إذا كان قبيح المنظر خبيث الرائحة ازدرته العين وابتعد عنه الناس.

كما لا يجوز أن يُتْركوا إلى قرناء السوء أو أهل الجهالة من العوام، لأن كثيراً من هؤلاء يفسدونهم، ولا ينبغي أن يترك لهم الحديث في الأمور المهمة أبداً. فإذا عرفت الأم أو الأب، أو ظنوا مجرد الظن، أو سمعوا، أن هناك حديثاً مما يتعلق بهذه الأمور يدور بين الابن أو الابنة وبين بعض من يعيش في المنزل أو من يزوره من عوام الناس وجهلتهم فإن عليهم أن يوقفوا ويمنعوا ذلك منعاً باتاً وبسرعة؛ لأن الضرر من ذلك أكثر مما يتصور، فالمهمة الأساسية هنا هي مسؤولية الأبوين، الأم بالنسبة للفتيات أو من يقوم مقامها والأب بالنسبة للأولاد أو من يقوم مقامه.

قد نجد بعض الآباء يستحي أن يتكلم مع ولده في هذا الأمر وهذا خطأ؛ لأنه أحق من يجب أن يكلمه في هذا الأمر.

وفي الحقيقة هذا ليس حياءً، بل هو خجل لا يليق بالمربّين، عن أم المؤمنين عائشة ﵄ قالت: «رحم الله نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين».

وكانت المرأة تأتي إلى بيت رسول الله ﷺ وتسأل إحدى نسائه عن الأمر الخاص جداً فيُقال لها: انظري رسول الله ﷺ حتى يأتي، وفي إحدى المرات قال رسول الله ﷺ لأم سلمة: **«ويحك، لماذا لا تخبريها أنني أفعل ذلك»**[1]، وكان يقصد بذلك القُبلة للصائم.

هذا السلوك الذي تسميه حياء هو ليس في الواقع حياء، بل هذا خجلٌ غير سائغ وغير مبرر؛ لأنه يحرم الأبناء من التعليم الواجب الذي يجب أن يقوم به الآباء والأمهات.

وهذا الخجل لا يؤدي إلى خير؛ لأن الرسول ﷺ يقول: **«الحياء خيرٌ كله»** وفي رواية: **«والحياء كله خير»**[2].

هذا النوع من الخجل لا خير فيه بل شر، وهو ـ غالباً ـ من التصنع غير الجائز لأنه يترتب عليه حرمان الولد أو الابنة من المعلومات الصحيحة طبياً ودينياً وأخلاقياً؛ المعلومات التي ينبغي أن يتعلمها ليعرف ماذا يفعل وماذا يترك.

إذا أهملت أنت ولدك في هذه الشؤون فماذا سيحدث؟

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 2583).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 156)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 4796)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 4/ 426).

سيذهب إلى صديقه الذي قد يكون صالحاً أو فاسداً، أو قد يعرف أو لا يعرف، ويقول له: تعال لنجرب ولنعرف ماذا سيحدث إذا فعلنا كذا وكذا...... ويقال للفتاة الشيء نفسه. ويفسد الفتى وتفسد الفتاة من حيث أراد الآباء أن يحموهم.

عندما تقدم أنت لهما المعلومات الصحيحة باللغة الراقية فأنت لا تخدش حياءهم بل أنت تربي فيهم الفضيلة وتعلمهم حقيقة الحياء الذي لا يمنع من التفقه في الدين، لأنك تعلمهم أنّ هذا موضع من مواضع الستر وهو من المواضع التي يجب أن يعتنى بها، وأنه سُنة نبوية، وتعلمهم أن هذا من الدين ومن حسن المظهر الإنساني أيضاً.

فأنت تربيه بكلمات إنسانية مهمة دون أن تُشعره أنك تهين كرامته أو تجعله يسخر من نفسه أو يهزأ بها. واستعمال الألفاظ الموحية الدالة غير الجارحة ضروري جداً في هذا المقام. ولكن لا يجوز أن يستعمل اللفظ الغامض الذي يحرج معه الأبناء من السؤال أو الذي يجعلهم يصابون بحرج مبالغ فيه من هذه الأحوال الطبيعية التي خلقها الله في عباده جميعاً.

مرحلة التفتح

سوف نتحدث في هذا الموضوع عن ما يهوى أولادنا في سن المراهقة، حيث تكثر الاهتمامات وتكثر التطلعات والمواهب، وتكثر التفاهات وبعض الحماقات، وكيف يمكن استيعابها، وكيف يمكن التعامل مع هذه المواهب المتعددة والمتقلبة وهذا المزاج المتغير لدى المراهق؟

تقع في مرحلة التفتح ـ أو كما سميتها مرحلة المراهقة ـ تناقضات متعددة في شخصية الشاب أو الفتاة، وتقع فيها تطلعات متنوعة تتغير أحياناً بسرعة أكثر مما نتوقع نحن الكبار. وحق المراهق علينا ـ ولا نقول واجبنا نحوه ـ هو أن نعطيه كل شيء مما يطلبه من العناية والاهتمام.

فالمراهق يحتاج في نموه الجسدي أن يُعتنى به رياضياً وغذائياً، وأن يُعتنى بتعرضه للهواء والشمس، وممارسة أنواع الرياضة التي يحبها حتى يُعطى الجسد حقه من العناية به في مرحلة النمو والتكوين.

ويحتاج عقله أن يُعطى حقه من الإرشاد إلى ما يحب وتشجيعه عليه، فهو سيحب اليوم الشعر وسيحب غداً القصة وسيحب بعد غد الموسيقى، وسيكون مقلداً لمطرب من

المطربين بعد أيام قليلة، وسيكتب كلاماً بعضه هذيان وبعضه حماقات وبعضه جد، ويرى أن هذا كله على مستوى واحد وينبغي أن يؤخذ مأخذاً جاداً ويجب أن يناقش فيه.

والأب أو الأم يجب أن لا يهملا شيئاً من هذا أبداً، فإذا كان الشاب يحب الرياضة فينبغي أن يشجع عليها، وأن يؤخذ إلى الأماكن التي تمارس فيها والأماكن المناسبة لها، لأن تركه وشأنه يمكن أن يؤدي إلى ممارسة غير صحية أو غير نافعة رياضياً. وهو في الرياضة لن يختار رياضة واحدة، فقد تراه يهوى كرة القدم، ثم ينتقل إلى كرة السلة، أو أنه سيحب ممارسة رياضة رفع الأثقال ليكون مثل الأبطال الذين يرى صورهم.

فعلى كلٍّ من الأب والأم متابعة ولدهم وتشجيعه في ذلك كله، فإذا أحب كرة القدم فليذهبا معه إلى مباراتها وليشجعانه عليها، وإذا تركها إلى رياضة أخرى فلتتقبل الأسرة هذا الأمر ولتشجعه على رياضة ثانية وثالثة حتى يستقر على واحدة منها وعلى ما يحب.

حدث مرة أن مارس أحد أولادي عدة أنواع من الرياضات، وكان عنيفاً، وإذا أغضبه أحد غضب غضباً شديداً، وإذا تشاجر مع زميل في المدرسة ضربه وأحدث معه مشكلة، ولم يكن يخجل من ذلك بل كان يقول: أنا آخذ حقي فأنا لا أقبل أن يهين أحد كرامتي.

والمراهقة عنف وعنفوان، وفجأة وجدناه يمارس رياضة الكاراتيه في النادي الذي يشترك فيه، ولم أكن أعرف ما هي رياضة الكاراتيه، فسألته: لماذا اشتركت في هذه الرياضة؟ قال لي: لأني أحبها، فقلت له: فمارسها إذاً. وكان يحتاج إلى ملابس معينة فاشتريناها له ثم بدأ يذهب إلى التدريبات في أوقات معينة، فكنت أذهب معه أو يذهب معه أحد إخوته أو يذهب وحده إلى النادي.

وفي أحد الأيام جاء إلى المنزل وكان مبتسماً وضاحكاً فقلت له: ما بك فأنت اليوم سعيد كما أرى، هل حصلت على درجات عالية في مادة ما؟ فقال لي: لا، ثم استمر في ابتسامته الواثقة من نفسه وقال: اليوم تشاجرت مع شاب في المدرسة، فسكتُّ عنه وعندما نزلنا إلى الفرصة نظر إليّ فقلت له: أيها الشاب لا أريدك أن تتحرش بي؛ لأنك لو فعلت سوف تؤذى، ولكنه لم يأبه وظل يتحرش بي وأراد أن يضربني، فعالجته بحركة مما تعلمته في رياضة الكاراتيه، فسقط على الأرض أمام الطلاب، ووقف فزعاً ثم قال: ما هذا يا عبد الرحمٰن كيف فعلت ذلك بي؟ قلت له: أنا لا أريد أن أعاملك بقسوة لتكف عن مشاجرتي، وأنا بعد ذلك لن أتعرض لك حتى لو تحرشت بي فسأتركك.

وسألته: كيف أصبحت كذلك وأنت كنت لا تترك ثأرك وتريد أن تنتقم ممن أساء إليك؟ فقال لي: لو كنت عاملته بما تعلمته من أمور الكاراتيه فسوف أؤذيه، وأنا لا أريد أن أؤذيه

ولكن أريده أن يكف عن التحرش بي وأن أكف أذاه عني، ونبهته أنه في المرة القادمة سوف أعامله بتلك الطريقة، وكان قد بَلَغَهُ من أصدقائي أنني تعلمت ممارسة هذه الرياضة فامتنع عن ذلك.

وبعد مرور مدة من الزمن رأيته قليل الغضب على عكس ما كان عليه منذ شهور، فسألته: من الذي جعلك تصبر وتحتسب، قال: كنت أغضب وأنا ضعيف فلم أستطع أن أدافع عن نفسي، فكان الغضب وسيلتي في الدفاع عن نفسي، الآن أنا أعلم أن الذي يعمل على استثارة غضبي لن يستطيع مواجهتي، لذا لم أعد أغضب؛ لأنني أصبحت الأقوى.

انظر إلى هذا المراهق الذي اكتشف بنفسه كيف يكون حَسن الخلق نتيجة ممارسته الرياضة، فلو حرمته أو منعته من ممارسة الكاراتيه لكان من الممكن أن يتعرض لإصابات معينة، وحدث ذلك مرة فعلاً فوقع وأصيب في ركبته وأجرى الجراحة ثم توقف مدة قليلة عن ممارسة الكاراتيه، وبعد أن عولج عاد مرة أخرى فتوقف عنها وعاد إلى ممارسة رياضات أخرى، إلا أن هذه الرياضة بالذات منحته الثقة بنفسه.

كانت أخته تمارس هواية الكتابة، وكانت تكتب كتابة المراهقين عن ما تتمناه وتحبه، وكنت أنا ووالدتها أحياناً نقرأ ما تكتبه، ونحن نعلم أنها ككل المراهقين تمر بهذه المرحلة وستنتهي منها. ومرت بمرحلة كانت تقرأ فيها قصصاً من

القصص التي لا نحب لأولادنا أن يقرؤونها، ولكننا كنا قد اتفقنا على أن نترك لهم حرية ما يقرؤونه.

وفي العام التالي جاءت بنوع آخر من القصص التي كانت تقرؤها، وهذا النوع من القصص هو أكثر جدية ورقياً، فسألتها: أين القصص التي كنت تقرئينها في العام الماضي؟ قالت لي: تلك كانت مرحلة مررت بها وأنا الآن كبرت، وقد أصبحت أقرأ للعقاد والمزني والحكيم وطه حسين. فهي قد تجاوزت هذه المرحلة بنفسها وخرجت منها وحدها دون أن نتدخل بها.

فالشاب والفتاة في هذه السن يحتاجان إلى هذا النوع من العناية التي هي المراقبة على مسافة دون قهر ودون إكراه أو إجبار، حتى يكوّن المراهق لنفسه الشخصية المناسبة، ثم يكمل بناءها وحده دون تدخل الأبوين.

أما إذا قلنا له: هذا فساد، وهذا خطر، هذا لا يصلح، لماذا لا تدرس؟ ولماذا تخرج كثيراً؟، فنحن نحبطه ونكبته ونحوله إلى إنسان إما منطوٍ أو متمرد، وكِلا الأمرين مرض يحتاج إلى علاج مكلف.

والنصيحة في هذه السن للآباء والأمهات أن يكونوا أقرب ما يستطيعون إلى أبنائهم، وأن لا يُشعروهم بهذا القُرب، وأن يكونوا أصدقاءهم وأن يكونوا مراقبين لهم دون أن يُشعروهم بهذه الرقابة، وأن يكونوا موجهين لهم دون أن يكرهوهم على ما لا يحبون.

لأننا عندما لا نتبع طرق الوقاية يأتي المرض ونفاجأ به، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تربية الأولاد عندما يصلون إلى سن المراهقة دون أن نعودهم على المصارحة، ودون أن تنشأ بينهم وبين آبائهم علاقة حميمة.

معرفة أصدقاء اولادنا:

قلنا إن علينا أن نصاحب أولادنا وأن نكون معهم منذ نعومة أظفارهم، وفي فترة مراهقتهم، ولا بد أن تستمر هذه الصداقة حتى بعد أن يصبح الابن (أو الابنة) قادراً على القيام بأمر نفسه، ولكن دون أن يشعر. إلا أن أهم ما ينبغي أن نفعله في هذه الصداقة هو معرفة أصدقاء أولادنا، بحيث نتعرف إليهم ونتعامل معهم معاملة طبيعية.

أعرف بيوتاً إذا رن جرس الهاتف وكان المتصل صديقاً للشاب أو الفتاة قيل له: إنه نائم أو غير موجود أو يدرس؛ لأن الأسرة لا تريد أن يتعطل الشاب عن عمله أو يضيع وقته بالكلام مع أصدقائه.

كنت ولا أزال أفعل غير ذلك، إذا اتصل أحد أصدقاء أولادي أقول له إذا أراد أن يتحدث معه: من يريده؟ وأتعرف عليه وعلى أسرته، ومن هو والده، وإلى أي مدينة أو قرية ينتسبون، ثم أتحدّث معهم بأسلوب التودد والممازحة ليشعر الابن أن والده يتجاوب مع أصدقائه، فتنشأ صداقة بين الأهل وبين أصدقاء الأولاد وصديقات البنات.

وإذا حضر أصدقاؤهم لزيارتهم مثلاً لا تتركهم في غرفة ابنك أو ابنتك ويقفلون الباب عليهم، بل اطلب منهم الجلوس معك في غرفة جلوس العائلة لشرب الشاي، فأنت بهذا تخلق عندهم نوعاً من الاطمئنان. راقب حركاتهم ونوع الحديث الذي يتحدثونه لترى الصالح من المفسد، ثم بعد أن يخرج أو يخرجوا تسأل ابنك عن أصدقائه كل واحد على حدة لتعرف شخصية كل منهم.

وقل لابنك: صديقك هذا ليس كالآخر، فإذا قال: إن صديقه الأول طيب، أما الآخر فهو يحب المزاح قليلاً أو حاول أن يخفي شيئاً، فليكن دورك هنا التأكد من نوعية ذلك الصديق. وبهذا النوع من المتابعة تجنبه الانسياق إلى قرناء السوء الذين لا بد من أن يصادفهم في يومٍ ما، وتُشعره أنك تعرفهم وتراقبهم وتتابع ما يفعلون لتحميه منهم.

أحياناً يسألني الأولاد: من أخبرك يا أبي أن هذا الولد سيىء أو هذه الفتاة سيئة؟ فأقول لهم: من الخبرة والعمر، فنحن بالنظر نستطيع أن نحكم على الأولاد. وقد أكون سمعت شيئاً أو رأيت شيئاً لا أحب أن أقوله لأنني لا أحب أن أفضح صديق ابني أو صديقة ابنتي؛ لأن الفضيحة مخزية والنصيحة نافعة فيجب أن نتجنب الفضيحة ونستعمل النصيحة.

هذا النوع من الصلة بين ابنك أو ابنتك وأصدقائهم ينشىء بينكم ثقة كبيرة، هذه الثقة تجعله يأتي يوماً ويسألك فلان فعل كذا وكذا فكيف أتجنبه؟ وهل هذا صواب أم خطأ؟ وبهذا النوع

من الحوار المتبادل والصلة المستمرة واصطناع المواقف التي تنشىء بها صلة بين ولدك وبين أصدقائه، وبينك وبين أصدقائه تنمو صداقاتك بابنك بعد مراهقته أيضاً ويبقى صديقك طول العمر ومدى الحياة.

أصدقاء السوء:

الواقع أنا لم أمنع أولادي عن أحد أصدقائهم سواء الأولاد أو البنات، بل كنت أبيّن لهم ما أراه من فساد أو صلاح.

فكنت مثلاً أقول: أنا أحب هذا الولدَ لأنني كنت أراه يصلي في المسجد. وكان لأحد أولادي صديق يمشي في الصباح الباكر بعد صلاة الفجر، وكان يصحبني وأنا أمشي في الحديقة، وعندما أعود إلى البيت كنت أقول لابني: لقد رأيت اليوم صديقك فلان يبدو أنه يحافظ على صلاة الفجر، فيقول لي ابني: نعم إنه لا يصلي إلا في المسجد.

وكنت أقول له: إنه ولد طيب. وهو لا يزال صديقاً له إلى يومنا هذا، وهو يعتبر نفسه فرداً من عائلتنا وابني يعتبره كذلك.

وكنت إذا رأيت أحد أصدقائهم يتصرف بشكل سيىء وغير لائق أقول لهم بكل صراحة: إن هذا لا يجوز ولا يليق بالمسلم أن يفعله، ولا يصح للإنسان المحترم أن يصادق من يفعل هذا،

وعليك أن تنصح صديقك بالإقلاع عن هذا السلوك وإلا لا تصادقه.

وقد كانت نتائج هذه الطريقة باهرة بالنسبة إليّ، بحيث كانوا كثيراً ما ينجحون في إقناع أصدقائهم بترك السلوك السيىء، أما الذين لم ينجحوا في إقناعهم كانوا يقطعون صلتهم بهم من تلقاء أنفسهم.

فأنا لا أنصح أن يُترك الولد حراً يختار اختياراً مطلقاً، بل أنصح بتوجيهه ومصاحبته ومصارحته بكل ما يمكن أن نراه سيئاً.

أوقات اللهو:

يشعر الفتى في سن المراهقة أنه يستطيع أن يكون مستقلاً بذاته وبشخصيته ومعارفه وأصدقائه، وفي هذه الأيام ابتُكر للشباب العديد من أدوات اللهو خارج المنزل. ومن الضروري جداً أن نقنن لهم الأوقات، وهذا ليس من باب القهر والكبت؛ بل من باب احترام المنزل. هناك معنى يغيب عن أذهان الكثير من الناس، وهو أن المنزل مؤسسة ولها قوانينها وعلينا احترامها ووجوب طاعتها. ومن قوانين المنزل أن يكون له أوقات لا يجوز بعدها لأحد البقاء خارج البيت إلا لسببٍ مشروع، كعمل مثلاً أو دراسة أو ما إلى ذلك. أما أن يُترك للشاب أن يخرج متى يشاء وأن يأتي متى يشاء دون أن نعرف أين هو فهذا فساد، مع التنبيه أن الفساد قد يقع أيضاً في الأوقات المسموح الخروج بها ومن دون أن نعرف.

فنحن في بيتنا مثلاً كنا ونحن صغار ـ وفعلت ذلك مع أولادي ـ لا يخرج أحد من المنزل ـ بمن فيهم أنا ـ إلا ويقول لأهل البيت: أنا ذاهب إلى المكان الفلاني كذا وكذا، فإن كانا مكانين يقول: وكذلك إلى المكان الثاني حتى يعرف أين نتصل به وكيف يُطْلَب إذا كان هناك ضرورة.

لقد سمعنا الكثير من المربين يرددون إنك تربي أولادك لزمان غير زمانك فدعهم لزمنهم، ففكرة اختلاف الزمان فكرة صحيحة، لكن فكرة اختلاف القِيَم فكرة غير صحيحة، نحن نربيهم في جميع الأزمان بالقِيَم نفسها، **نربيهم ليواجهوا بالقِيَم الثابتة الزمان المتغير**.

فالذي يتغير إنما أدوات الترفيه ووسائلها وأماكنها، أما قِيم الصدق والحرية والأخوة والتقوى فهذه قِيَم ثابتة لا تتغير.

إذا تعامل المرء مع كل الوسائل وكل الأوقات بالقِيَم نفسها خرج المنتج ـ أي الولد ـ السليم، أما إذا تعامل بطريقة لا قانون لها إلا إرضاء الناس، ولو كانوا على باطل فإنه يخرج لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، يخرج خلقاً جديداً غير الذي تعرفه، وغير الذي تحبه، وغير الذي يصلح لإرساء الخير أو صنعه في هذه الحياة. فيجب أن تُقَنَّنَ الأوقات وتُقَنَّنَ المعايير وتُحْتَرَم القِيَم، ويجب أن يكون لمؤسسة البيت ضوابطها التي بغيرها لا تستقيم.

انفصال الأبوين

ننتقل إلى الحديث عن كيفية التعامل مع المراهقين في أسرة لها أوضاعها الخاصة بها، مثل الطلاق أو وفاة أحد الوالدين، أو وفاة الوالدين معاً.

مثل هذا التغيير يُلقي مسؤولية أكبر على الطرف الباقي من الأبوين في الأسرة، والحالة الثالثة التي ذكرتها ـ أي حالة وفاة الوالدين معاً ـ، أكثر ما تحدث الآن في أرضنا المحتلة في فلسطين، أو في العراق، أو في أفغانستان. فالأبوين قد يفقدا من جراء الحروب البربرية التي يحدثها الصهاينة والأمريكان، بحيث يبقى الأولاد بلا عائل أصلاً، لا أب ولا أم.

الطلاق:

في هذه الحالة يكون الأمر أصعب منه في حالة الوفاة؛ لأن الطلاق عادة يقع بعد الخلاف بين الزوجين، لذلك يتوجب على كلٍّ من الزوجين بعد حصول الطلاق أن يحافظ على قِيَم الاحترام للآخر، وقِيَم عدم ذكر الآخر بسوء، وقِيَم عدم تشويه صورته بالحق أو بالباطل.

الواجب على الزوجين في حالة وقوع الطلاق أن يذكر كلٌّ

منهما الآخرَ دائماً بالاحترام الواجب له، وأن يذكره أمام أولاده بما فيه من خير وليس بما وقع منه من خطأ أدى إلى الفراق أياً كان الخطأ وأياً كان مرتكبه.

وعليه أن يذكر لأولاده دائماً أن العلاقة بينهم أي: الأولاد وبين الطرف الآخر - إن كان المتحدث الأب أو الأم - علاقة أزلية لا تنفصم، فإن كان الأب: فالأم هي التي حملتهم وأنجبتهم، وإن كانت الأم هي المتكلمة: فالأب هو أبو هؤلاء الأولاد الذين يحملون اسمه ونسبه ودمه إلى يوم القيامة.

وكثيراً ما يحدث بين الزوجيْن المطلقيْن أن يتكلم كلٌّ منهما عن الآخر بالسوء، فقد تجده يعمل على تشويه صورته ويقول: فعل كذا.. وفعل كذا أو كان يفعل كذا... وعندئذٍ يفقد الأولاد احترامهم لذلك الطرف الذي سمعوا عنه ذلك الحديث السيىء مؤقتاً.

وأقول مؤقتاً؛ لأنهم عندما يكبرون سيفقدون احترامهم كذلك للطرف الذي سمعوا منه ذلك الحديث السيىء عن الطرف الآخر، وعندما يصبحون رجالاً أو نساءً ويرون أن الحياة يقع فيها طلاق، ويقع فيها فراق، ويقع فيها زواج آخر بعد الطلاق سيسألون أنفسهم: لماذا قيل لنا هذا ولماذا قيل لنا ذاك؟! ولماذا نحبهما معاً؟ وبذلك يفقد كلٌّ من الأبوين احترام أولاده له.

وقد يقع العكس، فقد يفقد من أساء منهما لصاحبه احترام أولاده، ويسترد الطرف الذي لم يسىء إلى الطرف الآخر حبهما.

ثم إن حضانة الأم للأولاد تكون لفترة معينة في المرحلة الأولى، ثم تأتي حضانة الأب في المرحلة الثانية.

ففي المرحلة الأولى من الحضانة يكون على الأم أن تقوم بدورها ودور الأب معاً، وكذلك في المرحلة الثانية يكون على الأب أن يقوم بدوره ودور الأم. أما عندما يأتي الشريك الغائب إلى البيت ـ أي عند زواج الأب أو الأم ـ، فعندئذٍ ينبغي أن يكون هناك اتفاق بين الشريكين الجُدد على أن يعامل الأولاد مثل المعاملة التي يعاملها الأبناء من أبوين مشتركين فيهما، لا المعاملة التي تقع من زوج الأم أو زوجة الأب.

لأن الشائع في ثقافتنا العربية أن زوجة الأب سيئة وأن زوج الأم أسوأ منها.

أما الواقع فنادراً ما يعلنه الإعلام وتظهره الشاشة والأفلام ولا تكتب عنه القصص والروايات، وإنما تختار منه النموذج السيىء الشاذ دائماً، والذي يظهر بشاعة الطرف الآخر سواء أكان الزوج أم الزوجة، أي زوج الأم أو زوجة الأب.

بينما الواقع الذي عشناه ونعيشه الآن غير ذلك، فقد رأينا أن آلاف البيوت التي يقع فيها هذا الطلاق والاقتران من جديد يعيش الجميع فيها حياة طيبة وكريمة، ويعامل الأولاد أحسن معاملة، ويتعاون الزوجان على تنشئتهم أحسن تنشئة.

يحتاج المراهقون في هذه المرحلة إلى حزم أكثر؛ لأن اختلال الميزان في الأسرة يجعل الشاب أو الفتاة أقرب إلى التفلت والتحرر والاستقلال عن هذا الأب أو هذه الأم. والبعض

يقابل ذلك بمزيد من الشفقة والحنو، ولهذا أقول: نحتاج إلى مزيد من الحسم والحزم؛ لأن الشعور بأن هذا مسكين ليس له أب وهذه مسكينة ليس لها أم قد يؤدي إلى ضياع الفتى أو الفتاة.

يجب أن يقترن الحزم بمزيد من صداقة الفتى أو الفتاة، وبمزيد من الالتصاق بهما، وبمزيد من التعرف على خصوصياتهما، لا بواسطة التفتيش والمراقبة سراً ولكن بواسطة الحديث والحوار والمناقشة، والبناء على ما يقولونه هم عن أنفسهم وعن تطلعاتهم المستقبلية.

وهذه المرحلة إذا استطعنا أن نخرج منها بسلام ظلت العلاقة بين الطرفين، أي المفترقين بالطلاق، وبين أولادهما علاقة طيبة حسنة، أما إذا كانت كما ذكرنا ـ أي إساءة كل طرف إلى الآخر ـ خرجنا منها بشخصيات سيئة غير سوية ومشوهة. وهذا يعني أن مهمة الأم أو الأب في هذه المرحلة أصعب بكثير من مهمتهما وهما مجتمعين كزوجين مع أبنائهما في بيت واحد.

وفاة الوالدين او احدهما:

وفي الحالة التي يُفقد فيها الوالدان نتيجة عدوان أو قصف وما يحدث نتيجة احتلال أو اعتقال مما يقع من الغزو وغيرها ـ كما ذكرنا ـ يعيش الأولاد في محيط أوسع من محيط الأم والأب، فهم يعيشون في محيط الأخوال والأعمام والعمات والجيران.

أعرف أسرة فُقِدَ فيها الوالدان، والجارة هي التي تهتم بشأن أولاد تلك الأسرة، كانت تعاملهم كما لو أنهم أولادها، بل وتقدم لهم كل ما يحتاجون إليه من مساعدات مادية ومعنوية.

إذا كان هناك أسرة كبيرة محيطة بالأولاد فذلك أفضل من أن لا يكون حولهم أسرة، وعندئذٍ يتعاون هؤلاء الأقارب على إعادة تكوين الأسرة الصغيرة دون أن يأتوا لهم بأب وأم بديلين، وإنما بالقِيَم والأخلاق والمعاني الطيبة التي ينشؤونها في نفوسهم ومن خلال تعاملهم اليومي معهم يعوضونهم عما فقدوه.

يشعر الأولاد دائماً أن للآخرين أب وأم وهم ليس لهم لا أب ولا أم، هذا الشعور لن يفارقهم، والتعويض عنه يكون بالاحترام، والاستقامة، والحنو، والشفقة، والحزم، والحسم، والتوجيه النافع دون غلو أو تفريط.

هذا هو واجب الأُسر التي تحيط بالأولاد الذين يفقدون أحد والديهم أو الوالدين معاً، وهذا واجبهم؛ لأن هذه المقارنة بين اللين والحسم وبين الشدة المطلوبة والرفق الواجب، تعوض الأبناء عن كثير من المشاعر التي فقدوها من الأم ومن الأب وهم صغار والتي يجدها غيرهم في الأسرة الطبيعية.

المراهق عادة يشعر بقوته واستقلاله، وإذا لم يكن له أم أو أب حوله يزداد شعوره بالاستقلال، فيجب على الأسرة التي حوله أن توجهه ليكون هذا الاستقلال نافعاً له. فإذا كان هناك فرصة ليعمل فيها في أوقات الفراغ يجب أن ننتهزها، وإن كان هناك فرصة لممارسة رياضة نافعة يجب أن نشجعه عليها، وإن

كان هناك فرصة لمرافقة أصدقاء الخير لا أصدقاء السوء يجب علينا أن نسعى إلى ذلك.

كل هذه العناية بالمراهق أو المراهقة تساعده على الخروج من الأزمة التي يواجهها عندما يفقد أحد والديه، أو والديه معاً، وتشعره بأن البديل متاح وأن رحمة الله واسعة، وأن هذه الأسرة التي تحتضنه وترعاه وتجعله واحداً من أبنائها تقوم بالدور الذي يقوم به الوالدان.

استمرارية الحياة:

كيف يمكن أن نربي أولاد هذه الأسرة التي فقدت الأبوين معاً على تقبل وضعهم الجديد؟ وكيف يمكن أن نقنعهم بأن المقدر كائنٌ لا محالة، خاصة في ظل أوضاع تسود فيها الحرب والعدوان والاحتلال وغيرها من أمور قد تطرأ على أيٍّ كان؟ بل إن بعض الناس يشعر الأبناء بأنهم ظُلموا عندما قدر الله أن يفقدوا أحد الأبوين أو أن يكونوا من ذوي الدخل المحدود! وهذه المشاعر السلبية تدمر الشخصية وتفقد القدرة على مواجهة الحياة.

هناك قول مأثور معناه: أي حدث يقع للفرد لا يعني نهاية الدنيا، لأن نهاية الدنيا تأتي بموت الإنسان، أما قبل أن يموت الإنسان فالدنيا مستمرة ويجب أن تستمر دائماً وذلك بالعمل والسعي في الكسب. ويجب أن نقول له: إن الدنيا لم تنته، انتهى دور أبيك أو أمك لكن دورك لم ينته بل بدأ للتو،

انتهى دور الأسرة الصغيرة وبدأ دور الأسرة الكبيرة.

وسينتهي دور الأسرة الكبيرة وسيبدأ دور المجتمع الذي ستجد فيه أصدقاء ومحبين، وستجد فيه أعداء، وعليك أن تتعلم كيف ستواجه وكيف ستتعامل مع هذا الواقع الجديد من منطلق مسؤوليتك مع نفسك.

ومجرد أن يشعر المراهق أو المراهقة أن عليه واجباً فهذا يمده بإرادة وبمدد من عند الله جديد، وبطاقة لا تنتهي، ويستحيل عليه عندئذ أن ينهار أو يقعد.

هذه الطاقة تتجدد بشعوره بالواجب، تتجدد بشعوره أن المهمة هي مهمته هو، وأن دوره أصبح حيوياً بعد أن كان ثانوياً، وأصبح هو الآمر والمعطي والموجِّه لنفسه على الأقل إن لم يكن لغيره أيضاً، وقد كان المتلقي والمأمور والموجَّه.

ويجب أن يعلم الأولاد منذ الصغر أن الموت حق، وأنه سيصيبنا جميعاً لا محالة، حتى إذا حدث الفراق أو حدثت الوفاة، يشعر الطفل أن ما كان يسمعه قد تحقق، وأن الذي كان يقال له أصبح واقعاً، وعليه أن يعيش ويقبل بهذا الواقع. وبهذا الشكل تتطور الحياة تطوراً تلقائياً طبيعياً.

إن إعداد المراهقين وتحضيرهم للحظة الفراق منذ الصغر، وتعليمهم أن هذه اللحظة آتية لا محالة وأن الموت قضاء الله لا دافع له، وعلينا أن نتقبله، وأن موت أحد الوالدين قد لا يكون شراً له عما نظن، وإدراكهم أن عليهم واجباً يجب أن يقوموا به،

كل ذلك يجعلهم ينمون نمواً طبيعياً. وكذلك إشعارهم أن الله دائماً أرحم من الوالدة بولدها، وأن رحمة الله قريبة من المؤمنين، وأن رحمته واسعة وسعت كل شيء، وسيكتبها للذين آمنوا، هذه التنشئة الإيمانية على القدر والقبول به والرضا به تساعدهم كثيراً في هذه الحالة.

الزوجة الثانية في حياة الأولاد:

قد يطرأ وضع آخر وهو أن يتزوج الأب زوجة ثانية أو زوجة أخرى إذا كان قد طلق زوجته الأولى، فكيف يكون التعامل مع هذا الوضع؟

في الواقع إن الدور الأساسي هو دور الأم، فالأب سيكون في حالة دفاع عن النفس أي في حالة ضعف، وأنا لا أحب للآباء أن يكونوا أمام أبنائهم في حالة ضعف مستمر فقد يضعفون لحظة ثم يقوون، وقد يخطئون ثم يصلحون، وهذا هو الخطأ بذاته.

وعلى الأم العاقلة الصالحة أن تبين لأولادها أن هذا ليس خطأ، وإن كان والدهم قد تزوج امرأة أخرى وأخطأ في حقها، وإن كانت لن تحب الضُرة، إذ لا توجد امرأة في الدنيا تحب الضرة، حتى فاطمة ﵂ ابنة رسول الله ﷺ عندما عرفت أن علياً﵁ يريد أن يتزوج من غيرها، اشتكت إلى أبيها فصعد المنبر وخطب في الناس وقال: «**إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم،**

ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»(1).

وترجم الإمام البخاري لهذا الحديث العظيم بعنوان باب: ذب الرجل عن ابنته في الغيرة، أي: غيرته ودفاعه عن ابنته إذا غارت، واعتبر دفاع الرسول ﷺ عن ابنته في هذه الحالة غيرة.

فقد تقع الغيرة لسيدة نساء العالمين كما تقع لكل النساء، إلا أن التعامل مع هذه الغيرة بالحكمة والحسنى أفضل، مثل قول الأم لأولادها: إن أباكم استعمل رخصة أعطاه الله إياها، وهذا حقه. وأنا لم أرض بهذا الاستعمال، وأنا غاضبة منه لهذا السبب ولكنه والدكم، والأولاد الذين ستلدهم له هذه المرأة هم إخوتكم من أبيكم ولهم عليكم حقوق، ولا يجوز أن تقطعوا الرحم؛ لأن الله يقول في الحديث القدسي: **«الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»**(2).

هذه المعاني تُشعر الأولاد أن الذي وقع ليس كارثة، وأن الذي وقع قد أغضب والدتهم فقط، وليس مصيبة وجريمة وأمراً

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3714)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6257)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 2071)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 3867).

(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 5989)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6446).

غير مشروع، وعليهم أن يعاملوا زوجة أبيهم معاملة حسنة ومحترمة لأن ذلك حق والدهم عليهم. وكذلك الأولاد الذين سيولدون من هذه المرأة عليهم أن يعاملوهم معاملة كريمة كي لا تصاب الأسرة بما لا يجوز أن تصاب به من تفكك وانفصام نتيجة الزواج الثاني. فالزواج الثاني ليس جناية في كثير من الأحوال، وإنما ينبغي أن نحوله نحن إلى أمر محتمل على الأقل بدلاً من أن نحوله إلى كارثة.

ثم إن قبول الزواج الثاني دون مشاكل تذكر يحدث في مناطق قليلة من مصر، أما في بعض الدول الأخرى فيستقبل استقبالاً جيداً. ففي كل دول الخليج والسعودية، وكل دول أفريقيا الإسلامية يستقبل الزواج الثاني استقبالاً جيداً وعادياً.

فالمشكلة قائمة إذن في البلاد التي دخلها وغزاها الغرب، بثقافته الغريبة عنا لا في البلاد التي لم تغزها الثقافة الغربية.

الأمر الثاني الذي قد يحصل هو غياب الوالد مؤقتاً لسجن أو مرض أو نحو ذلك، وهنا يأتي دور الترابط الأسري وهو القيمة التي يحملها تعبير «البنيان المرصوص» أي الجسد الواحد، والتعاون على تجاوز هذا الظرف الصعب يحيله من كارثة إلى أزمة عارضة، ومن محنة كبيرة إلى امتحان صغير، وتشعر الأسرة في ترابطها وتماسكها أنها بناء قوي يمكنه أن يجتاز هذه المحنة ويتعداها ويتجاوز أثرها السيىء على البيت إلى أن تمر بسلام، ويعود الغائب أو يشفى المريض أو يفرج عن المسجون ظلماً، كما ذكرت.

هذا الترابط الأسري تقوم به الأم، حيث تجمع حولها أولادها وتكلف كلٌّ واحد منهم بدوره، وتُكبّر الكبير إلى حين يقوم بما يستطيع أن يقوم به، وتضع الوسيط مكانه والصغير في مكانه، وتكون هي العمود الذي تلتف حوله هذه العائلة الصغيرة وتجتاز بهذا الالتفاف محنتها وتتجاوزها إن شاء الله.

حماية الأبوين لأولادهم

إن شعور الوالدين بأن الأبناء هم أغلى ما عندهم هو أمر طبيعي، ولكن الدفاع عن الولد وتجنيبه لأي أذى يمكن أن يعترضه في مستقبله، قد تنعكس آثاره سلباً أو إيجاباً على الأولاد، فكل أبوين يشعران أن الأولاد أغلى ما عندهم، ولأن هذا الشعور ينطوي على التصرف تلقائياً دون شعور وإرادة منهما، فإنه يأخذ عادة إحدى صورتين:

الصورة الأولى: هي أن يرعياه رعاية تامة، وأن يحيطاه بالحماية التي تُفْرض عليه وهي أن لا يمسه أحد وأن لا يكلمه أحد، وأن لا يُصَوِّبُه أحد وأنْ ليس لأحد أن ينتقده. ويدافعان عن تصرفاته مهما بدا خطرها أو خطؤها بأعذار غير صحيحة، وهما يعلمان أنها غير صحيحة، وأحياناً تكون متوهَمة أي يتوهمان أن هذه الأعذار قائمة وهي غير قائمة، وأحياناً يكون فيها تصديقاً ساذجاً بما فعله الولد وبما يقوله، تصديقاً يجعل ما يقوله الأبوان عن أبنائهم محل استغراب الآخرين واستنكارهم.

إن هذه الحماية يجب أن لا تتعدى حدود المنطق؛ فأنت عندما تجنّب ابنك من الوقوع في المهالك أو موارد السوء، مثل مصاحبة أصدقاء السوء أو الوقوع في الأخطاء، فأنت تحتاج إلى

حمايته، وأنت تحتاج أولاً إلى حمايته من نفسه ومن أخطائه.

لكن المغالاة في حماية الأولاد من الآخرين الحماية المتوهمة أمرٌ مرفوض، ويظهر هذا أول ما يظهر في سلوك الأم أو الأب حين يتحدث أحد مع ابنهما فإنهما يسارعان بالرد عنه، أي: يسأله أحد فيسارع الأب أو الأم بالرد، فتقول الأم مثلاً: إنه معتاد على ذلك، وهذا لا ضرر منه. يقول الأب: وما الخطأ في هذا وهو في بيته وهو حر في بيته.

وقد يكون المتحدث معه قريباً له، مثل جدته أو عمته أو خاله، أو قد يكون غريباً. وتكرار الدفاع عن هذا الولد أو هذه البنت في غير محله، يؤدي إلى انسحاب الأقارب والأصدقاء القريبين من الأسرة من هذه الحياة الأسرية ويجعلهم يقولون: لندعهم وشأنهم هم وأولادهم، فهم موافقون على ما يفعله ابنهم وموافقون على تصرفاته، إذن لا شأن لنا.

وهذا يُشْعِر الولد أنه محاط دائماً بمن يدافع عنه، وأنه لا يحتاج إلى تبرير ما يفعل، كما أنه لا يحتاج إلى إيجاد مسوغ لما يقول؛ لأنه مهما فعل ومهما قال سيجد قوة أكبر منه تدافع عنه.

هذه الأمور مجتمعة قد تنشىء ولداً ضعيف البُنية، مُنهار الحجة، غير قادر على أن يثبت أقدامه في المجتمع مع الناس الآخرين من حوله؛ لأنه عندما يخرج من البيت إلى الحياة لن يجد من يدافع عنه، بل سيكون سخرية للآخرين إذا احتاج إلى من يقف بجانبه ويدفع عنه الانتقاد والتوجيه والمذمة كلما فعل شيئاً أو قاله.

والدفاع بالباطل عن الولد أو الفتاة يأخذ صوراً كثيرة، مثلاً عندما يأتي الولد بنتائج متوسطة أو ضعيفة يكون مبرره أن المدرسين يضطهدونه في المدرسة.

وعندما يذهب الولد إلى النادي فلا يشركه المدرب في الفريق الأول في اللعبة التي يحبها، يكون مبرره أن المدرب يستثقل ظله ولا يحبه، أو أن أبا فتىً آخر قدّم للمدرب هدية، أو مكافأة فهو يقدم ذاك على ابنهم.

وقد يذهب الولد مع أصدقائه في رحلة مدرسية أو جامعية ويعود مكتئباً؛ لأنهم كانوا يخرجون معاً ويلعبون معاً ويتركونه وحده، فيكون السبب أنه من حيٍّ آخر وأنّ هؤلاء ظالمون، . . . . . إلخ، وإذا عدت وبحثت في الأسباب فستجد:

أنه لم يدرس جيداً ولذلك لم يأت بنتائج حسنة، وأنه لم يدخل في الفريق الأول؛ لأن مستواه أقل من مستوى لاعبي الفريق، ولم يصادقه أصدقاؤه في الرحلة؛ لأنه سخيف ومدلل ومستكبر، أو يفرض طلباته ورغباته ويصر على تنفيذ أوامره، لذلك يتركونه لوحده.

فقد يأتي الدفاع عن الأبناء بنتائج عكسية، يأتي بنبذهم وعدم قدرتهم على كسب صداقات الآخرين، وكذلك عدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم، فبدل أن تنشأ بهذه الحماية شخصية قوية قادرة على التفاعل مع المجتمع تفاعلاً إيجابياً، تنشأ شخصية مهزوزة لا يحبها الناس، وتكون محل سخرية وابتذال وعدم رضا، ولا يتعامل معها الناس تعاملاً حسناً.

من جهة أخرى فأنت بحمايتك المفرطة له قد جعلته يخسر نصائح الأقارب من كبار السن ذوي الخبرة والتجربة، نصائح الأجداد والأعمام والأخوال الذين لديهم أبناء في مثل سنه أو أكبر ومروا في مثل هذه التجربة قبل ذلك، فباستطاعتهم أن يسدوه نصيحة، قد لا يستطيع الأب أو الأم أن يسدوه مثلها. فتكون قد حرمته من هذا وحرمته من الأصدقاء وحرمته من الثقة بنفسه، فانقلبت هذه الحماية وبالاً عليه، وهذا جانب في غاية الخطورة في التربية. وعادة ما يتلقى مثل هذه التربية الولد الوحيد إذا صح التعبير، إن كان وحيداً من حيث الأولاد أو البنات أو كان وحيداً وليس له أخ.

وهذا مُشاهد في الواقع وهو أكثر ما يقع في هذه الحال، وإن كان أحياناً يقع عند تعدد الأبناء والبنات، لكن أكثر ما يقع إما عند الطفل الوحيد الذي ليس له شقيق، أو شقيقة أو الولد الذي وحده أو الفتاة التي وحدها.

ترى في بعض الحالات - وأنا رأيت ذلك بنفسي - العذر الذي ينتحله الأب عندما يحصل ابنه على درجات سيئة أو يرسب: هو اضطهاد المدرسين. وأنا سألت أحدهم هذه السنة، لم كانت نتائجه سيئة فقال الطالب: أنا أتيت بنتائج سيئة لأن المدرس لا يحبني، قلت له: كم طالب أنتم في المدرج؟ قال لي: ثلاثمئة طالب، قلت له: أنتم ثلاثمئة طالب واختارك من بينهم فلم يحبك؟ قال: لا، كثيرون لا يحبهم، وكل الذين لا يحبهم رسبوا في مادته! قلت: وما عدد الذين نجحوا؟ قال:

مئتان فقط، قلت: وهو كره مئة فلم ينجحهم؟ لا بد أنهم سيئون جداً حتى أنه كرههم فرسبهم.

ثم قلت له: ألم تلاحظ أن الذين نجحوا لم ينجحوا بدرجات واحدة؟ منهم من كان بامتياز ومنهم من كان بدرجة جيدة جداً ومنهم مقبول، إذاً المسألة ليست مسألة حب أو كراهية بل هي مسألة ماذا فعلتم في الامتحان.

فسكت الولد ولكن جدته لم تسكت، فقالت لي: إن هذا الأستاذ معروف عنه أنه سيىء ومعروف أنه لا يحب الأولاد الذين يعفون لحاهم، ومعروف أنه لا يحب الأولاد الذين يلبسون الثياب الأمريكية ـ أي شبابية ـ ومعروف أنه قاس ويعامل الشباب بعنف وشدة في المدرج.

قلت لها: يا خالتي، هذا المدرس أستاذ في الجامعة وهذا يعني أن طلابه رجال وليس باستطاعته أن يهذبهم أو أن يربيهم، وهو يتمنى أن تنتهي المحاضرة بسلام ويخرج منها، فلا ترسخي في ذهن حفيدك هذا المعنى الغريب الذي ليس له أساس. وكانت الطامة عندما حضر أبواه بعد ذلك، فإذا بهما يقولان الكلام نفسه الذي يقوله الولد.

فأنت بذلك لم تفسد على الولد حياته الخارجية فقط بل أفسدت عليه نفسه أيضاً، أصبح يرى ما يقوله حقاً وما يفعله حقاً وهو بغير حق، وهذا فساد ما بعده فساد.

وهناك جانب آخر في تعامل الآباء مع الأبناء وفي الرعاية وعكسها، وهو جانب الكلام الذي يقوله الآباء عن أبنائهم.

فقد تجد بعض الآباء يقولون مثلاً: إن فلاناً ذكي جداً (هذا في باب الدفاع أو المدح)، لا يمكن أن تفوته مسألة أو قصة إلا أدركها أو عرفها وأجاب عنها، فيشعر الولد بالفخر وأن لا أحد مثله.

وأحياناً يقولون: هذا الولد لا فائدة منه وفيه، وهو دائماً يشاغب ويشاكس ويسفه آراء إخوته ويرد رداً سخيفاً كأنه لا يوجد في الدنيا غيره.

فقد يفعل الولد ذلك مرة واحدة، وفي مشاجرة مع أحد إخوته أو أصدقائه أو سوء تصرف من أحد إخوته، فينسبون ذلك إليه كأنه سلوكه، فما رد فعل الشاب أو الفتى المراهق هنا؟ عند ذلك سيكون رد الفعل عند هذا الفتى: أنه طالما أنتم تقولون عني ذلك إذاً أنا سأكون كذلك، وبالفعل يتحول إلى مشاغب ومشاكس وإلى شخص لا يفعل إلا ما يأتي على هواه دون تفكير بالآخرين.

ومثل آخر: هذا أناني لا يحب إلا نفسه؛ لأنه مثلاً لم يختر إلا الشيء الأفضل ليأخذه لنفسه، وقد يقع ذلك صدفة ودون انتباه فيقول الولد: إذن أنا أناني سأبحث كل مرة عن الأفضل والأحسن وآخذه لنفسي ولن أترك لإخوتي شيئاً.

قد يقع بعض الآباء في الخطأ، وكذلك بعض الأمهات، وذلك عند الجلوس مع أبنائه ليحكي لهم ويفتخر بما كان يفعله في شبابه من أخطاء ومن معاصي وسيئات.

فيقول: كنت أفعل ذلك وأبدو أمام والدي بمظهر الطائع الطيب المستقيم المحترم الذي لا يفعل سوءاً قط.

وقد سمعت بعض الآباء يقولون لأولادهم: أنتم مغفلون تخطئون وتعترفون بالخطأ، أنتم لا تستطيعون حتى أن تخطئوا وتخفوا خطأكم؟

وبعد مرور مدة سمعت أحد أولاده يقول لإحدى قريباته: لماذا تريدونني أن أكون صالحاً وكان أبي وهو صغير فاسداً، والآن قد أصبح صالحاً، فبدأ يصلي ويشتغل، فأنا سأبقى هكذا إلى أن يصبح عمري أربعين سنة وبعدها أستقيم!

فقالت له هذه السيدة الفاضلة: ماذا لو مت قبل سن الأربعين؟ قال لها: مت قبل سن الأربعين! قالت: نعم، هناك أناس كثيرون يموتون قبل سن الأربعين، وأعطته أسماء بعض الأشخاص الذين يعرفهم ممن ماتوا شباباً، ولم يعرف كيف يجيب فقال لها: لكن والدي الآن على قيد الحياة وقد أصبح صالحاً، فقالت له: ماذا تفعل لو مت وأنت لا زلت تفعل المعاصي وقد أصبحت مسؤولاً أمام الله؟ وربما بدأ هذا الولد طريق صلاحه من هذه المناقشة.

لكني أُسلط الضوء على الأب المسكين الذي لا يخجل أن يحكي لأولاده وأمامهم أنه كان سيئاً، وكذلك الأب المسكين الذي يحكي لأولاده أنه كان الأحسن في صفه، وأنه كان الأول في مدرسته وأنه كان أذكى الطلاب وأقربهم إلى المدرسين.

بهذا يتعود الولد على الفساد والكِبَر فيقول: أنا طبعي كذا وأنا أخلاقي كذا وكأنها فطرة أن يكون سيئاً وأن يكون قبيح

الرد، وأن يكون متعجرفاً على إخوته، هذا كله من سوء الذكر الذي يذكره أباه أمام الناس وأمامه.

وسمعت مَنْ قالت لزوجها: لا تُصغر أولادك أمام الناس، أي: لا تحكي عن أخطائهم، فقال لها: أنا أحكي عن أخطاء عادية يقعون فيها، وأنا أعلّم الناس كيف يتجنبوها، قالت: الأخطاء العادية تصلحها بينك وبينهم في البيت، ليس هناك ضرورة أن تحكيها أمام الآخرين؛ لأن الآخرين لا يعرفون الصواب الكثير جداً الذي يفعله أولادك، وإنما يسمعون منك ما تقوله عن أخطائهم فقط، فتسوء سمعة أولادك وسط أسرتهم ومجتمعهم دون أن تقصد هذه الإساءة.

فمجموع التصرفات الأبوية مع الأبناء تطبع الولد بطابع سيىء، إن كانت حماية زائدة أو كانت سخرية في غير محلها أو كانت نقلاً لتصرف وقع بطريق الصدفة، أو كانت إطراء للذات في غير محله، أو كانت اعترافاً بالأخطاء والمعاصي وقد أُمرنا بعدم المجاهرة، إذ يقول رسول الله ﷺ: **«كل أمتي معافاة إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ثم يصبح قد ستره ربه فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، فيبيت يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»**[1].

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 6069)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 7410).

ومعنى الحديث أنه لا يجوز أن تفضح نفسك بما فعلته وستره الله عليك. استر على نفسك ولا تقوله لأولادك فتعلمهم الفساد. هذه المعاني يجب أن تؤخذ في الحسبان في العلاقة بين الآباء والأبناء، وتؤخذ بالحسبان بجدية وبمنتهى الوعي واليقظة؛ لأن الغفلة عن الواحدة منها قد تدمر الفتى أو الفتاة.

ووصف الولد أو البنت بأوصاف معينة قد يتمثلونها ولو لم تكن فيهم، فعندما تقول له: أنت أناني فسوف يكون أنانياً في يوم من الأيام ويمارس هذه الأنانية، وإن عكسنا الصورة لنعطيه أُفقاً آخر كأن نقول له: أنت المحامي البطل، أنت الطبيب الناجح، فنحن بذلك نرسم له خطاً للطموح أكبر مما يجب.

وعندما تصف ابنك بالصفات الجيدة، كأن تقول له: أنت شاب كريم وصادق وأنت دائماً تفي بوعودك، وأنت تصر على صلاتك، وأنا أحب منك إن أمرت بالمعروف أن تأمر به برفق وإن نهيت عن المنكر أن تنهى عنه برفق.

بذلك تشعره بقيمته وتكبره في نظر نفسه، وتشعره بقيمته عندك. فإذا طلبت منه أن يحضر لك كتاباً من المكتبة، وقام الآخر ليحضر لك الكتاب فقل له: أحضره معه أنت أيضاً؛ لأن الأول يعرف المكتبة جيداً. ماذا تكون قد فعلت هنا؟ تكون أطريت الذي يعرف المكتبة فعلاً وشجعت الثاني أن يعرف المكتبة، فيكون هو القادر في المرة الثانية أن يفعل ذلك.

عندما كبر ولديّ الذكران أصبحت آخذ ابنى الكبير معى

لشراء الفاكهة؛ لأنني أحب أن أشتريها بنفسي، فأخذته معي عدة مرات، ومن ثم أصبحت أتركه لشراء الفاكهة وحده.

وأصبح خبيراً في شراء الفاكهة وقبل أن يسافر قلت له: علّم أخاك كيف يشتري الفاكهة. فقال لي: يا والدي، هو لا يعرف الفاكهة الجيدة من الأقل جودة، قلت له: علمه كما علمتك، ثم قلت له: إن الذي يشتري الفاكهة لا يشتريها لنفسه بل للآخرين فهو يرى ما يناسب الآخرين، ويجعل لنفسه نصيباً في الآخر، وهكذا تعود أخوه الأصغر منه ذلك وأصبح يذهب معي لشرائها. فتعلم الأكبر كيف ينقل خبرته إلى غيره دون استعلاء ولا كبر. وتعلم الأصغر منه ومني كيف يعامل الناس بيعاً وشراءً.

ثم أصبح يشتريها لوحده دون أن أصطحبه، وهو يشتريها حسب رغبات الآخرين، وهكذا تعلم. وكأنها انفتحت له طاقة لم يكن يعلمها، كما تعلم أيضاً الإيثار وإنكار الذات وهذا أمر يشعره أنه ذو قيمة عندك، وأنه محترم يفعل عكس ما يعاني منه كثير من الآباء من الاستهتار وحب الذات الذي يبدو من أبنائهم، وما يعاني منه الأبناء من الحماية الزائدة التي تفقدهم القدرة على التصرف المستقل المحترم.

الانتماء

الانتماء إلى الأسرة:

الانتماء شعور ضروري للإنسان، فهو يحب أن ينتمي إلى أسرةٍ أو عشيرة أو شعب، ويحب أن ينتمي إلى أمته الثقافية والحضارية، كما يحب أن ينتمي إلى أمته النَسَبية أو العرقية. فالعربي يحب أن ينتمي إلى العروبة، والهندي يحب أن ينتمي إلى أصوله، والتركي أيضاً يحب أن ينتمي إلى أصوله، وهكذا. .

والكثير من الآباء والأمهات يستحقون أن يفخر بهم أبناؤهم، بما يؤدونه من عمل، وما يقومون به في المجتمع، وما يقدمونه من عطاء في التربية. وهذا الفخر لا بأس به بل هو مدعاة للإجادة في المستقبل، أي عندما يصبح هذا الولد أباً في المستقبل، أو تصبح هذه البنت أماً في المستقبل.

وإحاطة الأبناء والبنات بما يفعله الآباء والأمهات والأجداد أيضاً، أو بما كانوا يفعلونه إذا كانوا قد تُوفوا، من أنفع الوسائل لنقل القِيَم الصالحة، ولنقل المعاني النبيلة، من جيل إلى جيل؛ لأن هذه المعاني والقِيَم تُنقل بالتوارث، وتنقل بالتقليد، وتنقل

بالاقتداء والتأسي، وأول الأدوات الداعية إلى هذا الاقتداء وهذا التأسي هو الإعجاب.

وأنت لا تستطيع أن تُعجب بما لا تعرف، فلا بد وأن تُعرِّف ابنك بما كنت عليه أو ما كان عليه الجد أو الجدة، لكي يقتدي به ويتأسى به، فإن لم يكن في التراث العائلي ما يكفيك لغرس صورة الأسوة في نفس الابن، ففي تراث الأمة وتاريخها أمثلة لا تنتهي، قديمة وحديثة تؤدي الغاية نفسها بالنجاح نفسه.

وهذه هي بداية مسألة الانتماء، أن يشعر الإنسان أنه جزء من كل، جزء من شيءٍ أكبر منه، جزء من شيء له قيمة، سواء كانت هذه القيمة علمية، أو ثقافية، أو دينية، أو اقتصادية أو وطنية أو سياسية، أو متعلقة بمهنة أو حرفة أو صناعة. . . . المهم أنها قيمة ما ينتمي إليه الإنسان.

كل طفل، وكل شاب يرث قِيَم ما تعود عليه في بيته، وما سمعه من أهله، فللصناعة قِيَم، وللتجارة قيم، وللوظيفة الحكومية أو الوظيفة في المؤسسات قِيَم، وللعمل الحر قيم. . . وهذه القيم تنتقل تلقائياً إلى الأبناء، وتكون مصدراً لفخرهم، ولشعورهم بنوع من التميُّز.

حدود التقوى:

والقرآن الكريم علمنا أن التمايز لا يؤدي إلى الكبر ولا إلى الاستعلاء، إذ يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾

[الحجرات: 13]، فهذه الشعوب المختلفة والقبائل المتعددة تدل على التمايز، وهذه الآية تدل على المعاني التي قلتها، ففي الأصل: خلقناكم من ذكر وأنثى، ثم يأتي التمايز الذي يترتب على تعدد القبائل واختلاف الشعوب، والمهن والصناعات والحرف والثقافات واللغات والأجناس. . . إلخ، ثم يأتي بعد هذا التمايز الواجب، وهو أن يكون هناك تعارف وتقارب وتعاون، ومد يد الأخوة والإنسانية لأخيك الإنسان. ثم يأتي بعد ذلك حكم الله تبارك وتعالى بالفضل لمن كان أكثرهم تقوى، ولمن كان أكثرهم طاعة لله، ولمن كان أكثرهم معرفة بحقوق الله وقياماً بها.

وهذا يجعل الشاب الذي تربّى على هذا المعنى أبعد ما يكون عن الكبَر، وهو يستذكر دائماً قول النبي ﷺ في حجة الوداع: «**إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى**»[1].

وهكذا، فإن الشاب المسلم الذي عاش في هذه البيئة يشعر بأنه لا يجوز أن يتجاوز حدود التقوى، حدود التقوى التي لا تميز بين الناس بسبب أموالهم، ولا بسبب عرقهم، وإنما يتمايزون ويتفاضلون في الآخرة بهذه التقوى.

وهنا يأتي دور الفخر بالأسرة، والإحساس بالسمو لأنه ينتمي إلى هذه الأسرة. والخطأ يقع هنا إذا تحول هذا الفخر إلى

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 5/ 410).

كبر، ورسول الله ﷺ يقول: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردلٍ من كِبر»**[1]، قالوا: يا رسول الله، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسن ونعله حسن، أهذا من الكِبر؟ قال: **«لا، إن الله جميل يحب الجمال»**[2]. **«الكبر: بَطَر الحق، وغَمطُ الناس»**. وبطر الحق، يعني: إنكاره.

وغمط الناس يعني: احتقارهم.

فالاستعلاء والكبر إذا استحضره الشاب، سيشعر أن الناس أقل منه، وأن الناس أتفه منه، وأنه يستحق أن يعامل معاملة تسمو على معاملة الناس للآخرين؛ لأنه ابن فلان.

أما التمايز الأسري في تاريخنا الإسلامي فقد كان سبباً لشيء آخر، سبباً للتقرب إلى الله تعالى بالطاعة، والبعد عن معاصيه وعن نواهيه. جاءت امرأة إلى الإمام أحمد بن حنبل ﷺ فسألته: «هل يجوز لي أن أغزل على ضوء شموع العسَسَ؟» والعسس: هم الشرطة الذين يتجولون لحماية الشعب وما إلى ذلك بين البيوت ليلاً، وكانوا يثبتون المصابيح الرئيسة حتى إذا ما مشوا كانت الشوارع مضيئة كما نفعل الآن. فلم يقل لها الإمام أحمد حلال أو حرام مباشرة، وإنما سألها: «من أنت؟»

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 262)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 4091)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1998)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 59)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 451).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 261)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1999).

فقالت له: «أخت بشر الحافي». وبشر الحافي هذا من كبار الزهاد في عصر الإمام أحمد، فقال لها: «لا تفعلي، من بيتكم خرج الورع». فانظر إلى هذا النوع من الفخر الذي غرسه الإمام أحمد في قلب هذه المرأة، الفخر بأنها من بيت إسلام وورع وتقوى بحيث لا يجوز لها أن تفعل الصغائر، مع أن استعمال هذا النور للناس العاديين ليس فيه شيء، ولا حرمة فيه، إنما أراد أن يعلّم الناس الحاضرين، ويعلم هذه المرأة أن هناك صغائر يترفع عنها أهل الفضل، على الرغم من أنها غير محرمة، وعلى أن هناك أموراً تافهة لا يجوز على أهل الشرف والفضل امتهانها فيترفّعون بأنفسهم عنها.

هذا خلاف ما إذا حدَّث الشاب زميله في المدرسة قائلاً: ألا تدري من أنا؟ أنا ابن فلان، وفلان وزير، أو غفير، أو أمير، أو رئيس شركة، أو تاجر كبير...... أو حتى رجل ورع لكنه يستعمل الفخر به خطأ.

وقد رأيت في حياتي شخصياً ما نسميه بهذا الفخر الكاذب، إذ أنني أعرف امرأة طيبة تصلي وتصوم وتلتزم بالمظهر الإسلامي المطلوب، ولكنها كثيرة الفخر بالآباء والأجداد إلى درجة لا تحتمل. فإذا تخاصمت مع زميلة بدأت الحديث عن هذه قائلة: من هذه حتى أرد عليها أنا؟ أنا لا أرد على مثل هذه! ثم ما تلبث أن ترد على ما قالته هذه الزميلة بشيء يخالطه الكثير من الأعاجيب، والأخاليط، فإذا قيل لها: كنت تقولين إنك لا تردين عليها! فتقول: نعم أنا لا أرد عليها، أنا بنت فلان

وفلان، من هذه حتى أرد عليها؟ فهذا فخر كاذب، لا يجلب إلا السخرية والضحك.

فمثلاً: لو كانوا أغنياء ثم ضاقت بهم الحال كما تضيق بكثير من الأغنياء لأسباب شتى، تراها لم تنس أبداً في وقت من الأوقات أنها كانت غنية، فتراها تقول: أبي كان يركب السيارة رقم واحد في مدينتنا، ولم يستطع المحافظ عندما عين أن يركب هذه السيارة إلا عندما تنازل له أبي عنها.

وتقول: كان عندنا موقف فيه عشر سيارات وخمسة سائقين في الوقت الذي لم يكن فيه عند الناس سيارات، . . . إلخ. ما تقولينه ربما كان صحيحاً، لكنك الآن من الناس متوسطي الحال، أو أقل من متوسطي الحال، فعيشي، وتصرفي وتكلمي بحكم الحالة التي أنت عليها الآن.

وهذا الفخر الكاذب الذي يعود إلى الماضي ولا تتمتع به الآن، فيه نوع من الاستعلاء على الناس غير المحمود. ترى هؤلاء عادة يستكبرون على من هم دونهم، مثلاً: إذا كان لها مرؤوس في الوظيفة تستكبر عليه، وإذا كان لها زميل تستعلي عليه، وإذا تعاملت مع من هو أكبر منها وجدتها خاضعة مستكينة، لماذا؟ لأن هذا الخلق الذي ورثته، وهذا الكبر الكاذب، علمها أن تستكبر على من هم دونها، وأن تخضع وتذل لمن هم أكبر وأعلى شأناً منها.

فنحن نريد أن نربي أولادنا على الفخر (بالانتماء النافع)

والشعور بالفخر الذي يؤدي بهم للبعد عن الصغائر، الشعور أن من واجبهم أن يحموا سمعة هذه الأسرة، وأن يقووها، لا أن يتحدث الناس عن أن أولادها وبناتها يفعلون ما لا يجوز. هذا ما يجب أن نربيه في أولادنا وبناتنا، أما أن نجعل هذا مصدراً للكبر على خلق الله والاستعلاء عليهم، والاستطالة بالمال أو النفوذ سواء كان ماضياً أم حالياً، فهذا كله لا يجوز، وهذا كله يوقع في النفوس مشاعر البغض والضغينة، فيتولد منهما الحقد والحسد والكراهية، وهذه كلها مشاعر لا يقوم بها أي مجتمع صالح.

الانتماء إلى الأمة:

بعد الحديث عن الانتماء إلى الأسرة، والدفاع عن هذا الانتماء إلى حد لا يصل إلى الكبر والاستعلاء، بل إلى تعزيز الشعور بالانتماء إلى هذه الأسرة، ننتقل إلى الحديث عن الانتماء إلى الأمة.

فنحن ننتمي إلى أسرنا وقبائلنا، ثم ننتمي إلى الأمة كلها وهي الأمة العربية الإسلامية. والانتماء إلى الأمة له عنصران، أو له أساسان:

الأساس العرقي أو النسبي، فأنا عربي، وهذا هندي وذاك إيراني والآخر تركي.. والأساس التاريخي، إذ يوجد لكل أمة من هذه الأمم تاريخها الذي تفتخر به، وتتلوه على أبنائها.

كل الأمم ساهمت في صنع الحضارة، ونحن الآن نعيش تحت وطأة الحضارة الغربية؛ ـ لأننا لا نساهم في إنتاجها ـ، بعد أن كنا في الأصل نحن صناع حضارة. وكان حسن العشماوي يفرق دائماً بين الأمة التي تعودت صنع الحضارات وبين الأمة التي تعودت استهلاكها، فيقول: «الأمم التي تعودت صنع الحضارات تستطيع دائماً أن تعيد أمجادها؛ لأن عندها موروثاً كبيراً ومخزوناً رائعاً يمكن أن يُستدعى إلى الذاكرة في أي وقت، مما يدفع الأجيال الجديدة إلى العمل الحسن. أما الأمم التي لا تعرف إلا استهلاك الحضارة، فهي في النهاية لا تستطيع أن تكون أحسن مما كانت عليه».

فالأمة العربية والإسلامية صنعت حضارة عظيمة، استمرت سائدة في الدنيا نحو ألف سنة، واستطاعت أن تصل إلى كل أقطار المعمورة، وهي اليوم تتسع على الرغم من ضعف المسلمين اقتصادياً وسياسياً، إذ يتسع نطاق الدخول في الإسلام، ويتسع قبول الدعوة الإسلامية اليوم في كل الدول الإسلامية. ويشعر المسلم أنه ينتمي إلى هذه الأمة العظيمة التي تملك ذلك الكتاب الخالد، تلك الأمة التي تنتمي إلى الرسول ﷺ.

فهذه الأمة التي صنعت حضارة عاشت نحو ألف سنة تسود الدنيا وتقودها، ثم إن هذه الأمة هي التي تقدم إلى حضارة اليوم القِيَم الغائبة عن حضارتها التي نسيت إنسانية الإنسان وركزت على ما ينبغي أن يملكه من كماليات الحياة.

ونحن لا نزال نحرص على هذه الإنسانية، ونتذكر دائماً قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 1]، فإنسانية الإنسان تذكرنا دائماً بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، كل بني آدم، وليس المسلمون فقط، ليس المؤمنون فقط، وليس العرب فقط، إنما كل من ينتمي إلى آدم، أي أن كل البشر في الدنيا مكرمون بحكم إلٰهي.

فهذه الآية فيها من القِيَم الإنسانية والقِيَم الربانية ما تستطيع أن تقدمه إلى الحضارة المعاصرة، لتخرج من ماديتها التي تقدمت جداً، وتعود إلى روحانيتها التي انعدمت ولم تعد موجودة.

فالانتماء إلى الأمة العربية بهذا المعنى ضروري جداً، ليس فقط لأبنائنا الموجودين في الغرب، بل لأبنائنا في أوطاننا أيضاً، لأن العالم كله أصبح قرية صغيرة، بفضل سبل الاتصال والإعلام، بحيث تُنقل إليك من أي مكان في الدنيا كل الأخبار البعيدة والقريبة، يجب على أبنائنا أن يشعروا بانتمائهم إلى هذه الأمة، وعليهم أن يخدموها وأن يساهموا في نهضتها.

التواضع العلمي:

إن من أعظم وسائل تنمية الشعور بالانتماء لهذه الأمة، ربط الشباب (بالأصل) الذي نشأت منه هذه الأمة، والأصل هو هذا الدين العظيم، دين الإسلام. فليربط الآباء أبناءهم بحقائق هذا الإسلام، ليعلموهم سِيَر الصحابة والتابعين، وسِيَر العلماء،

وليعلموهم كيف أفنى الناس أعمارهم في خدمة هذا الدين، إذ يقولون: «ما يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإن ظن أنه عالم فقد جهل»، وليعلموهم أيضاً خلقاً من خلق الإمام الشافعي ﷺ بحيث كان يقول: «ما ناظرت أحداً إلا أحببت أن يُظهر الله الحقَّ على لسانه»؛ لأن مطلبه في المناظرة ليس الغلبة، ولا التفوق، وإنما مطلبه في المناظرة هو الحق. وقد ألف كتباً عظيمة لم يسبقه غيره إليها في الإسلام، وهو يقول: «لقد ألفت هذه الكتب ولم آلُ فيها ـ أي لم أقصر ـ ولا بد أن يوجد فيها خطأ، لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]». هذا التواضع العلمي، ليعلّمه الآباء لأبنائهم حتى يختموا به كل مؤلف عربي أو كل بحث إسلامي، سواء كان بحثاً في النقد، أو في الشعر، أو في اللغة، أو في الجغرافيا، أو في الطب. .

والله اعلم

هذه العبارة من كلمتين «والله أعلم» تدل على تواضع علمي عجيب دفع امرأة يهودية من إسرائيل إلى أن تعرض رسالة دكتوراه في جامعة (كمبريدج) عن عبارة «والله أعلم» في التراث العربي، استنتجت من هذه العبارة أن هذه الحضارة العلمية هي حضارة لا نهائية؛ لأن كل عالِم يعرف أنه لم يقل كلمة نهائية، وعليه أن يورث الأجيال من بعده أنه لم يقل الكلمة النهائية، لأن معنى كلمة «والله أعلم » أن هناك علماً آخر يستطيع الجيل الآتي أن يكتشفه.

وقالت في رسالتها: إن هذا المعنى غير موجود في أي حضارة أخرى، فكل عالم في أي نوع من العلم في أي حضارة أخرى يقول الكلمة النهائية، وبعد سنة يتبين أنه قد أخطأ القول وبعد عشر سنين يظهر أنه كان مختلاً، وبعد ثلاثين سنة يظهر أنهم قتلوا العالم العظيم، مثلما قتل غيره من الذين اكتشفوا أصول العلوم العظيمة، ولم تصدقهم الكنيسة في وقتها فقتلتهم.

وتقول هذه المرأة الباحثة أن هذا التناقض لا يقع في الحضارة الإسلامية أصلاً؛ لأن كل عالم ولو كان يكتب في اللغة أو الفن فإنه يقول: «الله أعلم». وذكرت أمثلة من كتب موسيقى، في نهاية الكلام عن السلم الموسيقي، أو المقامات الموسيقية، بحيث يقول الشارح: «والله أعلم» فتقول: حتى في الموسيقى ـ والله أعلم ؟

هذا المعنى يشعرك بالانتماء إلى هذه الأمة العظيمة؛ لأنها ذات رسالة ممتدة في التاريخ الإنساني، بحيث تجعل الفخر بهذا الانتماء فخراً بنّاءً وليس فخراً هداماً.

لنقف قليلاً عند هذه العبارة: «والله أعلم» التي يختتم بها العلماء أبحاثهم، والتي يرددها الناس العوام في زماننا، إذ يقول العالِم في الشرع أو الفقه: «والله أعلم»، عندما يعطي أو يُفتي بمسألة فقهية ما، ويذهل بعض العوام من قوله، كيف يقول كل هذا الذي قاله ثم يختتم أخيراً بكلمة «الله أعلم؟».

الفهم الصحيح هذا فهمته تلك الباحثة، فقدنا نحن حقيقته؛ لأننا فقدنا تعليم أبنائنا معاني ثقافتنا العربية والإسلامية. فلو أننا عُنينا بشرح هذه العبارات، وتبيين مدلولها الحضاري

للناس، لو أننا فكرنا فيها بعمق كما فكرت فيها هذه الباحثة اليهودية، حيث أخذت تستقصي أمثلة من كتب التفسير وكتب الفقه، وكتب اللغة، وكتب الموسيقى، ليس فقط في الكتابات العربية بل في الكتابات الفارسية أيضاً، فجمعت لهذا أكثر من ألف نص، واستخرجت منهم نصاً جميلاً. فهذا عمل رائع نحن غفلنا عن بحثه. فعبارة «الله أعلم» الذي يختم بها الباحث بحثه لم يحاول أحد أن يغوص في لبّها.

وأنا أعتقد أن هذه العبارة أو هذا المفهوم مأخوذ من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]، فهذا المعنى الحضاري يدل على انفتاح أبواب المعرفة إلى ما لا نهاية؛ لأن علم الله لا يحيط به شيء، ومن واجبنا أن نسعى لمعرفة هذا العلم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282].

والتعلم نعمة من الله ومنّة، وفتح أبواب المعرفة رحمة من الله يعطيها من يشاء من عباده، وهي باقية إلى يوم القيامة، فيجب أن ننبّه العامة أيضاً إلى عدم الاستخفاف بهذه العبارة، وعدم إساءة فهمها، وأن يفهموها على وجه الاحترام والتقدير والتبجيل للعالِم الذي يستعملها.

تعدد الأعراق والأديان

سنتكلم عن نوع آخر من الانتماء. ففي أمتنا تعدد عرقي وتعدد ديني، وهذا التعدد العرقي والديني لا يعني الشعور بالاستعلاء على الآخرين.

والانتماء إلى الأمة لا يعني احتقار غيرها من الأمم، ففي حديث النبي ﷺ: **«بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»**[1]، قال العلماء: ليس المقصود بالمسلم هنا الذي يؤمن بالله ورسوله محمد ﷺ، وإنما المقصود به الإنسان عامة. وقد جاء الحديث بتعبير المسلم على الغالب، أو لأن المسلمين هم المخاطَبون آنذاك. وكفى بالمرء إثماً أن يحقر أخاه الإنسان أيضاً؛ لأنه لا يجوز له أن يقع في هذه الخطيئة.

الدول العربية والإسلامية الآن كلها أو جلّها تتعدد فيها الأعراق والأديان والثقافات واللغات. وبين هذا التعدد وبين العلاقات الإنسانية الطيبة أمران: إما أن يقع الناس في المحظور

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 6487)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 4882)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1927)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 3933) و(الحديث: 4213).

بأن يظن البعض أن هذه الفرقة أو الجماعة هي الأولى وهي الأصل في الوطن والأحق في خيراته بحيث تنفي الآخرين، فتقع بينهما الفتن والمنازعات والحروب، وهذا مما نراه في كثير من بلداننا العربية والإسلامية.

وإما أن يشعر الناس بالألفة والمودة التي تجمعهم في الوطن الواحد مع بعضهم وإن كانوا مختلفين. وهذه الألفة والمحبة لا تأتي فقط في احتمال الخلاف؛ لأن احتمال الخلاف من قبيل التسامح، ومن قبيل التسليم بوجوده، التسليم الواقعي بوجوده بالنسبة لغير المسلمين.

فبالنسبة للمسلمين، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: 118-119]، قال العلماء: خلقهم للاختلاف، ونص القرآن على اختلاف الألوان والألسنة: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: 22]. هذا الاختلاف قرن أيضاً باختلاف الطيور واختلاف الخلق من الجبال والزروع والثمار، إذاً فالتعدد والتنوع سنة من سنن الله تعالى في الكون، فيجب أن يقبلها المسلم هكذا على أنها حقيقة كونية أرادها الله تبارك وتعالى، وما أراده الله لا يغيره بشر.

وغير المسلمين، يجدون هذه الحقيقة واقعية في بلادهم بحيث لا يستطيعون أيضاً أن يغيروها، فعليهم أن يتقبلوا العيش معها.

العيش الواحد:

فالعيش معاً في مجتمع متعدد، دينياً أو ثقافياً أو عرقياً هو كما أسميه منذ زمن بعيد: «العيش الواحد»، ـ وأنا أدعو إخواني دائماً لاستعمال هذه العبارة بدل عبارة: العيش المشترك ـ، فنحن في المجتمع الواحد أسرة واحدة، وهذه الأرض لنا جميعاً وخيراتها لنا جميعاً وحقوقنا فيها متساوية، وواجبنا نحوها متكافىء وعلينا أن نعمل كأسرة واحدة، ولو اختلفت أدياننا وأعراقنا.

أما «العيش المشترك» فإنه يعني عكس ذلك، إنه يعني أننا فِرَق متفرقة، وجماعات شتى، قد تكون متنافرة، لكن لكل منا جزء، هذا له الجزء الأيمن، وهذا الجزء الأيسر وذاك الجزء الأعلى، كما أننا نشترك في قسمة شيء ما.

وعلينا أن نتوحد في العمل للوطن الواحد، وأن نتوحد لرفع شأن هذا الوطن الواحد، ويجب أن يفخر اللبناني بكل لبناني آخر مهما كانت طائفته، أو عرقه، أو دينه، ويفخر المصري بكل مصري آخر مهما كان اختلافه عنه، ويفخر العربي بكل عربي، ويفخر المسلم بكل مسلم، ويفخر المؤمن بكل مؤمن من أهل أي دين، لأن الإيمان وشيجة بين أهله، كما قال علماؤنا: «العلم رَحِم بين أهله».

كذلك أهل الإيمان في الدنيا كلها، يجب أن يحبوا بعضهم ويفرحوا لبعضهم، وينظروا إلى بعضهم بعضاً نظرة تغاير

نظرتهم لأهل الكفر والفساد والإفساد في الأرض، هذا النوع من الفهم ـ فهم الانتماء البشري ـ قائم كما الانتماء العرقي والديني قائم. إن الأخوة الإنسانية مصدرها : ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: 13]، والأخوة الوطنية مصدرها حقيقة وقوفنا في وطن واحد على هذه الكرة الأرضية، نحن مكلفون بأن نقدم له كل خير، وأن نحميه، وهو بالمقابل يقدم لنا العيش ضمن خيراته وثمراته.

هذا النوع من الفهم لا يتأتى بابتكار من عند الطفل أو الطفلة أو الشاب أو الفتاة، بل يأتي من التربية؛ أي تربية الأهل للأولاد، وذلك بأن يرى الولد أباه يعامل جيرانه أو أصدقاءه الذين يختلفون عنه ديناً أو عرقاً المعاملة نفسها التي يعامل بها إخوانه في العرق أو الدين.

المعاملة نفسها في أنه يحترمهم ويقدرهم ويؤدي لهم حقوقهم، ويهنئهم بأعيادهم ويشاركهم أحزانهم، ويحاول أن يخفف عنهم مصائبهم... عندئذٍ يتصرف الطفل تلقائياً التصرف نفسه، ويسلك المسلك نفسه، أما إذا سمع في البيت المتعصب من يقول: انتبه هذا مسلم وهذا مسيحي، انتبه هذا ماروني وهذا أرثوذكسي ليس لنا صلة بهم، أو هذا يهودي ونحن مسيحيون ويجب أن نتعصب لمسيحيتنا ضد اليهود، هذا عربي، وهذا فارسي... فإذا سمع الولد ذلك انفصمت عرى الإنسانية، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد ﷺ، أن النبي ﷺ كان يقول في

أعقاب الصلوات: **«أنا شهيد بأن العباد كلهم أخوة»**[1].

هذه الأخوّة بين العباد هي أخوّة بين الخلق جميعاً، وليست أخوّة بين المسلمين أو بين المؤمنين، هذه الأخوة هي أخوّة في الإنسانية وفي الوطن. فالأخوة الإنسانية هي التي يجب أن نعلمها لأبنائنا لكي يكون تعلمهم هادفاً حضارياً وبناءً.

وليتذكروا دائماً أننا بنينا هذه الحضارة معاً، مسلمين وغير مسلمين، عرباً، وفرساً، وعجماً من هنود وباكستان وكل البلاد التي دخلها الإسلام، كلنا بنينا هذه الحضارة الإسلامية معاً، ولم يتخلف عنصر واحد من عناصر الأمة عن المساهمة في بناء هذه الحضارة الإنسانية. فإذا نظرت إلى الفقهاء، والشعراء، والأطباء وجدتهم قد جاؤوا من أنحاء العالم الإسلامي كله، وتمم عملهم أو فنهم ما بدأه الأولون.

فهذا المعنى يجب أن يعمم ويعلّم ويُنشر على الناس كافة حتى يحسوا به ويتعاملوا به فعلاً.

الاعتداء على أمتنا:

ونوع آخر من الانتماء هو أن يكون هَمُّ الأمة هَمَّنا، فعلينا أن نغرس هذا الهَمّ في وجدان أولادنا وخاصة ما نحن بصدده من اعتداءات يومية في أجزاء هذه الأمة وأطرافها.

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 4/ 369).

هذا المعنى من الاهتمام بالأمة وقضايا مشكلاتها ومحنها التي تمر بها يسلك فيه الناس مسلكين:

مسلك الأسر للمحنة والإحباط منها والخوف من أثرها السيىء على المستقبل، أي أن يكونوا أسرى الإحباط والخوف فلا يجيدون التصرّف، وأنا لا أقر هذا المسلك، ولا أقبله ولا أسلكه في حياتي، لا في بيتي مع أولادي، ولا مع طلابي وتلامذتي والشباب الذين يحبون أن يجلسوا إليّ وأجلس إليهم.

وأنا أفضل وأُمارس المسلك الثاني وهو: البدء بالسؤال: «ماذا نفعل؟». مثلاً: عندما أشاهد اعتداءً صهيونياً بشعاً على مدينة رفح، لا أقول: يا للكارثة، يا للمصيبة... بل أقول: يا أولاد ماذا نفعل؟ فمنهم من يقول: نجمع أموالاً ونرسلها، ومنهم من يقول: نبحث عن أبناء (رفح) المقيمين في مصر ونحاول أن نساعدهم؛ لأن أهلهم يكفيهم ما هم فيه الآن، ومنهم من يقول: نذهب إلى نقابة الأطباء ونقدم بعض المال ليشتروا به كساء ودواء ويرسلوهم لمن يحتاجهم؛ لأن هذه النقابة نقابة نشيطة، وهكذا نساعد إخواننا الفلسطينيين الموجودين هناك على المقاومة.

ونبدأ في البحث عن كيفية تطبيق هذه الاقتراحات، وتحرير تلك الآراء التي توصلنا إليها.

وقد تقول: إن الفلسطينيين لا ينقصهم البشر، وإنما ينقصهم المال، وينقصهم السلاح، وينقصهم الدعم المعنوي فلو

أردنا أن نقدم دعماً معنوياً كيف الوسيلة إلى ذلك؟ الدعم المعنوي يكون بقصيدة تُنشر، بمقال يكتب، أو بمؤتمر يُعقد، أو بخبر ينشر أن النقابة الفلانية أو غيرها تشارك الفلسطينيين في شعورها وتأييدها.

والدعم المادي كيف نقدمه؟

قرأت في بعض النشرات التي تصدر في بريطانيا، أن امرأة مصرية من مدينة السويس وهي مدينة «صغيرة» جداً، عندما سمعت بمحنة أهل رفح احتارت ماذا تفعل، وهي أم لخمسة أولاد. ثم خطرت لها فكرة، ـ وهي تجيد تحضير نوع من أنواع الفطير المصري أو المعجنات وهو (الفطير المشلتت) ـ، فقالت: سأدخر ثمن ما أبيعه في كل يوم من هذا الفطير وأجعله وقفاً لأهل فلسطين من رفح بالذات؛ لأن رفح قريبة من الحدود المصرية، فهناك رفح المصرية، ورفح الفلسطينية.

وقالت المرأة في قصتها المشهورة: وفعلتُ ذلك. وبدأت في أول يوم فبعت خمس فطائر فقط، ثم قالت: أنا أبيع اليوم بحوالي 200 جنيه، أو 300 جنيه، وسأرسل هذا المال بعد نهاية كل يوم إلى أهل رفح، أراسلهم وأسأل الله أن يكون نافعاً لهم ويرزقني الله بفضل هذا أنا وأولادي. قالت: كنت أعمل بجهد لكسب رزقي ورزق أولادي ثلاث ساعات تقريباً، أما الآن فأجد طاقة لأعمل بها تزيد عن ست أو سبع ساعات في اليوم لصنع هذا الفطير. وأنا لا أقول إن ثمن بيع هذا الفطير وَقْف إنما يشتريه الناس لمجرد نيتي في جعل هذا المال وقف لأهل رفح.

فانظروا لهذه المرأة كيف وفرت من قوت أولادها لتقدمه لمن يحتاجه. فيُضرب للأولاد هذا المثل بأمهم التي كانت تعطي كذا، هذه الأم أم الأيتام كانت تسعى لرزقهم، وتقدم كل ما تستطيع أن تقدمه من قوت أولادها، لتساعد به أهل فلسطين.

وأنا كنت أحكي لأولادي كيف كانت تتبرع أمهم بأجمل ما لديها من حُليّ، فكانت إذا أعجبها شيء من الحلي، أو حلي لبسته مرة أو مرتين، ثم تقول: خذه وتبرع به لأيتام أفغانستان، فأقول لها: أنا أدفع المال لأيتام أفغانستان فاتركي هذا لك. تقول: لا، أنا أريد أن أجد هذا في الجنة.

كانت أمهم تفعل هذا، خفية طبعاً، دون أن تُشعر به أحداً.

فكنت في مناسبة من المناسبات، أنتهز الفرصة وأخبرهم بما كانت تفعل. وكنت أدلهم كيف كانت تصنع أمهم، ففوجئت بابنتي الصغيرة منذ سنتين تأتيني بأحلى حليها، وتقول: يا أبي، أنا سألت عن سعر هذا في السوق، فوجدت سعره حوالي 100 جنيه، من فضلك خذه وبعه وأرسل ثمنه إلى أهل فلسطين، فقلت لها كما كنت أقول لأمها في السابق: أنا أدفع لك الثمن ودعي هذا لك، أو أقرضك الثمن، ثم تسددينه لي على أقساط من مرتبك، وهذا ميراث أهلك دعيه لك. فتقول: أمي كانت تتبرع بحليها لتجده في الجنة، فلماذا تريد أن تحرمني من ذلك؟ كان عمرها لما فعلت هذا إحدى وعشرين سنة، وكانت قد تخرجت قبل شهور قليلة من الجامعة، فأخذته منها وفعلاً

تبرعت بثمنه. يأتي بعض الناس أحياناً فيقول: عندي مال وأريد أن أتبرع به، إلى أين أذهب؟

فبدلاً من أن تدله مباشرة، قل لأحد أولادك أن يأخذه إلى نقابة الأطباء، حينها يعرف الولد أن هناك طريقاً لفعل الخير وصُنعه ليسلكه هو وحده بعد ذلك، وسوف يسلكه دون أن يرجع إليك.

أما إذا أتيت به، وقلت: انظر كم قتيل وقع، انظر كم بيت دُمّر، انظر إلى عدد الجرحى في هذه السيارة المفخخة في بغداد، أو فلسطين. هذا الكلام كله في الحقيقة يضر ولا ينفع؛ لأن هذا يشعره بأن القتل يستمر في المسلمين كل يوم وهو يعجز عن تقديم شيء. وهذا الإعلام محبط، فنحن ننتقل بهم من مرحلة الإحباط إلى مرحلة أخرى أهَم وأرفع شأناً.

وأنا ألوم وسائل الإعلام كل اللوم لا سيما محطات التلفزة عندما تبث صور النساء وهن يُوَلوِلن ويلطمن، ولا تبث صور النساء اللاتي تقلن: أنا فخورة أن ابني استشهد في سبيل الله، وأخاه في طريق الاستشهاد، وأخته التي فجرت نفسها في عملية استشهادية. أو تبث تسجيلاً سجلته الأم بنفسها لابنتها وهي تخرج لعملية فدائية ضد العدو الصهيوني. فبدلاً من أن يبثوا هذه الصور البناءة، يبثوا صور النساء اللاتي يولولن، أو يصرخن، أو يلطمن وجوههن، فهذا الأمر يثير في النفس اليأس؛ لأن الذي ينبغي أن يبث هو الأمل في النفس، فإذا عجزنا عن ذلك ـ لأن

التلفزيونات والإذاعات ليست تحت سيطرتنا ولا ملكنا ـ فعلينا أن نبثه في بيوتنا، بيتاً بيتاً، وأسرة أسرة.

محاربة الأعداء:

قال الله تبارك وتعالى في سورة «الممتحنة»: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: 8].

فهناك المسالم والآخر المعادي، والآخر المعادي هو الذي تتحدث عنه الآية الثانية: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: 9]، فنحن منهيون عن أن نتولى أعداءنا، ومن أهم أعدائنا اليوم اليهود الصهاينة المعتدون على فلسطين، وقد ذكرت الدين اليهودي في أديان متنوعة، وأعني بذلك عندما ذكرته: اليهود الذين لا يقيمون في فلسطين، ولكن يقيمون في بلاد متفرقة، فهناك يهود ليسوا صهاينة، وخارج فلسطين، ولا يدعمون إسرائيل، بل يتألمون لألم إخواننا في فلسطين، فهؤلاء نعاملهم بمقتضى معاملتنا الحسنة الطيبة؛ لأنهم لم يقاتلونا ولم يخرجونا من ديارنا.

أما اليهود الصهاينة الموجودون في فلسطين، فليس بيننا وبينهم إلا المقاومة حتى ينتصر هذا الحق العربي الفلسطيني، العربي الإسلامي المسيحي في فلسطين، ونسترد أرضنا لنا، وهؤلاء لا يجوز أن نعاملهم بالبر ونوطد معهم العلاقات، ولا

يجوز أن نمد لهم يد السلام، وإنما نمد إليهم يد المقاومة كما تفعل فصائلنا المقاوِمة في أرض فلسطين.

الذين يقاتلوننا من بلاد الغرب ويزعمون أنهم مسيحيون وبعضهم يقول: إنه مبعوث الرب، وإنه مبعوث العناية الإلٰهية، لينقل الديمقراطية إلى بلاد العرب وإلى بلاد المسلمين. الذين يقصفوننا كل يوم بالمدافع والطائرات، ليس بيننا وبينهم أي مودة، وليس بيننا وبينهم إلا الحرب. ونحن لا نستطيع أن نحاربهم في مصر، أو لبنان، أو سوريا، إنما في الأراضي التي احتلوها، وعلينا مقاومتهم كل يوم. ونحن نبغض عملهم، ونكره احتلالهم، ونقاومه بألسنتنا ما استطعنا، ونقاومه بالدعوة كلما وجدنا إلى ذلك سبيلاً. فنحن نربي أولادنا على حب البشر الذين لا يؤذوننا وعلى ما ينشىء العيش الواحد. والعيش مع العالم هو ما يكون عيشاً مشتركاً، فالعيش مع الظالم الخارجي بحيث لا تكون هناك عداوةٌ ينشىء عيشاً مشتركاً، لكن حيث يكون هناك قتال، فالله يقول فيهم: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ [البقرة: 190]، وهو يأمرنا بالقتل حتى عند المسجد الحرام: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 191]، والله تعالى يأمرنا بالقتال: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 84]، فمن واجبنا تحريض المؤمنين، وهذا ما ندعو إليه اليوم ونسميه بـ: «دعم المقاومة بالدعوة إليها»، وهذا تحريض واجب شرعاً.

وإذا احتُلّت أرضنا أو دُنست مقدساتنا، فالقتال واجب شرعي علينا ولا مفر منه أبداً، وهذا فرق بين الذي يقيم معك في بلدك وهو من أمتك، وبين الذي يحاربك.

المثل الأعلى

المثل الأعلى ضرورة للإنسان، وهي ضرورة أشدّ وأهمّ للفتى والفتاة لا سيما في سن المراهقة؛ لأن المثل الأعلى هو الذي تقيس به عملك، وتقيس به تصرفك، وهو الذي تجعله معياراً، فتقول: أنا اقتربت من مثلي الأعلى أو ابتعدت عنه. فإذا اقتربت من مثلك الأعلى فرحت، وإذا ابتعدت عنه شعرت أن عليك أن تحسّن من أمرك، وتقوّي من عزيمتك وقدرتك لتعود وتقترب منه.

والمثل الأعلى الذي يتخذه المسلمون في حياتهم لا بد وأن يكون مثلاً إنسانياً؛ لأنه لا يمكن أن يكون المثل الأعلى للناس خيالياً لم يتحقق على أرض الواقع. وأعظم مثلٍ أعلى تحقق على أرض الواقع هو سيدنا محمد ﷺ، وهو كما سمّاه بعض المؤلفين: الإنسان الكامل، ومحمد أحمد جاد المولى بك، ألف كتاباً سماه: الإنسان الكامل أو سيرة محمد ﷺ.

محمّد ﷺ مثلٌ أعلى في نشأته يتيماً، في تربيته برعاية عمه، في اضطراره للعمل صغيراً في رعي الغنم، في اضطراره للتجارة في مال خديجة ﵂، في قبوله الزواج منها عندما دعته إلى التزوج، ثم في الوحي عندما فاجأه وهو في الغار، ثم في

تحمله تَبِعَة الدعوة بين قوم يُنْكِرون عليه الدعوة، ويُنْكرون عليه خطاب السماء، ويتهمونه بالجنون، وبالسحر، وبالكهانة، وأنه شاعر، وبكل ما وصفوه به في القرآن الكريم من أوصاف سيئة، وفي اضطراره لترك بلده، وهجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وهو يقول لها: **«والله، إنك لأحبُ بلاد الله، ولولا أنّ أهلك أخرجوني منك ما خرجت»**[1]، وينظر إلى الكعبة وهو يقول لها: **«ما أعظمك وما أعظم حرمتك، والله لمحجمةٌ من دم امرىءٍ مسلم أعظم حرمةً عند الله منك»**. والمحجمة عبارة عن وعاء صغير يضع فيه الحجّام الدم الفاسد. وكلمة مسلم هنا تعني معصوم الدم، وليس الذي آمن بالله ورسوله، أي بل كلُ معصوم من الدم، سواء كان مسلماً أو غير مسلم.

وهو عليه الصلاة والسلام مثل أعلى في العيش الذي تحمّله في المدينة قبل أن يُفتَح عليه، حتى خرج ذات يوم وقد ربط على بطنه حجرين، فلقيَ أبا بكر وعمر ﷺ، فقال: **«ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟»**، قالا: الجوع يا رسول الله، قال: **«وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا»**[2]، فقاموا معه، فكانوا يبحثون عن طعام لهم في أي بستان، أو أي أرض، أو أي مكان؛ وكان يربط على بطنه حجرين، وكان جوعه أكثر من جوعهما، وصبره أكثر من

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 3925) و(الحديث: 3926).
(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 5281).

صبرهما، فهذا هو المثل الأعلى. ثم تأتيه وتأتي أصحابه الدنيا من أوسع أبوابها، حتى يقول لهم عمر ﷺ: «إن شئتم كلتُ لكم كيلاً، وإن شئتم وزنت لكم وزناً، وإن شئتم عددتُ لكم عدّاً»، من كثرة الأموال التي كانت تأتي إليهم.

وهذا النبيّ ﷺ في صبره على حال المكذّبين مثلٌ وقدوة، يأتيه جبريل فيقول له: لو أردت أن أُطبِق عليهم الأخشبين فيهلكون ـ يعني الجبلين اللذَين حول مكة ـ فيقول له ﷺ: **«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً»**[1].

ثم يدخل فاتحاً منتصراً في عشرة آلاف من الجنود، فينادي أهل مكة، فيقول لهم: **«ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟»**، فيقولون له: خيراً، أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريم، فيقول عليه الصلاة والسلام: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**[2].

وبعدها يعقد صلح الحديبية ـ الذي نعرفه جميعاً ـ مع قريش ممثلةً في سهيل بن عمرو، فيكون من شروطها: أن من جاءه مسلماً يردّه إليهم، ومن جاءهم مرتداً عن الإسلام لا يردونه إليه. ويهيج الصحابة، ويُحدثون أصواتاً، ويقولون: كيف نرد المسلمين؟ وفي هذه اللحظة يأتي ابن سهيل بن عمرو

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3231) و(الحديث: 7389)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 4629).

(2) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (الحديث: 9/ 118).

مسلماً، يرسِف في أغلاله، وقد هرب من سجنه الذي وضعه فيه أبوه. فيقول أبوه الذي هو رسول مشركي مكة ليعقد الصلح مع النبي ﷺ: يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه، فيقول: **«إنا لم نكتب الكتاب بعد»**، ثم يأبى سهيل، فيقول عليه الصلاة والسلام: **«هبهُ لي»**، فيأبى سهيل مرة واثنين، فيقولون: يا رسول الله، نردّه إلى المشركين؟! فيقول: **«وَفَيْنا لهم بعهدهم، ثم نستعين بالله عليهم»**.

هذا الرجل الذي حمل عبء الرسالة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وبلّغ الدعوة بأتمّ ما يكون البلاغ، وترك الأمة ـ كما نقول دائماً في خطبة الجمعة ـ على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها، هو المثل الأعلى الذي ينبغي أن نقلده في حياتنا.

ونحن نتكلم عن الأسرة، سأعطي مثلاً عن اتخاذ المثل الأعلى والأسوة من رسول الله ﷺ، إذ كان ﷺ يقول للناس: **«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»**. وكان إذا دخلت ابنته فاطمة قام من مجلسه، وخطا إليها هاشّاً باشّاً، وقبّلها بين عينيها، وقال لها: **«أهلاً بأمّ أبيها»**[1]، وأجلسها عن يمينه، أو أجلسها عن شماله، أيُّ تدليل هذا! أيُّ إكبار للابنة! وقد كانت البنت توأد بعد أن تولَد، خشية العار الذي تجلبه إلى أهلها وإلى أبيها.

---

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 3895)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 1977).

وعندما قارب على مفارقة الدنيا، من الذي اختص بهذا الخبر؟ اختص به ابنته فاطمة الزهراء ، حيث أجلسها بقربه وهمس في أذنها فبكت، فسكت ثم همس في أذنها فضحكت، فسكت، فلما انصرف النبيّ ﷺ، قالت لها السيدة عائشة : يا فاطمة، أخبريني لِمَ بكيت؟ ولِمَ ضحكت؟ قالت لها: يا عائشة، هذا سرٌّ لرسول الله ﷺ، ولست بالتي تفشي سر رسول الله ﷺ، ثم مضت مدة قليلة وتوفي الرسول عليه الصلاة والسلام، وعائشة ما زال يلح عليها هذا الحادث، فأتتها فاطمة ذات يوم، فسألتها: يا فاطمة، ألا تخبريني عما كان بينك وبين رسول الله الذي أبكاك، ثم أضحكك؟ قالت: الآن نعم؛ لأن الرسول ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى، أما عندما بكيت، فقد قال لي رسول الله ﷺ: **«لا أراني إلا قد حضر أجلي وإنك أول أهلي لحوقاً بي»** فبكيت لذلك، ثم إنه سارني فقال: **«ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟»**، فلما قال لي ذلك ضحكت، واستبشرت باللحوق به(1).

فما الذي نتعلمه من هذا الأب العظيم، الذي يعلم ابنته الزهراء كي يدلها على الحقيقة التي لا يعرفها أحدٌ إلا هو، عن طريق الوحي؟ أنه ميت، وأن الناس جميعاً ميتون، وأن الحياة الخالدة هي الباقية. . . . إلخ. هذا النبي ﷺ هو القدوة

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3623) و(الحديث: 6285)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6263) و(الحديث: 6264)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 1621).

الحقيقية، وهو الأُسوة والمثل الأعلى الذي ينبغي أن نتّبعه.

وعندما سمع صحابياً يعيِّر صحابياً آخر ويقول له: يابن السوداء، وكانت أمه كذلك، فقال له رسول الله ﷺ: **«يا أبا ذر، إنك امرؤٌ فيك جاهلية»**[1]، فظل هذا الصحابي يرضي صاحبه، ويحاول أن يعتذر إليه، والثاني يقول: انتهى الموضوع وليس هناك شيء، فالصحابي يرى أنه ارتكب إثماً عظيماً؛ لأنه عيّر صحابياً بأمه، وقال له: يابن السوداء.

ويأتيه أبو ذرّ الغفاري ﷺ فيقول: يا رسول الله، ولّني بعض العمل الذي ولّاكه الله، فيقول: **«يا أبا ذرّ، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها لتكون يوم القيامة خزياً وندامة، إلا للذي أخذها بحق، وأدّى الذي عليه فيها»**، فأيّ تعليم عظيم هذا! فيقول أبو ذرٌ بعد ذلك: والله لا أتأمّر على اثنين، - أي أن يكون أميراً على اثنين مسافرين -، إذ قال حبيبي ﷺ: **«إنها أمانة وإنها تأتي يوم القيامة خزياً وندامة»**[2].

وهذا النبيّ ﷺ يأتيه أبو بكر ﷺ بماله كله، ويأتي عمر ﷺ بنصف ماله فيقول: أتيتُ بنصف مالي، وما أظن أن أحداً من الصحابة أتى بمالٍ أكثر مني، ويأتي عثمان ﷺ بثلث ماله، هذا في تجهيز جيش العسرة - وثلث ماله يعدل مال المسلمين كلهم - فيسألهم النبيّ ﷺ: **«بما أتيت يا عثمان؟»**، فيقول: بثلث مالي،

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 4189).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 4696).

فيدعو له، ويقول «يا عمر، بما أتيت؟»، فيقول: بنصف مالي، فيدعو له، ويقول: «بما أتيت يا أبا بكر؟»، فيقول ﷺ: أتيت بكل مالي، فيقول: «وماذا تركت لأهلك وعيالك؟»، فيقول: تركت لهم الله ورسوله، فيدعو له الرسول ﷺ بالبركة. هذه الأمثلة التي يضربها الصحابة، من أين جاؤوا بها؟ جاؤوا بها من المثل الأعلى، تعلموا منه مباشرةً فقلدوه في أفعالهم.

ونحن حين نربي أولادنا على هذا النموذج، فهل نتخيل النتيجة! لكن هذا النموذج شديد العلوّ، هذا النموذج الذي لا يصل إليه إلا الأقلون من أولياء الله وخاصّته، وأهل محبته وطاعته، ولا يستطيع كل إنسان أن يكون كهذا النموذج النبوي في كل أحوال حياته.

امثلة عن المثل الأعلى:

أنا أقول: هذا هو المثل الأعلى الأصليّ - أي النبي ﷺ -، المثل الأعلى والقدوة، ولكن هناك أمثلة عليا كثيرة في حياتنا الدنيا، منها:

المثل الأعلى في حياة أولادي، أستاذ في مدرسة ثانوية يدرس مادة الكيمياء، وعنده مركز يدرّس فيه الأولاد دروساً خصوصية، ويمنع طلابه في الفصل من الالتحاق بالدرس الخاص، ويقول لهم: إن الدرس الذي أقوله في الفصل هو ذاته الذي أعطيه في الدرس الخاص. والدرس الخاص هو للطلاب الذين لا يدرسون في مدرستي، أما طلاب المدرسة الحكومية

التي أدرس فيها فلا يجوز أن يلتحقوا بالدرس الخاص؛ لأني لا أعطي فيه شيئاً زائداً. فالذي أعطيه هنا هو ذاته الذي أعطيه هناك.

ثم يأتي في نهاية العام الدراسي بعدما ينتهي من دروسه، ويهدي كل طالب وطالبة في دروسه الخاصة أو في المدرسة الحكومية كتاباً، مرةً يشتري كتاب «خُلُق المسلم»، للشيخ الغزالي. وكان من بين طلابه طلاب مسيحيون، فاتصل بي ذات مرةً وسألني: ماذا أهديهم؟ فقلت له: نحن أصدرنا في الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي كتاباً اسمه: «مسلمون ومسيحيون معاً من أجل القدس»، وأنا أستطيع أن أهديك عدداً من النسخ، فتهديه أنت لطلابك، فكم طالب عندك؟ قال: تسعة، فأهديته تسع نسخ، وأهداها لطلابه المسيحيين.

وفي العام الماضي سألني: ألديك نسخ زائدة من كتاب «القدس»؟ فقلت له: لا والله، فقد نفذت هذه الطبعة، ماذا تريد؟ قال: عندي ستة طلاب مسيحيين وأريد أن أهديهم كتاباً، ولا أعرف أي كتاب أهدي لهم، فقلت له: اشتر لهم كتاب: «أعمال الحُسُنيّ» لـ«وليم قلادة» وهو من كبار علماء المسيحية فاشترى منه ست نسخ وأهداها لطلابه.

هذا المثل الأعلى ـ أي أستاذ أحمد شمس ـ لا يمر ظرف أو مناسبة إلا ويتصل بكل طلابه ويسألهم من تزوّج ليذهب ويهنئه، من الذي أنجب فيرسل له هدية، وهو يزورهم في

بيوتهم، ويتعرف إلى ذويهم، وقد أعطى مثلاً أعلى لأبنائي كلهم.

بل إن ابنتي مريم قبل أن تدرس هندسة معمارية، كانت مصممة أن تدرس الكيمياء لتكون مثل الأستاذ أحمد شمس مدرس الكيمياء في المدرسة الثانوية، لتعامل طلابها كما كان يعاملهم.

ونحن نستطيع أن نضرب لهم أمثلة من هذا النوع وهي كثيرة جداً، من المدرسين، والرياضيين، والعلماء المعاصرين، فعندنا من العلماء الأفذاذ في كل مجال، إن كان في الطب، أو في الفيزياء، أو في الكيمياء، أو في الجغرافيا، أو في التاريخ، أو في الأشياء الواقعية التي نحياها.

فمن الذين بدأوا حياتهم بداية متواضعة، ثم بتفوقهم فتحوا أبواب الدنيا لأنفسهم عندنا مثلاً: فاروق الباز في الفضاء، وأحمد زويل في الفيزياء، ومجدي يعقوب في الطب، وشريف بسيوني في القانون، وعبد الحميد أحمد في القانون ـ وهو لبناني مشهور ـ. فعندنا علماء في جميع حقول المعرفة، يَبُزُّون أقرانهم من العلماء في البلاد المتقدمة أو يساوونهم في ضرب المثل بهم.

عندي صديق تاجر مهنته غزل النسيج، يمر الآن بمحنة، وهو رجل صناعي، كان مثلاً أعلى في مناسباتٍ كثيرة جداً. وقد تعرض هذا الرجل للتأميم مرتين؛ أمِّمت أمواله وأموال عائلته في سوريا في وقت الوحدة مع مصر، ثم أمِّمت أمواله مرة أخرى

بعد ذلك، أو صُودرت بالأحرى. وفي كل مرة كان يبدأ من الصفر، ويبني إمبراطوريةً أخرى في مجال صناعة النسيج. وهو من بيت آغا من حمص، وهم قوم معروفون في سوريا.

وكنت أضرب المثل به دائماً لأولادي، وأقول لهم: انظروا إلى هذا الرجل، سقط مرتين إلى الصفر، وانهار، ولم يبق عنده (ولا ملّيم)، ثم بدأ من جديد وأعاد بناء نفسه، وبناء صناعته. هذه الأمثلة الواقعية الحية، قريبةٌ إلى النفس وإذا كانوا يعرفون هؤلاء الأشخاص تراهم يزورونهم ويودّونهم.

كان عندي مثلٌ أعلى آخر أضربه دائماً لأولادي، أخونا المرحوم «فاضل رسول»، من الأكراد العظماء الفضلاء. كان من الذين سعوا في القضية الكردية، وهو يكن كل المحبة لإخوانه العرب ولكل المسلمين، ولكل الإنسانية. وكان يقيم في النمسا، ويزور مصر كثيراً، وقد أسس مجلة «منبر الحوار» المشهورة؛ وكان كلما أتى إلى مصر زارنا في البيت، فكان أولادي يجلسون معه، وينبهرون بطريقته في المناقشة والحوار، وبما يفعله في قضيته، فكان مَثَلاً أعلى لهم. وهكذا نجد أن هناك أمثلة عليا كثيرة في حياتنا، كلٌّ منها يمكن أن نجعله مَثَلاً أعلى واقعياً لأولادنا ويستفيدون منه.

وعلينا أن نربط أولادنا بمثل أعلى في كل جانب من جوانب الحياة، في الفضائل، في الأخلاق، في العلم، في الرياضة، في التعلم، في العطاء، في الكرم. . . .

لكن الذي فعلته أنا ـ وكان تجربة ناجحة والحمد ـ أني اختصرت فكرة المثل الأعلى في ثلاث كلمات: «اتعب على نفسك»، وكنت أقول: راقب فلان كيف تعب على نفسه وأصبح كذا. كررت هذه الكلمة كثيراً، وكان يتبعها دائماً عبارة أنه يجب أن يكون لك في الحياة هدفٌ وخطةٌ ومنهاج.

هدف أسمى تصل إليه، وخطة تتبعها للوصول إلى هذا الهدف، ومنهاج لتنفيذ هذه الخطة.

وكان أولادي يمزحون معي، وحتى الآن عندما يمزحون معي، إذا سمعوا أحداً يتكلم في التلفاز عن التخطيط، يقولون: أبي: الهدف، والخطة، والمنهج. لكن قبل أيام قليلة جداً، كانت ابنتي تزور المستشار «طارق البشري» ـ وبيننا مصاهرة، فقد تزوج ابنه الأكبر ابنتي الكبرى ـ فسألته ابنتي: كيف استطعت أن تجمع هذا العمل التاريخي؟ ـ وطارق من أعظم علماء التاريخ الآن ـ فقال لها: كنت إذا أردت أن أدرس موضوعاً، نزلت إلى المكتبات، واشتريت كل ما فيها عن هذا الموضوع ستين، سبعين، ثمانين كتاباً، حسب ما أجد. وأعود إلى مكتبتي وأتفرغ لهذه القراءة. وكنت أسأل نفسي كل ليلة: كم قرأت؟ فإذا وجدت نفسي مقصراً اليوم، أزيد الكمية غداً حتى أنتهي من دراستي لهذا الموضوع. وأنا أكتب أثناء القراءة، وأضع الملحوظات، والملخصات، وأرد على بعض النقاط، وأستشهد ببعض الوقائع، وأعد نفسي كأنني أتخصص في هذا الموضوع

وحده دون غيره. فإذا انتهيت منه انتقلت إلى سواه، حتى درست تاريخ مصر كله بهذه الطريقة.

وعندما عادت ابنتي إلى البيت قالت لي: يا أبي، أنا اليوم عرفت معنى: «اتعب على نفسك»، قلت لها: لماذا؟ قالت: كنت عند عمي طارق، وقال لي إنه يفعل كذا وكذا وكذا، وأنا رأيتك تفعل الشيء نفسه، فقلت لها: أنا إذا أردت أن أكتب موضوعاً، أخذت كتباً من مكتبتي، واشتريت بعضها الآخر، وربما استعرت من غيري ممن يملك كتباً تفيدني في موضوعي هذا، وأضعها حولي على المكتب، وعلى الأرض وفي كل مكان، ثم أتفرغ للموضوع، فقالت لي: إذن الطريقة واحدة، فالذي يريد أن يدرس موضوعاً لا بد وأن يتعب فيه بكل ما تصل إليه يده أي: «يتعب على نفسه».

فأنا جعلت قصة المثل الأعلى ملخّصة في «اتعب على نفسك»، وأصبح الأولاد يحسّون ويشعرون أنهم إذا تعبوا على أنفسهم وصلوا لما يريدون. وأنا أصبحت في الحقيقة أقول لهم ولا أخفي عليكم: اعملوا حتى تكونوا مثلاً أعلى لغيركم، ولا تكتفوا بأن تقلدوا مثلكم الأعلى وتقفوا عند ذلك. وهذا أيضاً مما يشجعهم ويقوّيهم، ويدفعهم إلى التقدم، وإلى الرقي في أعمالهم.

وغالباً ما يكون المثل الأعلى في حياة الأولاد الوالدَين،

فهنا من الضروري ألّا تهتز صورة الوالدَين أمام الأولاد، كمثل أعلى يتطلعون إليه في كل تصرفاته، وفي كل حركاته وسكناته. وهذا ينقلنا إلى الحديث عن أثر تعامل الزوجين فيما بينهما، وانعكاس ذلك على الأولاد، والمحافظة على صورة المثل الأعلى في الوالدَين. لذا سننتقل بالحديث إلى كيفية التعامل مع الخلافات الزوجية، وأثر ذلك في اهتزاز صورة المثل الأعلى لدى الأولاد.

الخلاف بين الزوجين

كنا قد تحدثنا وقلنا: إن الوالدين غالباً ما يكونان المثل الأعلى لأولادهما، فعليهما أن يعملا للحفاظ على أن يبقيا كذلك ليكون ذلك أكبر داعم لشخصية الطفل. ولعل موضوع الخلافات الزوجية، هو من أهم العوامل التي يتأثر بها الطفل.

فالخلاف بين الزوجين أمرٌ لا يخلو منه بيت، بل إن بيت النبي ﷺ شهد شيئاً من الخلافات الزوجية، وعالج عليه الصلاة والسلام هذه الخلافات بمنتهى الحكمة والرويّة السامية. ونقلت لنا الأحاديث الصحيحة مواقف لآباء زوجات النبيّ ﷺ، مثل سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر ﵄، ولا سيما مواقف لسيدنا عمر ﵁ وهو يحاسب ابنته حفصة ﵂؛ لأنها ترد على النبيّ ﷺ، والرسول ﷺ يقول له: **«إنهنّ يردُن عليّ ويناقشنني»**، وذُكِر عن عائشة ﵂ أن النبيّ ﷺ كان يعرف من طريقة خطابها ما إذا كانت غاضبة أو راضية، فعندما تكون راضيةً تقول: «لا وربّ محمد، ونعم وربّ محمد». وعندما تكون غاضبةً تقول: «لا وربّ إبراهيم، ونعم وربّ إبراهيم»، والنبيّ ﷺ كان يقول لها ذلك بنفسه، أي أنه يعرف ما إذا كانت راضية أو غاضبة من تغيير صيغة خطابها معه.

فالخلاف بين الزوجين أمرٌ طبيعيٌ لا يخلو منه بيت.

لكن الذي يؤثر على صورة المثل الأعلى المستمدّ من الوالدين، ومن القدوة التي يطلقانها، هو كيفية معالجة هذا الخلاف، وكيفية الخلاف نفسه.

كثير من الأزواج لا يجد حرجاً من أن يتكلم علانيةً أمام أولاده صغاراً كانوا أم كباراً في الأمور التي يختلف فيها مع زوجته، سواءً أكانت أموراً مادية، أم أموراً عائلية، أم أموراً تتعلق بتنظيم حياتهم في الأسرة، أم أموراً تتعلق بالأولاد أو بالعلاقات مع الأصدقاء والأهل؛ فهم يفتحون الأبواب على مصارعها، ويعرضون آراءهم المختلفة، والأبناء يشاهدون كل ذلك، وأحياناً يشاركونهم في مناقشة هذه الخلافات، ويبدون آراءهم فهم إما مناصرين لهذا الطرف أو معادين له أو مزدرين لآراء أبويهم معاً.

وهذا أسوأ ما يمكن أن يقع فيه النظام التربويُّ في الأسرة، ومن أشأم الأشياء المستمدة من القدوة في سلوك الوالدين؛ لأن الأولاد يرون في هذه الحالة أسرةً مفككة، حيث لا يقبل كل من الطرفين كلمة فما فوقها، ويشعرون أن هذه الحياة لا معنى لها. فما قيمة الحياة الزوجية إذا كانت طول النهار مشاكسة وخلافات ومنغصات تذهب بهذه السعادة التي يرجوها الابن أو الابنة؟

الزوجان المتحابان:

والطريقة الأخرى التي يتّبعها بعض الناس وهم قليلون،

طريقة ناجحة وناجعة، هي أن يجعل الزوجان الخلافات الزوجية فيما بينهما وحدهما، في غرفتهما الخاصة، بصوت لا يبلغ مسامع أولادهما، وحول موضوع لا حول أشخاص، حول موضوع يختلفان عليه، ثم يصلان فيه إلى رأي أو حل بالمناقشة والمداومة والتفاهم.

وقد سمعت عن تجربة غريبة في هذا الباب، لم أسمع أنها تكرّرت في مكانٍ آخر، وأتمنى أن ينتبه إليها الكثير من الشباب المتزوجين حديثاً أو مؤخراً ويطبّقونها:

أعرف زوجين كانا في أول حياتهما الزوجية، وهما سعيدان جداً في كل أمورهما، وكانا في مجتمع مغلق، ولكنهما لم يأبها بهذا الإغلاق، بل يخرجان معاً ولا يتسوّقان إلا معاً، ولا يزوران أحداً إلا زيارة مشتركة عائلية.

وكانت تبدو عليهما سعادةٌ غير مألوفة في وسطنا وجيلنا، فسألت الزوج ذات يوم: ما سر هذه السعادة الزوجية الغريبة التي تبدو عليك أنت وزوجتك؟ فقال لي: والله هي السبب، قلت له: كيف؟ قال: في أول زواجنا، في أول أسبوع من زواجنا وقع بيننا خلاف من الخلافات الطبيعية حتى يفهم كل منّا الآخر، وحتى يتعود كل منّا على الآخر، ونفهم طباع بعضنا، وعادات كل منا، فكل منّا أتى من بيت مختلف، وعادات وتقاليد مختلفة، كل منّا أتى من بيت يحمل أفكاراً وعادات مختلفة عن أفكار وعادات البيت الآخر، وهذا شيء طبيعي وسنة الله في الكون، فتشاجرنا ذات يوم، وذهبت إلى العمل، وهي

كانت لا تعمل في ذلك الوقت، فلما عدت إلى البيت، قالت لي: أريد أن أحدثك قبل أن تتناول طعام الغداء، فقلت لها: نتغدى أولاً، فأنا جائع، فقالت: لا، بل أريد أن أحدثك قبل الغداء.

فجلس معها، فقالت له: لقد تشاجرنا بالأمس، وأنت اليوم غاضب مني، قال: نعم، قالت: وأنا أريد أن أتفق معك على ألا نتشاجر حتى نموت، فضحك وقال لها: كيف هذا؟ فكل الناس يتشاجرون، قالت: نعم، نحن تزوجنا وأريد أن نحيا معاً لآخر العمر وأن لا نتشاجر أبداً.

قال لها: نعم، لكن إذا اختلفنا ماذا نفعل؟ قالت: يختلف اثنان آخران، قال لها: ومن هما هذان الاثنان؟ قالت: نخترع شخصين غيرنا ونتفرج عليهما دون أن نتشاجر نحن. فقال لها: ومن هما هذان الشخصان؟ قالت: كعبول وكعبولة، فضحك الزوج، وقال لي: إنها كانت أول مرة يضحك فيها منذ لحظة خلاف اليوم السابق، وقال لها: من كعبول وكعبولة؟ قالت: شخصيتان مخترعتان، فأنت تتكلم بلسان كعبول وأنا أتكلم بلسان كعبولة، فإذا اتفق كعبول وكعبولة فالحمد لله، وإذا لم يتفقا فهذا الخلاف بينهما، وأنت وأنا حالنا كما هو لا يتغير أبداً، ولا نختلف أبداً، فنحن نحب بعضنا ونريد أن نعيش معاً.

قال لي: وأنا أخذتها على قدر عقلها ـ بالتعبير العاميّ المصري ـ وقال لها: نعم وقومي كي نتغدى، وتغديا سوياً.

وبعد مدة وقع خلاف آخر، فقالت له: كعبولة تقول: كذا

وكذا وكذا، فقال لها: كعبول يقول: كذا وكذا وكذا. فقالت: لا هو غلطان، فكعبولة تقول: كيت وكيت وكيت. فقال: لا بل هي على خطأ، ولم تفهم كذا وكذا وكذا.. من قال لك؟ قال لها: أنا أعرف كعبول وهو لا يفعل كذا وأنتِ لا تعرفينه.. والمهم أنهما حلاّ المشكلة بينهما وانقضت على ذلك ـ رحمة الله عليهما ـ ولم يتشاجرا أبداً باسميهما، وإنما تشاجرا بصورة هاتين الشخصيتين الخياليتين المخترعتين، وكان الأولاد بعدما كبروا، يسمعونهما يشيران في أوقات الممازحة بين الأبوين إلى اسمي كعبول وكعبولة، فيسألونهما: من هذا يا أبي؟ من هذه يا أمي؟ فيقولان: هذا ليس من شأنكم، فهما شخصان لا تعرفونهما. وهكذا اتفقا عندما أنجبا أولاداً، ألاّ يتكلما في أمر يهمهما إلا في غرفة نومهما، فعاش الأولاد دون أن يعرفوا أن والديهم يختلفان إلى أن ماتت الأم. حتى أنه قال لي ذات مرة أن أحد أبنائه سأله ذات مرة بعد أن توفيت أمه بعدة شهور، ألم تكن تتشاجر مع أمي؟ نحن لم نرك تتشاجر مع أمي أبداً! فقال له: كنا نختلف ولكن في غرفة نومنا. فقال: وتخرجان مبتسمين؟ قال: نعم، لأننا كنا لا نخرج من الغرفة إلا ونكون قد أنهينا الخلاف. وهذا النوع من العلاقة كمله شيء آخر، إن هذه المرأة كانت فاضلة فيما يبدو، وقد قال لي مرة: إن الشجار فيما بينهما كان ليلاً، فنام غاضباً، وأعطاها ظهره وأعطته ظهرها ـ بالتعبير العامّي ـ وبعد دقيقتين أضاءت النور، وقالت له: قم واجلس، أريد أن أكلمك، فقام، وجلسا معاً وهو غضبان ويريد أن

يتشاجر، ثم قالت: لا يجوز أن ننام غاضبين، نحن زوجان متحابان جداً، ويجب أن ننهي خلافنا قبل أن ننام، فقال لها: أنا متعب، قالت: وأنا أيضاً متعبة، وأنا لا أحب أن أنام وأنا غضبانة منك، ولا بد أن تصالحني، فقال: بل أنتِ صالحيني، قالت: لا أنت الرجل، وأنت المسؤول، وأنت القوّام، وعليك أن تصالحني، قال: لكن كعبولة كانت غلطانة، فقالت: وما لي وما لكعبولة، أنا غضبانة فصالحني، فضحك وتمت المصالحة بينهما، وناما متحابين، وقال لي: بعد هذه الليلة لم ننم إلا ونحن على خير. فمهما كان بيننا في الصباح، جلسنا في المساء وصفيناه ونمنا على خير.

هذا النوع من العلاقة الأسرية الودودة التي فيها المحبة فعلاً والمودة والرحمة والحنو، حيث يعيش الرجل في حضن زوجته، وتعيش المرأة في حضن زوجها، يعطي فعلاً صورة المثل الأعلى للأولاد والبنات، الذي لا ينخدش بخلافات الآباء؛ لأنه لو سألنا أو تطرقنا في الحديث عن الخلافات، خُدِش المثل الأعلى لدينا. فالخلافات واقعة واقعة لا محالة، ولكن لا تخدش المثل الأعلى وإنما تقوّيه.

الاعتراف بالخطأ:

إن من أهم الخلافات التي تقع في الأسرة، ليست تلك التي تقع بين الوالدين فقط، وإنما تلك التي تقع بين الآباء وأبنائهما. والأهم من ذلك أن يكون الأب أو الأم قادرين على

أن يعترف كل منهما بخطئه أمام ابنه أو ابنته، فيقول مثلاً: أنا: كنت غلطاناً، كنت مخطئاً، اكتشفت أنني كنت على خطأ في هذا القرار أو ذاك.

ولك أن تتصور الأثر الذي يحدثه في نفس الابن أو الابنة؛ فحينئذٍ يشعر أن أباه إنسان وأن أمه إنسانة، وأنه قادر على أن يتصور خطأ نفسه، وأن يرد خطأ نفسه بنفسه، ويبحث عن الصواب بنفسه. فيتعلم الولد أنه إذا أخطأ يعترف بخطئه، ويرد نفسه إلى الصواب.

ولا يعد الخطأ كارثة لا حل لها، فهو ليس نهاية العالم، وليس مصيبة لا يمكن إصلاحها أو أمراً يقتضي كذباً فيخفى، إنما أمراً يحتاج للشجاعة للاعتراف به وإصلاحه. فالأبوان القادران على القول لأبنائهما: أخطأنا هنا ونريد أن نصلح هذا الأمر، يقدّمان خدمة جليلة لهؤلاء الأبناء.

أعرف أماً فاضلة كبر أبناؤها وتزوجوا، كانت تناقش ذات يوم أحد أبنائها في أمر تربوي متعلق بابنه، فقالت له: إذا فعلت هذا يكون أحسن، قال لها: لكن أنت كنت تفعلين هذا، قالت: سبحان الله، أنا كنت صغيرة عندما أنجبتكم، وكنت لم أتعلم بعد التربية على نحو حسن، وكنت لا أرى أثر تربيتي فيكم، فأخطأت في هذا الموضوع، وأنا أعلمكم كيف تحسنوه. وبكت وهي تقول له هذا الكلام وقد قال لي هذا الولد نفسه، أنه عندما خرج من بيت أمه وركب سيارته لم يستطع أن يتمالك نفسه من البكاء، وقال: أنا جعلت أمي تقول أنها أخطأت في تربيتنا

وتبكي! وهي التي أنشأتنا نشأة عظيمة، وربّتنا أحسن تربية، و. . . و. . . قال: فلم أكمل طريقي إلى البيت، بل عدت من منتصف الطريق إلى أمي، وقلت لها: أنا لم أقصد أن أضايقك وأن أغضبك. . وأنا أسعد بقليلٍ من الدعاء وما إلى هذا، وقبّل رأسها؛ وخرج من عندها سعيداً، ثم قال: لقد تعلمت درساً لن أنساه، أنني إذا أخطأت أقول لابني: لقد أخطأت.

فهذا النوع من تبادل المواقف، أني أنا اليوم مصيب، وغداً مخطىء، أنا اليوم غضبان، وغداً راضٍ، قبل قليل كنت سيئاً وأنا الآن أحسن، إذا تم بطريقة تلقائية طبيعية لا اصطناع فيها ولا تمثيل ـ كما يمثل الكثير من الناس بعضهم على بعض ـ هذا يؤدي بالأسرة إلى أن تعطي المثل والنموذج والقدوة، والذي نسميه: بالمثل الأعلى بحيث يكون مستقراً.

فإذا اتبع الزوجان الطريقة الأولى التي ذكرناها: الشجار أمام الأبناء، واحتقار كلّ منهما للآخر، وذكر كل منهما للآخر بسوء، كأن تقول الأم لابنها مجرد خروج زوجها من البيت: أرأيت ما فعل أبوك؟ أترى كم سيىء هو؟

هذا ما أريد أن أنهى عنه، وأحذر منه، وللأسف بعض الآباء والأمهات يتندّرون بأخطاء الآخر بأن يشهدوا بعض الأولاد على أمور ليست لائقة تكون عند أحدهما الآخر!

فهذا من أسوأ ما يمكن أن يقع بين الطرفين، الأم أو الأب. فالأم يجب أن تعمِّر الصورة التي يبنيها الأبناء لآبائهم والأب كذلك يجب أن يعمر الصورة التي يبنيها الأبناء لأمهاتهم.

فالأبناء يبنون صورة لا نعرفها نحن؛ لأننا لا نستطيع أن نكشف عن مكنوناتهم، فإذا كانت علاقاتهم بأمهاتهم وآبائهم سوية، فلا شك أن الصورة التي بنوها صورة جيدة، وإذا هدم الأب أو الأم هذه الصورة أساءا إلى الأبناء إساءة كبيرة. وبذلك يدمرا الصورة التي بناها الأبناء للآباء والأمهات، وتدمير هذه الصورة لا يعود أثره فقط على واقع الاحترام بين الجيلين، وإنما يعود أثره على قدرة الابن في بناء نفسه بنفسه بناءً حسناً.

لماذا؟ لأنه سيقول: إذا كان أبي لم يستطع إلا أن يفعل هذا وهذا، فكيف أستطيع أنا؟ إذا كانت أمي لم تستطع أن تتجنب هذه الأخطاء فكيف لي أن أتجنبها أنا؟ فتنهار القدرة الذاتية لبناء نفسه التي أودعها الله فيه، وينهار المثل الأعلى الذي صنعه لأسباب بسيطة: في نكتة تريد أن تقولها الأم، أو طرفة يريد أن يحكيها الأب. ومثل هذا ينبغي الابتعاد عنه، والاحتراس منه، وتجنبه تجنباً تاماً.

تحصين الأسرة من المؤثرات الخارجية

يجب علينا أن نحصّن أسرنا من المؤثرات الخارجية، وما أكثرها في هذه الأيام. فهناك الكثير من المؤتمرات تعقد في سبيل إيجاد حلول لبعض المشاكل التي لا تخص المجتمع المسلم، والتي يحاولون فرضها على مجتمعاتنا، هذا بالإضافة إلى الاتفاقيات التي تتحفظ عليها بلادنا العربية والإسلامية، ولكن لا يزال الغرب يسعى إلى إلزام كل المجتمعات بها.

وهذا موضوع بالغ الأهمية، فقد بدأت الحملة لتغيير القِيَم الاجتماعية المتعلقة بالتربية والطفولة والأمومة والأسرة منذ وقتٍ طويل، وهي ليست جديدة، إذ بدأت في الثمانينات، وبدأت باتفاقيات سُمّيت: بـِ«اتفاقية الطفولة» وانتهت بتسمية: «اتفاقية حقوق الطفل». وكانت هذه الاتفاقية اللبِنة الأولى لمسألة التغيير الاجتماعي التربوي المطلوب أن يقع في العالم، ومنه بلادنا.

وقد تحفظت بلادنا العربية والإسلامية كلها أو جُلها في هذه الاتفاقية، على مسألتين: مسألة التبني التي كانت تلك الاتفاقية تنظمها، وهي مخالفة للشريعة الإسلامية؛ لأن الله تبارك وتعالى نهانا أن ننسب الأولاد إلى غير آبائهم في قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى

ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: 5]، والآية الأخرى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40].

فالتبني ممنوع في الإسلام، ولا يجوز لأحد أن ينسب ولداً إلى غير أبيه، لما ورد في قوله تعالى السابق، وفي الحديث الشريف: «**من انتسب إلى غير أبيه أو ادعى غير مواليه، فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

كما تحفظت بلادنا في مسألة تقرير الحرية في الممارسة الجنسية عند الأطفال؛ لأنه لا يمكن للطفل أن يختار الاختيار الصحيح، ولا هو أصلاً محلاً للرغبة الجنسية أو القدرة الجنسية التي تمكنه من ذلك.

إلا أن هذه المرحلة مضت بسرعة، وبدأت بعدها مؤتمرات الأسرة والسكان، حيث قام فريق عمل بإعداد وثيقة لهذه المؤتمرات، فاشتغل سنين طويلة، وأُقرّت الوثيقة في صورة مبدئية كما يسمونها، وعرضت في مؤتمر القاهرة سنة 1994م.

عرضت الوثيقة وفوجىء الناس بأنها مليئة بأشياء مخالفة للشريعة الإسلامية ومخالفة لتقاليدنا الشرقية ولنظام الأسرة القائم في هذه المنطقة من العالم، منذ وُجدت وحتى اليوم.

ولذلك أحب أن أضع بين يدي قرائنا الكرام، حقيقةً لا

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 4326) و(الحديث: 6766)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 216) و(الحديث: 217)، واخرجه **أبو داود** في (الحديث: 5113)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 2609) و(الحديث: 2610).

يعرفها الكثير من الناس الذين لم يتابعوا تفاصيل هذه المؤتمرات لا سيما مؤتمر القاهرة.

مؤتمر القاهرة:

في مؤتمر القاهرة كانت جبهة المعارضة لهذه الوثيقة التي جاءتنا من الأمم المتحدة مكوّنة من الجهات الآتية: 1 ـ الأزهر الشريف، 2 ـ والجمهورية الإسلامية الإيرانية، 3 ـ وجمهورية باكستان، حيث كانت رئيسة الوزراء السابقة «بنازير علي بوتو» ممن حضر المؤتمر؛ ـ وكانت تشارك في الاجتماعات التي تجري للتنسيق بين المواقف في كل جلسة من الجلسات ـ، 4 ـ ومنظمة الصحة العالمية، 5 ـ والمكتب الإقليمي لشرق المتوسط ومقرّه في القاهرة، ويرأسه أخونا الدكتور «حسين الجزائري»، وكان نائب المدير العام المتولي هذه المسألة وقتها أخونا الدكتور «محمد هيثم الخياط» السوري الأصل، 6 ـ والفاتكان ـ الكنيسة الكاثوليكية ـ، وكان الذي يدير اللقاءات من جانبهم الأب «يوحنا قلتا» النائب البطريركي المصري الآن، 7 ـ والكنيسة الأرثوذكسية المصرية برئاسة البابا «شنودة الثالث» بطريرك الكنيسة.

اتحدت هذه الجهات على أن تُعلي كلمة الحق والدين، فعندما كان يقول كلٌ من الأزهر والكنيسة القبطية والفاتيكان ومنظمة الصحة العالمية ودول مثل: مصر وإيران وباكستان، ثم المملكة العربية السعودية ـ التي انضمت إلى هذه الجبهة في

وقتٍ لاحق ـ كلمة، تصبح هذه الكلمة قوية التأثير، بالغة الأثر في المؤتمر والمؤتمرين.

ومع ذلك اضطرت بعض دول هذه الجهات ـ لأن بعض الدول ليس لها أحقية التوقيع ولا التصديق ـ مثل مصر وإيران وباكستان والمملكة العربية السعودية إلى التحفظ على أجزاء كاملة من الوثيقة، مثلاً فيما يتعلق بالباب الثاني بتمكين المرأة وحقها في الميراث، وحق المرأة مقرر في الميراث شرعاً: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 7]، فحق المرأة في الميراث مقرر عندنا في الشريعة الإسلامية وغير محتاج لوثيقة تقرّره.

وتمكين المرأة في الأسرة، نحن عندنا في القرآن الكريم: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]، وهذه الآية تدل على أننا لا نحتاج إلى وثيقة رسمية تمكن المرأة في الأسرة. فالمرأة في الأسرة شريك ونظير، والنساء شقائق الرجال كما قال النبيّ ﷺ في الحديث الصحيح لأم سلمة: **«النساء شقائق الرجال»**[1]. وهذا الحديث يدل على أن المرأة مثيل ونظير. وليس العبرة بالخصوص ولكن العبرة بعموم اللفظ، فنحن لسنا بحاجة لعبارات يطلقها علينا الغرب في الخارج، بحيث لا تناسب ظروف مجتمعاتنا، بل تتناسب وظروف المجتمعات

(1) ذكره **العجلوني** في «كشف الخفا» (الحديث: 2/ 453).

الغربية، وأصبح البيت مبنياً ليس على الزواج، بل على الصداقة التي يمكن أن تنفصم عروتها في أي وقت.

جاء الكلام بعد ذلك عن حق اختيار المرأة في العمل وتركه، وعن ضرورة مساواتها للرجل في الأعمال، فهناك أعمال لا تناسب المرأة، وهناك أعمال لا تحب المرأة أن تقوم بها، فكيف يُفرض عليها أن تقوم بالأعمال ذاتها وبالطرق نفسها التي يقوم بها الرجال؟

ثم جاء موضوع الأطفال، وكان هناك نص في الوثيقة غريب، وهو ضمان خصوصية الأطفال «Guarantie of children privacy»، هكذا سموها، كيف نضمن خصوصية الأطفال بنظرهم؟ بأن يغلق على نفسه باب غرفته، ونتركه يقرأ ما يشاء، ويشاهد ما يشاء في التلفاز، أو يرى ويسمع ما يشاء على الإنترنت، أو يتكلم مع من يشاء عبر الهاتف، فما معنى خصوصية الأطفال؟

لا خصوصية للأطفال إلا في معاملتهم معاملة كريمة محترمة، ولكنهم دائماً ينبغي لهم أن يكونوا تحت رقابة الأسرة ورعايتها. فمن هنا جاءت تحفظات عديدة في هذه المواضع.

مؤتمر بكين:

تكرّر الأمر نفسه في مؤتمر بكين الذي انعقد بعد هذا المؤتمر بسنة، وتحفظت الوفود بنفسها على ما تحفظت عليه في الوثيقة الأساسية، لكن مما يؤسف له، ـ وأنا أقول هذا بحزن ـ

أن عدداً من الدول العربية والإسلامية المتحفِّظة أخذت تصدر الآن تشريعات لتطبيق ما جاء في هذه الاتفاقية على الرغم من التحفّظ.

وكأن هذا التحفّظ كان لإرضاء شعور الشعب العام، ثم تصدر الآن القوانين تباعاً لتمكين تنفيذ ما طلبته هذه الاتفاقيات العربية والإسلامية. وهذه القوانين ستسقط؛ لأن الناس لن يحترموها، ولن يطيعوها، ولن يلتزموا بها، وسيجد القضاء ألف طريقة لتفسيرها بما يتفق مع القِيَم الإسلامية والدينية الثابتة في مجتمعاتنا التي قامت عليها أسرنا.

فهذا الأمر في غاية الأهمية، ويجب أن نضع حداً لهذا الغزو المتكرّر لأفكار لا تتناسب ومجتمعنا، ولا تتفق مع ثقافتنا بل تخالف أدياننا، والتي تريد أن تُفْرَض علينا من الخارج.

العناوين البراقة:

العناوين براقة ومغرية، مثل: منع كل أشكال التمييز ضد المرأة، هذا شيء مهم، وشيء جيد نطالب به نحن أيضاً، ولكن في البنود وفي الأسطر مخالفات فيها حلول لمجتمعات غير مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

وأول ما يجب فعله للتحصّن من هذا التوجه هو أن نسمي الأشياء بأسمائها؛ لأنه في الحقيقة تنضوي تحت هذه العناوين البراقة، أمور ذات خطر على ثقافتنا وتقاليدنا. فالعنوان البرّاق يسعى إليه كل عاقل، لكن مضمون هذه الاتفاقية فيه تمييز ضد

المرأة وضد الرجل، وهو هدمٌ لأسرنا وقِيَمنا الاجتماعية. ونحن لا نسميه اتفاقية منع أشكال التميز ضد المرأة، بل نسميه اتفاقية هدم الأسرة، لأن هذه ليست اتفاقية للتمييز ولكنها اتفاقية للهدم.

فالاحتلال الإسرائيلي مثلاً يسمى: «الاستيطان»، ونحن ينبغي أن نسميه «الاستعمار الصهيوني»، والاحتلال في العراق يسمى: «محاولة نشر الديمقراطية» ونحن لا نقبل أن يكون كذلك، بل نسميه: «الاحتلال الأمريكي للعراق».

ووثيقة الإصلاح في الشرق الأوسط هي وثيقة لهدم القِيَم، وجزء منها هو هدم اللغة العربية، عن طريق تطويرها وإعادة كتابتها بطريقة يفهمها الغربيون، يعني: بالحروف اللاتينية كما كُتِبت التركية من قبل، وكما كتبت لغة الهَوْسا ولغة الأوردو، وهذا كله جزء من وثيقة الإصلاح التي نشرتها الولايات المتحدة الأميركية. وصديقنا الدكتور «محمد حرب» كتب مقالاً مهماً جداً في الصحيفة البحرينية عنوانه: «بوش على خطى أتاتورك»، ووضع النص الذي قاله أتاتورك عن اللغة العربية مقابل النص الذي جاء بوثيقة بوش، فتجد وأنت تقرأهما كأنهما نص واحد، لذلك ينبغي أن نسمي الأشياء بأسمائها، ونقول: إن هذا إفساد للأطفال وهدمٌ للأسرة، ومخالف للدين، وينبغي ألا نخجل ولا نتقوقع خشية أن يهاجمنا العالم، **هذا أمر**.

والأمر الثاني: نشر الوعي لما تتضمنه هذه الاتفاقيات من مخاطر على الأسرة والمرأة والأطفال، ونشر الوعي هذا لا

يكون فقط بين العامة من الناس، وإنما بين المسؤولين الحكوميين، والجهات التشريعية والرقابية، ورجال القضاء وكل الذين يعملون في القانون، لأن هذه الجهات هي التي تطبق ما تشرّعه هذه الدول. وواجب هذه الدول ألا تشرع قوانين تنفذ أحكام هذه الاتفاقيات، أما إن فعلت ذلك فعلينا أن نمنع تطبيقها عن طريق القضاء.

فهناك محاكم دستورية خاصة يُطعن أمامها في هذه الاتفاقيات، والقضاة القيمون عليها يحوّرونها وفق ما يتناسب مع تقاليدنا وشريعتنا، لأنهم حراس ثغر مهم لا يمكن التفريط فيه، وهم الدفاع الأول أمام هذه القوانين إذا طبقت في بلادنا.

الأمر الثالث: الجمعيات التي تسمي نفسها هيئات المجتمع المدني التي تدافع عن هذه الاتفاقيات، وترى أنها خير للمجتمع. وأنا من تجربتي مع هذه الجمعيات التي تنساق وراء الدعوات الغربية، أرى أنها عادة جمعيات مموّلة تمويلاً كبيراً جداً من الخارج. إذ يظن بعضهم أن طريق التقدم لا يكون إلا في اتباع الغرب، ويرى بعضهم الآخر أن طريق التمدن أيضاً لا يكون إلا في اتباع الغرب، وأننا كي نساوي الغرب في حضارته وثقافته وتقنيته وصناعته لا بد وأن نهدم كل القيود الباقية عندنا من أجدادنا وآبائنا. وهم لا يدركون أن دولاً كثيرة صنعت ذلك، غير أنها لم تَنَل من ركب الحضارة شيئاً، دولاً كثيرة صنعت هذا فخسرت نفسها ولم تستطع أن تتقدم إلى الأمام. وانظر إلى دول أميركا اللاتينية الآن، حيث فيها التقليد المشوه لهذه الحضارات والثقافات الغربية دون أي تحفظ؛ وانظر إلى الفئات التي تقلد

الدول الغربية تقليداً أعمى، في شكلها ولغتها ومظهرها وتربية أولادها. فانظر إلى مثل هذه الفئات في مجتمعاتنا هل قدموا لنا شيئاً جديداً؟ هل اخترعوا لنا اختراعاً مفيداً؟ هل صنعوا لنا صناعة لم تكن موجودة؟ أبداً، بل الذين صنعوا ذلك كله هم المتمسكون بأديانهم وتقاليدهم وعاداتهم، لأن هذه هي البذور التي تنبت في تربتنا، أما البذور المستوردة فتنبت أغصاناً لا لون لها، ولا طعم لها ولا رائحة، فتحسبها جميلة، وإذا أمسكتها وجدتها كريهة وقبيحة. فالإنسان ينبغي أن يضع نفسه في الموضع المناسب له، أن يكون عاملاً بما يعلم، وأن يكون متمسكاً بهذا الدين، فلا يخدش منه شيئاً ولا ينقص منه شيئاً، ولا يسمح لهذه القوانين التي تحاول أن تفرض نفسها علينا أن تغير في طبيعة مجتمعنا أو تركيبته.

العادات الخاطئة:

كما أننا لا ننكر على بعض القائمين على هيئات ومنظمات المجتمع المدني حسن نيتهم، فمن العدل والإنصاف أن لا ننكر عليهم أيضاً محاولتهم لتصحيح بعض الأخطاء الاجتماعية والموروثات التي هي بالفعل ممارسات خاطئة، وتطبيقات مخالفة للدين والشرع، ولكن كيف يمكننا أن ننسّق بين جهود هؤلاء الذين يحسنون صنعاً ولكن يتبنّون فكرة أو منهجاً خاطئاً؟

إن كل صور التمييز القائمة ضد المرأة القائمة في مجتمعاتنا غير مبنية على الدين، ولا على الإسلام ولا على

المسيحية، وإنما هي سلوك يفعله الناس بالتوارث، ولا علاقة له بأديانـنا. وأول طريقة للقضاء عليه هي رد الأمر إلى الدين، ولنأخذ مثلاً: يوجد في مصر والسودان وبعض الدول الأفريقية عادة قبيحة، اسمها: عادة خِتان الإناث، وهي عادة لا أساس لها من الدين، وإن نُسِبَت إليه ظلماً وزوراً.

ونحن منذ عام 1994 نجاهد في منع هذه العادة، ووقف انتشارها، والإقلاع عنها. كيف نفعل ذلك؟ نفعل ذلك بالرجوع إلى القرآن والسنة والبيان، إذ لا يوجد في الأحاديث الصحيحة حديث صحيح واحد يثبت هذه العادة.

ونبين للناس أن الفقهاء الذين أخذوا بأحاديث ضعيفة لا يجوز الأخذ بها ولو تبين لهم ضعفها لما قالوا ما قالوه، وقد أنتج هذا الأمر أثراً مهماً جداً، مثلاً: المرأة والعمل العام، فالمرأة في معظم بلادنا العربية والإسلامية مقيدة أو أسيرة البيت، أو تُتْركَ للأسواق والشراء والتسوق، ثم إنها لا تشارك بشيء في بناء المجتمع وتنميته.

بحثنا موضوع المرأة والعمل العام، فوجدنا أن النساء منذ عهد النبيّ ﷺ شاركن في جميع صور الحياة العامة بما فيها القتال، الذي لم يكن مفروضاً عليهن. فأخذنا نبين هذا للناس وندعو إليه. وأيضاً الظلم الذي تتعرض له المرأة في الميراث، ليس سببه الإسلام أو المسيحية، وإنما سببه الناس الذين لا يوَرّثون المرأة. وكنا قبل فترة نشارك في برنامج تلفزيوني وكانت تشارك معنا في هذا البرنامج سيدة مسيحية فقالت: انظروا إلى

الصعيد المصري، المرأة فيه لا ترث سواء أكانت مسلمة أو مسيحية، بل يعطونها ما يسمى رضوة، والرضوة هي بعض المال يرضونها به، ثم إنها لا ترث شيئاً قط من ميراث أبيها أو أمها. . . . إذاً فالأمر لا علاقة له بالدين، وإنما يعود ذلك إلى العادات والتقاليد، لذلك يجب على الدعاة والمفكرين، وعلماء الدين أن يقاوموا هذا التمييز ضد المرأة، لقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: 71]، وقول النبيّ ﷺ: «**النساء شقائق الرجال**»، هذه الأصول والأُسس الدينية هي التي ينبغي أن تحكم نظرتنا إلى المرأة، وتعاملنا معها، وما يُسْمَح به في مجتمعنا وما لا يُسْمَح به. أما أن نقلد تقليداً أعمى، أو نسكت عما بدأ في القرون الوسطى من ظلم وإذلال ومن قهر للمرأة، فهذا لا يجوز شرعاً أصلاً، ولا يجوز حتى كرامة وخُلُقاً ورجولة ونخوة.

خطاب المرأة:

ليتنا معاً نخاطب أمنا، وأختنا، وبنتنا، أن الهجمة ضد الإسلام والمسلمين في العالم اليوم، وتحت ستار ما يسمى: بالنظام العالمي الجديد، أو العولمة؛ وإحدى أدواتها هذه الاتفاقيات التي تحاول تغيير بعض المفاهيم في مجتمعنا وفرض الحلول علينا، وتدخل من شبهة المرأة وحقوق المرأة، وحقوق

الإنسان، ليتنا نقول بصوتٍ مرتفع لهذه المرأة ـ التي هي كما ذكرت والدة وابنة وأخت وزوجة، وخالة وعمة وجدة ـ إن الاستهداف الأول هو أنت يا أمي، ويا أختي، ويا زوجتي وابنتي، ارفضي ما يُراد بكِ، ولا تنساقي وراء هذه القوانين. أعلني من خلال المنظمات العربية والمسلمة أنك ضد هذه الاتفاقيات الدولية، وضد تغيير التشريعات على أساسها، فهناك شيء اسمه: «منظمة المرأة العربية» ماذا تفعل هذه المنظمة، تديرها زوجات رؤساء الوزراء ومن إليهم، قولي لهؤلاء النسوة في خطابات ومقالات وبرقيات: نحن لا نريد ما تحاولن صنعه في بلادنا، نحن نريد أن نعود إلى أصولنا، وديننا وثقافتنا الصحيحة التي تُستمد من هذه الأديان لكي تقوم الأسرة على ما يصلح المجتمع، لا لكي تكون الأسرة معول هدمٍ وفسادٍ وإفسادٍ في هذا المجتمع.

فالحمد لله على نعمة الإسلام والحمد لله على نعمة الإيمان.

فهرس المحتويات

تذخر شريعتنا الإسلامية بكنوز تخص قضايا الأحوال الشخصية التي وضعت أسس العلاقات الأسرية من حقوق وواجبات وأخلاق تتحكم بهذه العلاقات بين أفراد الأسرة.

والنبي ﷺ يبيّن من خلال سيرته الوضاءة أن التدين وحده لا يكفي إن لم يقترن بالخلق، كما أن الأخلاق الرفيعة وحدها لا تكفي إن لم تقترن بعلاقة سليمة بين العبد وربه تعكس هداية ورحمة بين الناس، الأقربين منهم قبل غيرهم.

لذا أراد الكاتب أن يعود بنا إلى أصولنا وديننا وثقافتنا الصحيحة لكي تقوم الأسرة على أسس متينة سليمة لتكون النواة الأولى للمجتمع الصالح والسعيد.

ولعل ما يزيد من قيمة الآراء الواردة فيه أن كاتبه ذو تجارب عريضة ومميزة في مجال العلاقات الأسرية والتي اكتسبها أولاً من خلال مهنته (القضاء والمحاماة) وثانياً من نشأته وتربيته لأولاده، فجاءت آراؤه وتوجيهاته التربويّة واقعية صادقة قابلة للتطبيق لتؤتي الثمار الطيبة بإذن الله.


دار المعرفة
للطباعة والنشر
www.marefah.com


ISBN 9953-85-060-7
9 789953 850603 90000>